مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

النظرية الثانية

ذٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ



القدر

نظرية قرآنية
في مسائل القضاء والقدر

تعرض لأول مرة في العالم

اقرأ

المهندس عدنان الرفاعي

المهندس عدنان الرفاعي

النظرية الثانية ((القدر))

.. عفوا أيها السادة ..

.. هذه النظرية

.. للباحثين عن الحقيقة ..

.. اولي الألباب في كل جيل ..

المهندس عدنان الرفاعي

كاتب ومفكر إسلامي

مواليد : سورية - درعا - تلشهاب .. عام : ١٩٦١ م ..

من المؤلفات:

"النظرية الأولى (المعجزة)

"النظرية الثانية (القدر)

"النظرية الثالثة (الحق المطلق)

"النظرية الرابعة (الحكمة المطلقة)

"النظرية الخامسة (إحدى الكبر)

"النظرية السادسة (سلم الخلاص)

"الحق الذي لا يريدون

"قصة الوجود

"المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء)

"محطات في سبيل الحكمة

"نقد نقد النظرية الإعجازية في القرآن الكريم

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

المقدّمة

الحقُّ ميزان العدل ، ومنهج الهدى ، وطريق السلامة .. الحقُّ من الله تعالى ، وحكمُهُ ومُرادُه ، فهو نورٌ يزهقُ ظلام الباطل .. وما عدا الحق باطلٌ يغلو في ظلمـــات الجهـــل والضلال ..

ولا تكون الحقيقة إلاّ بالانطلاق من مقدّمات الحقّ ، والســـير في طريـــق الحـــق ، للوصول إلى نتائج يقرّها الحق ..

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢]

.. إنّ عمق البحث واقترابه من الحقيقة لا يكونان بطرح التصوُّرات وفلسفتها حسب خيال البشر وملاءمتها لأهواء النفس ، إنّما يكونان بالبرهنة المستمدّة من الثوابت المُجرّدة عن الأهواء والعصبيّات المُسبقة الصنع ..

فمن السهل على الإنسان حمل تصوُّر ما والإعجاب به وتفصيله حسب هوى نفسه ، ولكنّ عمق هذا التصوّر وصدقه واقترابه من الحقيقة هي مسائل ترتبط بالبرهنة الثابتة المُستمدَّة من مقدِّمات يقرّها العقل والمنطق ، وعبر استنتاج لا يخرج عن المنهج العلمي ..

ولوضع أيٍّ بحثٍ في ميزان الحقِّ والحقيقة ، لا بدّ من أن تكون مقدّمات هذا البحث ومادّة بنائه بعيدةً عن الخيال والهوى ، وإلاّ فبناء هذا البحث لا يستقرّ في ميزان ، ولا يُقام على أرض الحقيقة الثابتة ..

ولا بدّ لمن يزن هذا البحث ويقيّمه أن يملك عمقاً في النظر إلى جوهر الأمور ، وعمقاً في إدراك الفارق بين التهريج والتوليف من جهة ، وبين البراهين الثابتة المنطلقة من مقدّمات ثابتة والمؤدّية إلى الجوهر وذات الهدف النبيل الموصل إلى الحقيقة ، من جهة أُخرى ..

إنَّ حركة الحياة في هذا الكون ليست من صنع المصادفة العمياء كما يتخيّل بعض الضالّين ، فهناك إرادة الله تعالى ومشيئته وقدرته التي تقف وراء ذلك .. ولذلك فإنّ المنهج الإلهي الذي أنزله من خلق ورسم حركة الحياة ، لا يمكن أن يكون إلاّ حقّاً يحمل الخير لمخلوقات هذا الكون ..

نحن نعلم أنَّ قوانين المادّة ، ونظم الكون ، ثابتة ومرسومة بحكمة إلهيّة منذ خُلق هذا الكون ، ونعلم أنَّ الارتقاء الحضاري يكون باكتشاف جوانب من هذه النظم والقوانين ، وتوجيهها حسب الغاية الحضاريّة لجيلٍ من الأجيال ..

فالارتقاء الحضاري يكون بمقدار وعي الإنسان لهذه القوانين ومتعلّقاها المادّية وتوظيفها في المشاكل الحضاريّة ، وفق منظومة القيم الأخلاقيّة .. وهذا لا يعني أنّ هذه القوانين والنُّظم تتبدّل تبعاً لرغبة الإنسان وتوجيهه لها ، أو أنّها وُجدت بعد اكتشاف الإنسان لها .. إنَّ الذي يتبدّل ويتطوَّر هو وعينا لهذه القوانين والنظم الثابتة ، وقدرتنا على استخدامها والاستفادة منها ..

إذا كانت القوانين والنظم التي تحكم المادة المخلوقة والمحكومة لإطار المكان والزمان ، هذا شأنها ، فما هو شأن المنهج الإلهي المتعلّق بصفات الله تعالى الحكيم الخبير العليم ، والذي تلقّاه ﷺ من لدنه جلّ وعلا ..

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١]

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦]

وما هو شأن المنهج الإلهي الذي لا تحكمه قوانين المكان والزمان ، لأنه روحٌ من أمر الله تعالى غير المحكوم لهذه القوانين ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا ﴾ [الشورى : ٥٢]

إنَّ المنهج الإلهي روح من أمر الله تعالى يمنح الحياة لمن يهتدي بنوره ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال : ٢٤]

فهو يحوي الأحكام الشرعية الثابتة المتعلِّقة بالروح ، غير المحكوم لحركة المكان والزمان ، والتي يبيِّنها الله تعالى في كتابه الكريم .. هذه الأحكام ثابتة ووعينا وإدراكنا لها ثابت ، لأنها قضاء الله تعالى الشرعي الذي اختاره لعباده ..

ويحوي القرآن الكريم أيضاً الأحكام الكونية المرتبطة بالمادة وحركتها ، هذه الأحكام التي نرتقي في إدراكها جيلاً بعد جيل ، لذلك نرى أنَّ النَّص القرآني ذاته يعطى لكلِّ جيل ، ما يناسب علمه وحضارته ودرجة وعيه ، بالنسبة لهذه المسائل الكونية المرتبطة بالمادة ، وهنا يكمن جانبٌ من جوانب إعجاز القرآن الكريم ، التي لا يعلم حدودها إلاّ الله سبحانه وتعالى ..

إنَّ النَّفس الإنسانيَّة المتفاعلة مع أحداث هذه الدنيا ، هي التي تملك سلطان توجيه إرادة الإنسان ، ودفع قواه باتجاه غايتها المرادة ، وهي من يقف وراء فلسفة قوانين المادة الثابتة ، حسب منظارها الذي تطلُّ منه على هذا العالم ..

لذلك نرى أنَّ النفوس البشرية تنظر إلى الثوابت الماديَّة ، التي تحكم حركة مادة هـذا الكون وخواصِّها ، وما وراء ذلك ، نظراتٍ متباينة ، كلٌّ نفس حسب غايتـها ومـن خلال منظارها ..

فهناك من النفوس من تدرك ببصيرتها – على قدر إدراكها – عظمة الخالق سبحانه وتعالى وقوَّته وحكمته ، وأنَّ خلق السَّماوات والأرض لا يمكن أن يكون باطلاً غايتـه اللعب واللهو ..

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]

وهناك من النفوس من تنظر إلى هذه القوانين والنواميس ذاتها ، نظرة عمياء لا تتجاوز الإطار الظاهري للمادَّة ، دون أن يبعث ذلك فيها أيَّ عمقٍ وإدراكٍ لما وراء هذه المادة ..

﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وهكذا نرى أنَّ النفس هي التي تقف وراء فلسفة ما نتفاعل معه في هذه الدنيا .. لذلك مهما ارتقى الإنسان في إدراكه واكتشافه لقوانين المادَّة وخواصِّها ، وفي قدرته على توجيه ذلك لخدمة غاياته الحضارية ، فليس من الضروري أن يقتضي ذلك ارتقاءه – بشكل يتناسب مع ذلك – في اكتشاف خبايا النفس والإحاطة بصفاتها ..

هذه النفس البشرية ، لا تُفتَح مغاليقها ، ولا تُعرف أسرارها ، ولا يُرى ما بداخلها ، إلاّ بإسقاط نور الحق الذي تحمله كلمات خالق هذه النفس ، على دهاليزها ، لتبديد الظلام المحيط بخباياها ، واكتشاف حقائقها ..

وهكذا يكون التعمُّق في فهم الحقيقة وإدراكها ، ليس بالنظر إليها من زاوية هوى النفس ، إنما يكون بالاقتراب أكثر من ماهيَّتها وجوهرها ، عبر الحقائق الثابتة ، وبالتالي الابتعاد عن كلِّ الضلالات التي تُبعد عنها .. إنَّ الحجَّة الأكيدة والبرهان المبين يكونان بالفهم الأكثر عمقاً وصحةً للنَّص القرآني الكريم ، ضمن إطار العلم والعقل والمنطق ..

إنَّ ما يتطوَّر – في إدراكنا لدلالات القرآن الكريم – هو إدراكنا للفكر الذي يشعُّ منه ، وللقوانين الكونيَّة التي يحملها ..

ومسائل القضاء والقدر – على الرغم من أنَّها من مسائل العقيدة – هي أقرب ما تكون – من منظار الفكر الموروث – إلى الفكر الفلسفي .. ولذلك فكلُّ التعريفات التي تمَّ وضعها بالنسبة لمسائل الروح والنفس والإرادة والمشيئة والقضاء والقدر ، يجب معايرتها بشكلٍ مستمر على كتاب الله تعالى ، فبمقدار ما يتوافق تعريف المسألة مع دلالات مشتقَّات الجذر اللغوي الذي تفرَّعت عنه الكلمات التي تصف هذه المسألة في كتاب الله تعالى ، بمقدار ما يكون تعريفنا للمسألة أقرب إلى الحق ..

فارتباط الكلمة القرآنية بماهية المسألة التي تصفها وتسمِّيها هذه المكلمة وبجوهرها ، هو ارتباطٌ مطلق ، لأنَّ المتكلم الذي يصف هذه المسألة ويسميها ، هو ذاته خالقها ، وبالتالي فقد سمَّاها ووصفها تسمِّيةً ووصفاً مُطلَقيْن ، يرتبطان ارتباطاً مطلقاً بطبيعة هذه المسألة ..

فالكلمة القرآنية ليست وضعية اصطلاحية من صنع البشر ، كوسيلة للتعبير عن شيء ما .. صحيح أنَّ اللغة العربية موجودةٌ قبل نزول القرآن الكريم ، ولكنَّ المفردات القرآنيَّة – كما رأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبر) – فطرية موحاة من الله تعالى ..

فالقرآن الكريم كلام الله تعالى وقوله ، ورُسم حرفاً حرفاً بأمر الله تعالى ، وقد رأينا ذلك في النظرية الأولى (المعجزة) .. فلم يترل القرآن الكريم على الرسول ﷺ معنىً من السماء يترجمه الرسول ﷺ إلى اللغة العربية .. أبداً .. إنَّ كلَّ ما في القرآن الكريم رسماً ولفظاً هو من السماء ، ولا علاقة للبشر – ومنهم محمد ﷺ – بذلك ..

وهذه الحقيقة الثابتة ، هي من أهم الحقائق التي تميِّز القرآن الكريم ليس عن المناهج الوضعية للبشر فحسب ، وإنما أيضاً عن الرسالات السماوية الأخرى ، ولذلك كانت معجزة القرآن الكريم صفةً من صفات الله تعالى ..

إنَّ ارتباط الكلمة بجوهر المسألة وماهيَّتها التي تصفها وتسميِّها ، يتجلَّى في ارتباط مجموع حروف هذه الكلمة – عبر مجموع حروف النَّص الذي تنتمي إليه – بمجموع الواحدات الأساسية للمسألة التي يصوِّرها النَّص الذي تنتمي إليه هذه الكلمة ..

وقد رأينا في النظرية الأولى (المعجزة) مئات الأمثلة التي تثبت ذلك ، فمثلاً رأينا أنَّ مجموع الحروف المرسومة النازلة من السماء ، والتي تصوِّر لنا سورة نوح عليه السلام ، هو (٩٥٠) حرفاً ، وهذا مطابق تماماً لمجموع سني المدَّة الزمنيَّة التي لبثها عليه السَّلام في قومه ..

وما كان ذلك لو لم تكن الكلمة ورسمها من الله تعالى ، بعيداً عن تسمية البشر الوضعيَّة الاصطلاحيَّة للأشياء ، وعن رسم الكلمة الوضعي أيضاً ... وهكذا فإنَّ الرسول ﷺ تلقى القرآن الكريم رسماً وقراءةً كما هو تماماً من السماء ، دون أن يكون للغته وقواعد إملائها أيّ تأثير على نُطق الكلمة القرآنية ورسمها ..

ورأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبَر) ، أنَّ المفردات القرآنيَّة هي ذاتها الأسماء التي علَّمها الله تعالى لآدم عليه السَّلام ، وبرهنَّا – عبر دليلٍ رقميٍّ لا يعرف الكذب ولا الخداع – على أنَّ الحرف القرآني هو واحدة معنى ، وليس مجرَّد واحدة لفظٍ صوتي ..

إنَّ إدراك عمق هذه الحقيقة التي اختصَّ بها القرآن الكريم ، دون سائر الكتب السماوية الأخرى ، يرتقي بالباحث والقارئ على حدٍ سواء ، في تصوُّر خصوصيَّة معجزة الإسلام الخالدة (القرآن الكريم) ..

وسنتناول في هذا البحث مسائل تُعدُّ من أهم القضايا التي تُثار في كلِّ نفس ، إنها مسائل القضاء والقدر والجبر والاختيار ، فلا توجد نفسٌ إلاّ وتحمل تصوُّراً تجاه هذه المسائل ، كلّ نفس حسب موقعها على سلَّم الوعي والإيمان ..

فسواء المؤمنون الذين يعلمون أنَّ القوَّة التي تُسيِّر هذا الكون هي من الله تعالى ، أم غيرهم الذين يعتقدون غير ذلك .. سواء هؤلاء أم هؤلاء ، ينظرون إلى الحدود التي تفصل هذه القوَّة عن حدود قوة الاختيار التي يتحركون في إطارها ، كلٌّ حسب وعيه وعلمه وإيمانه .. لذلك تُعدُّ هذه النظرية — إضافةً إلى كونها نظريةً قرآنية — نظرية فلسفية علميَّة تهمُّ كلَّ إنسان ..

ومسائل القضاء والقدر والجبر والاختيار ، هي من المسائل المرتبطة تماماً بالنفس الإنسانيَّة وإرادتها ، لذلك نرى أنَّ البشر ينظرون إلى هذه المسائل نظراتٍ متباينة ، فهذه المسائل ليست ماديَّة يمكن وضعها في المختبر وإجراء التجارب المادية المحسوسة عليها ..

وممَّا يميِّز مسائل القضاء والقدر ، هو ارتباطها المزدوج بمسائل الدنيا والآخرة في الوقت ذاته ، وبتفاعل هذه المسائل في ساحتي الوعي والتجربة والحياة الإنسانية ، ويكون الإنسان مادة تفاعل هذه المسائل ، ومصيره هدف نتائجها ..

وممّا يميِّز هذه المسائل أيضاً ، هو ارتباطها المزدوج بين حركة الإنسان وعلاقة النتائج التي يحصل عليها نتيجة تفاعله مع مقدماتها من جهة ، وبين أمر السماء والانصياع له ، وعلاقة ذلك بهذه النتائج من جهة أخرى ..

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦]

﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد : ١١]

وبعض البشر يظنون أنَّ العلاقة بين المقدمات ونتائجها ، منصاعة بشكلٍ مطلقٍ للأسباب والقوانين التي تحكمها ، وينسون خالق هذه الأسباب ومسخِّرها ، والقادر على خرقها متى شاء .. وبعضهم يؤمنون بخالق هذه الأسباب ومُسخِّرها ، وبأنها تعمل بقدرته وبمشيئته سبحانه وتعالى ... لذلك ترتبط مسائل القضاء والقدر بعقائد الناس ، ودرجات إيمانهم ، وأُفق تصوُّرهم لمسائل الدين ، فهي مسائل ترتبط بإدراك الناس للحكمة والهدف الذي خُلق الإنسان من أجله ..

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢]

وما أكثر التخيلات والتصوُّرات والتَّأويلات التي أحاطت بهذه المسائل ، والتي تأرجحت بين الجبرية التامة التي تجعل من الإنسان مسلوب الإرادة والاختيار ، وبين حرية الاختيار التامَّة التي تجعل من الإنسان سيِّداً لكلِّ شيء ، وكأنَّه اختار كلَّ شيءٍ في حياته .. لذلك فمسائل القضاء والقدر ، هي أقرب ما تكون إلى الفلسفة المرتبطة بذاتيَّة النَّفس وبمنظارها إلى الحياة ..

وحتى يكون بحثنا أقرب ما يكون إلى الحقيقة ، ومستقلاً عن الفلسفات الوضعيَّة وتصوُّراتها ، لا بدَّ من الانطلاق من مقدمات ثابتة مستمدَّة من عمق كلمات الله تعالى ، وناتجة عن إسقاط نور الحق في كلمات الله تعالى على خبايا النفس ، من أجل الوصول إلى نتائج تقرُّها كلمات الله تعالى ، وبالتالي يقبلها العلم والعقل والمنطق ..

ومن هنا كانت مقدّمات هذه النظريّة مقدّماتٍ قرآنيّةً علميّة ، وكان الرابط الذي يربط مقدّماتها باتّجاه نتائجها رابطاً عقليّاً منطقيّاً .. فمقدّمات هذه النظريّة (القَدَر) وتحاليلها ونتائجها لا تخرج عن إطار العلم والعقل والمنطق ، ولا يمكن لحقائق العلم والعقل والمنطق أن تتعارض مع نتائج هذه النظريّة .. لذلك فهي نظريّة قرآنيّة علميّة فلسفيّة ..

وهي ليست فلسفةً حمقاء مادّتها الخيال البشري وقالبها هوى النفس وهدفها فرقعة إعلاميّة للفت الأنظار ، وليست عملاً أدبيّاً أو شعراً مادّته الأحلام وقالبه الغي وهدفه عمل لا علاقة له بالفكر .. إنّها منهجٌ واضحٌ كامل ، مادّته القرآن الكريم وثوابت العلم والمنطق ، وقالبه العقل ، وهدفه الحقيقة ..

وفي هذه النظريّة لا نهمل الفلسفات الوضعيّة ، ولكنّنا لا نعتبرها مقدّماتٍ ننطلق منها ، لأنّها من وضع البشر ، وليست مطلقة ، فهي نسبيّة تتعلّق بوعي البشر وإدراكهم في أزمنة وأمكنة محدّدة ..

أمّا كلام الله تعالى المتعلّق بصفاته جلّ وعلا فهو كلامٌ مطلقٌ صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكان ، ويحوي نهايات النظم الفلسفيّة والفكريّة والقوانين الكونيّة التي تحكم هذا العالم ..

لذلك فكلّ ما يحمله القرآن الكريم من صورٍ ومعانٍ للمسائل المطروحة هو المقدّمة الكبرى من مجموعة المقدّمات المتناولة في برهان هذه النظريّة ..

وهناك مقدّمة أُخرى معتمدة في برهان هذه النظريّة ، هي أنّه لا تُوجَد في القرآن الكريم كلمة قرآنيّة مرادفة لأخرى .. إنَّ كلَّ كلمة قرآنيّة مستقلّة في الرسم ، تصف وتسمّي مسألةً لها خصوصيّتها الخاصّة بها ، وتضيء جانباً خاصّاً مستقلاً عن الجوانب التي تضيئها الكلمات الأخرى المرادفة لها حسب تصوّر البشر .. ولو كانت الكلمات المترادفة – حسب تصوّر البشر – تصف وتسمّي وتضيء الجانب ذاته للمسألة ذاتها ، لَمَا أنزل الله تعالى هذه الكلمات المختلفة رسماً وقراءةً للمسألة نفسها ..

لذلك فإنّ إدراك الحدود بين هذه الكلمات المترادفة – حسب تصوّر البشر – والإبحار بعمق في هذه الحدود التي تفصل بين هذه المسائل المتشابهة ، أو بين أسماء الصفات المتشابهة للمسألة الواحدة ، هو مقدّمة من مجموعة المقدّمات المعتمدة في برهان هذه النظريّة ..

ويجب ألاّ يُفهَم من مسألة عدم وجود ترادف مطلق بين الكلمات القرآنيّة ، أنَّ أسماء الصفات المرتبطة بمسألة ما ، والتي تصف لنا جوانب هذه المسألة ، تعني تجزئة هذه المسألة إلى أجزاء ترتبط بالمترادفات التي تصف وتسمّي هذه المسألة ، أو أنَّ هذه المترادفات تصف مسائل متباينة ، كما ذهب بعضهم إلى ذلك ..

وفي سياق الحديث عن هذه المسألة علينا أن ندرك مسألةً هامّة جداً ، هي أنَّه ليس كلّ من انطلق من مقدّمات صحيحة وصل إلى نتائج صحيحة ، فلا بدّ أن تكون عمليّة ربط المقدّمات بنتائجها أيضاً صحيحة ، وأن تكون النتائج مرتبطةً ارتباطاً تامّاً بهذه المقدّمات ..

فتأويل المقدّمات – ولو كانت صحيحة – وتوليفها ودفعها باتّجاهات غير صحيحة ، يوصل إلى نتائج أكثر خطورة ممّا لو تمّ الانطلاق من مقدّمات غير صحيحة ، لأنّه في هذه الحالة ستلوذ النتائج الخاطئة المزيّفة خلف مقدّماتها الصحيحة ، فيحسبها ضعيفو الإدراك أنّها صحيحة ، ويكون كشف حقيقتها – بالنسبة لهم – أصعب من تلك التي يعلمون أنّها انطلقت من مقدّمات خاطئة ..

إنّ عطف الصفات بعضها على بعض للشيء (أو الأمر) الواحد – حيث تُعبّر عن ذلك مجموعة الكلمات المترادفة حسب تصوّرنا – يعني أنَّ هذا الشيء (أو الأمر) يملك تلك الصفات المتعدّدة ..

لو نظرنا إلى القرآن الكريم ، لوجدناه روحاً من أمر الله تعالى ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢]

وهذا الروح له آثاره في عالمنا المادّي ، حيث نتفاعل معه في الحياة الدنيا عبر صفة القراءة وعبر صفة الكتابة وعبر صفة الذكر وصفة الفرقان .. لذلك كانت أسماء الصفات (القرآن ، الكتاب ، الذكر ، الفرقان ، الكوثر .....) هي أسماء صفات لهذا المنهج الذي تعهّد الله تعالى بحفظه ..

وقد رأينا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) أنَّ كلمة (القرآن) هي اسم ذات للكتاب الذي أنزله الله تعالى ونزّله على محمّد ﷺ ، كما أنَّ كلمة (التوراة) هي اسم ذات للكتاب الذي عمل به موسى عليه السلام وحكم به النبيّون ، وكما أنَّ كلمة (الإنجيل) هي اسم ذات للكتاب الذي آتاه الله تعالى لعيسى عليه السلام .. ولكنّ هذا لا يعني أنَّ كلمة (القرآن) ليست اسم صفة أيضاً ، فأسماء الذات هي — في الوقت ذاته — أسماء صفات ، بينما أسماء الصفات لا تكون أسماء ذات ..

صحيحٌ أنَّ صفة القراءة لها خصوصيّتها التي تميّزها عن صفة الكتابة ن وعن صفة الذكر ، وعن صفة الفرقان ... ولكنَّ كلّ نصّ قرآني هو ذاته يحمل جميع هذه الصفات ، فهو ذاته قرآن لأنّه مقروء ، وهو ذاته كتاب لأنّه مكتوب ، وهو ذاته ذكر لأنّه يحمل منهج الهداية الذي يذكّر بالآخرة ، وهو ذاته فرقان لأنّه يفرّق بين الحقّ والباطل والحلال والحرام ..

إنَّ صفة القراءة المرتبطة باسم القرآن تعني أنّه مقروء وأنّه كلام ينطلق على اللسان ، وإنَّ صفة الكتابة المرتبطة باسم الكتاب تعني أنَّ هذا القرآن مكتوب ومحفوظ أيضاً ..

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ — ٢٢]

وإنّ صفة الذكر تعني أنَّ هذا الكتاب المقروء يحمل الذكر والهداية التي تذكّر الإنسان وتهديه إلى ما يريده الله تعالى ، وإنَّ صفة الفرقان تعني أنَّ هذا المنهج المقروء المكتوب الذي يحمل الذكر يفرّق بين الحقّ والباطل وبين الحلال والحرام .. وهكذا فهذه أسماء صفات للمنهج الإلهي المعجز (القرآن الكريم) ..

وقد ذهب بعضهم إلى تأويل مسألة عدم وجود ترادف مطلق بين الكلمات القرآنيّة ، التي تصف لنا صفات هذا المنهج (القرآن الكريم) ، إلى أنَّ أسماء الصفات لهذا المنهج الإلهي ، يرتبط كلٌّ منها بجزء ما من القرآن الكريم ..

لقد فات هؤلاء أنَّ القرآن الكريم يتعلّق بصفات الله تعالى ، وأنَّنا نستفيد من هذه الصفات ونتفاعل مع عطاءاتها ، كما أنّنا نستفيد من صفات القرآن الكريم ونتفاعل مع عطاءاتها ..

وهذه الصفات التي عبّرت عنها كلمات الله تعالى مثل : قرآن ، كتاب ، ذكر ، فرقان ..... تُرَدُّ جميعها إلى أمرٍ واحد هو القرآن الكريم ، كما أنَّ أسماء الصفات لله تعالى تُرَدُّ جميعها إلى الذات الإلهيّة لله تعالى ..

فهل وجود أسماء صفات عديدة للذات الإلهيّة في القرآن الكريم يعني أنَّ الله تعالى مكوَّن من أجزاء تُقابل هذه الصفات ؟!!! .. وهل يعني أنَّ هذه الصفات ترتبط بذوات مختلفة ؟!!! .. سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ..

لننظر إلى الصور القرآنيّة التالية ..

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠]

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣]

فهل عطف أسماء الصفات لله تعالى يعني أنّها ترتبط بأسماء ذوات مختلفة ؟!!! ..

إنَّ لكلٍّ من الكلمات القرآنيّة المترادفة – حسب تصوّر البشر – خصوصيّةً خاصّةً بها ، وهذه الخصوصيّة هي الصفة التي تضيئها هذه الكلمة – من بين مرادفاتها – بالنسبة لاسم الذات الذي تصفه مجموعة أسماء الصفات (المترادفات) ..

لقد أنزل الله تعالى في كتابه الكريم كلَّ صفة من صفات كتابه الكريم (القرآن الكريم) حسب سياق الحديث وحسب الصورة المعروضة في كلِّ نص ..

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨]

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [فصّلت : ٢٦]

﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١]

لقد وردت في هذه الآيات الكريمة صفة القراءة دون غيرها ، لأنَّ الصورة المنقولة تتعلّق بصفة القراءة ، أي النطق عبر اللسان وإظهار القراءة ..

وعندما أراد الله تعالى أن يبيّن لنا أنَّ هذا القرآن المقروء هو أيضاً محفوظٌ كتابة في اللوح المحفوظ ، أورد صفتي القراءة والكتابة معاً ..

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : ٧٧ – ٧٨]

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ – ٢٢]

ولننظر في الآيات الكريمة التالية التي تتداخل فيها صفات القراءة والكتابة والذكر ..

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ١]

﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ١]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩]

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصّلت : ٣]

إنّنا نرى أنَّ العطف هو عطف صفات لأمر واحد ، وليس عطف أشياء منفصلة ..

ولننظر إلى النصّ القرآني التالي الذي تتداخل فيه صفات القراءة والكتابة والذكر لكلمات الله تعالى وقوله (القرآن الكريم) ..

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف : ١ – ٥]

إنَّ الذي جُعل قرآناً عربيّاً هو الكتاب ، وإنَّ ما هو موجود في أمِّ الكتاب هو القرآن ، وهو ذاته ما يصفه الله تعالى بالذكر ..

ولننظر إلى النصّ القرآني التالي الذي تتداخل فيه صفات الذكر والقرآن والكتاب ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصّلت : ٤١ – ٤٤]

والقرآن الكريم يحوي أيضاً صفات الهدى والفرقان ..

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

فالهدى والفرقان ليست أجزاءً خاصّة من القرآن الكريم دون غيرها ، إنّها من صفات القرآن الكريم الذي نزل دفعة واحدة ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، شأنهما بذلك شأن صفات القراءة والكتابة والذكر ..

وقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم الرسولَ ﷺ بأسماء صفات عديدة ..

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة : ١٩]

فهل وجود العطف بين صفتي البشير والنذير للرسول ﷺ يعني أنَّ البشير هو شخصٌ آخر غير النذير ؟!!! ..

ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [المائدة : ١٩]

فهل الرسول محمّد ﷺ الذي أرسله الله تعالى شاهداً هو شخص آخر غير المُبَشِّر ؟!!! .. وهل هو شخصٌ آخر غير النذير ؟!!! .. وهل هو شخص آخر غير الداعي إلى الله تعالى بإذنه ؟!!! .. وهل هو غير الشخص الذي وصفه الله تعالى بالسراج المنير ؟!!! .. أم هل الرسول ﷺ مكوَّن من أجزاء ، جزء اسمه الرسول ، وجزء اسمه محمّد ، وجزء اسمه البشير ، وجزء اسمه النذير ؟!!! ..

صحيحٌ أنَّ كلَّ صفة من هذه الصفات لها خصوصيّتها وإطارها الذي يميّزها عن غيرها من الصفات الأخرى ، بحيث لا تنوب صفة عن أُخرى ولا تلغيها ، وأنَّ كلَّ صفة لها درجتها وحاملها وتوضعها في إطار المكان والزمان ، ولكنّها كلّها صفات

يتّصف بها ﷺ ، وهذه الصفات قد يتّصف بها أيُّ إنسانٍ بنسب تتعلّق بدرجة خلاصه لله تعالى وحمله لمنهج الله تعالى ..

وهكذا فإنَّ إدراك عدم وجود ترادف مطلق بين أسماء الصفات في القرآن الكريم إدراكاً صحيحاً سليماً ، والاستفادة من خصوصيّة الصور القرآنيّة التي تحملها واحدات الوصف والتسمية (الكلمات) ، هو مقدّمة من المقدّمات المعتمدة في برهان هذه النظريّة ..

ولذلك سنرى – إن شاء الله تعالى – أنَّ الروح مسألة مستقلّة تماماً عن النفس ، وأنَّ الإرادة مسألةٌ لها حدودها التي تميّزها عن المشيئة ، وأنَّ القضاء مسألةٌ مستقلّة عن مسألة القَدَر ، وأنَّ إرادة الشرّ متعلّقة بالإنسان وليست متعلّقة بالله تعالى ..

وسنرى – إن شاء الله تعالى – أنَّ كلَّ التعريفات التي وُضعت لهذه المسائل والتي لم تُستنبَط من القرآن الكريم ، هي تعريفات ومصطلحات فلسفيّة تاريخيّة ، وليست عين الفلسفة الإسلاميّة الحقّ التي يحملها كتاب الله تعالى ، كما يظنّ الكثيرون ..

وننطلق في برهان هذه النظريّة من مقدّمة أُخرى ، هي النظر – أثناء بحثنا في مسألة قرآنيّة ما – في جميع الصور القرآنيّة التي تحوي الكلمة ومشتقّاتها التي تصف هذه المسألة في القرآن الكريم ، وبحيث يكون الاستنتاج مستخلصاً ومنسجماً ومطابقاً تماماً لجميع الصور القرآنيّة في القرآن الكريم ، والمصوّرة للمسألة ذاتها ..

القرآن الكريم يصوّر أيَّ مسألة من المسائل التي يحملها عبر مشاهد في حلقات مختلفة ، بحيث تصوّر كلّ حلقة من هذه الحلقات مرحلة من جوانب هذه المسألة .. لذلك حتى نرى المسألة من جميع جوانبها وفي كلِّ مراحلها ، لا بدّ من النظر إلى جميع المشاهد التي يصوّرها القرآن الكريم بالنسبة لهذه المسألة ..

وبما أنَّ مسائل القضاء والقدر هي مسائل غيبيّة ، لذلك كان الانطلاق من إدراك متعلّقاتها الماديّة ، هو الخطوة الأولى باتّجاه فهم هذه المسألة وإدراك إطارها ، ولذلك لا

بدّ من توضيح مفاهيم المادّة والمكان والزمان ، وكيف أنَّ لهذا العالم المادّي المحكوم لقوانين المكان والزمان ماهيّته الخاصّة به ، وأنّنا محكومون بتصوّراتنا لقوانينه المادّية .. وقد تمّ تبيان هذه المسائل في الفصل الأوّل (المادّة ، المكان ، الزمان ، مراتب الوجود) ..

وبعد إدراك الجانب المادّي للحياة — ساحة المادّة والمكان والزمان — لا بدّ من إلقاء الضوء على الساحة الأُخرى التي نتفاعل معها ، والتي تنتمي إليها أنفسنا ، وهي ساحة ما فوق المادّة والمكان والزمان .. ولذلك لا بدّ من توضيح مفهومي الروح والنفس وإدراك حدود هاتين المسألتين في كتاب الله تعالى ..

وبعد ذلك نُلقي الضوء على الحدود التي تفصل بين عالمي الغيب والشهادة ، وكيف أنَّ هذه الحدود تختلف حسب المنظار الذي ينظر منه البشر ، وحسب درجات علمهم وإدراكهم ..

وبعد ذلك نُلقي الضوء على الحدود التي تفصل الإرادة عن المشيئة ، وقد تمَّ تبيان هذه المسائل في الفصل الثاني (الروح والنفس ، الغيب والشهادة ، الإرادة والمشيئة) .

ثمّ ننطلق بعد ذلك لإلقاء الضوء على مفهوم القضاء حسب ما تصوّره لنا مشتقّات هذه الكلمة في القرآن الكريم ، وكيف أنَّ القضاء مسألة مستقلّة لها حدودها التي تميّزها ..

وبعد إدراك مفهوم القضاء ، نُلقي الضوء على مفهوم الجبر والاختيار ، وعلى الحدود التي تفصل بين قوى الجبر والاختيار في حياة الإنسان ، وذلك بناء على المفاهيم السابقة ، وحسب ما يُصوّره لنا القرآن الكريم ، وقد تمّ تبيان ذلك في الفصل الثالث (القضاء ، الجبر والاختيار) ..

وللانطلاق باتّجاه إدراك مفهوم القدر لا بدّ من توضيح مفهومي العلم والوجود ، وكيف أنَّ علم الله تعالى ووجوده يختلفان عن علم الإنسان ووجوده .. وبعد ذلك

نطلق باتّجاه النتيجة النهائيّة ، وهي توضيح مفهوم القَدَر كما ترسمه كلمات الله تعالى ، وقد تمّ تبيين ذلك في الفصل الرابع (العلم والوجود ، القَدَر) ..

وترتيب تبيان هذه العناصر (ابتداءً من المادّة والمكان والزمان ومراتب الوجود ، فالروح والنفس ، فالغيب والشهادة ، فالإرادة والمشيئة ، فالقضاء ، فالجبر والاختيار ، فالعلم والوجود ، فالقدر) هو ترتيب يقتضيه إدراك مضمون هذه النظريّة ، عبر الانطلاق من المقدّمات باتّجاه النتائج .. فلا يمكن إدراك مضمون هذه النظريّة إدراكاً سليماً كاملاً إلاّ بالمرور من هذه الأبحاث ، وبالترتيب المعروض في هذا الكتاب ..

إنَّ البحثَ والتعمّقَ في كتاب الله تعالى بطريقٍ عقليٍّ منطقيٍّ ، هو عين الأصوليّة الفكريّة الحقّ ، التي تعني العودة إلى الحقّ الذي يحمله كتاب الله تعالى ، ومردّ ذلك أنَّ هذا الأصل (القرآن الكريم) ليس وضعيّاً من صنع البشر .. أمّا مصطلح الأصوليّة الوضعي الذي يعني العودة إلى ما وصلنا عن السلف ، دون معايرة حقيقيّة على منهج الله تعالى (القرآن الكريم) ، فهو يعني الخروج على الأصل (القرآن الكريم) ، بدرجة تتناسب مع مخالفة الموروث لصريح دلالات كتاب الله تعالى ..

وهكذا .. فاستعمال العقل والمنطق أثناء البحث في منهج الله تعالى (شريطة الانطلاق من مقدّمات قرآنيّة للوصول إلى نتائج يقرّها القرآن الكريم والعقل والمنطق) يعني كشف جوانب من هذا المنهج كانت مجهولةً بالنسبة لنا نحن البشر ..

وما نعنيه بالعقل والمنطق هو ما أعطاه الله تعالى للإنسان وميّزه به من قدرة على موازنة الأمور ومعرفة الطيب من الخبيث والرشد من الغي .. هذا العقل الذي إن جمّده الإنسان و لم يستخدمه ، أصبح أقرب إلى الأنعام منه إلى الإنسان ..

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤]

والعقل قوّة فاعلة إن لم تُوجَّه بالاتّجاه الصحيح ، وإن لم تكن مادّة الفكر الأولى التي يتناولها العقل مادّةً حقيقيّة ، فإنَّ بناء الفكر الذي يأتي به العقل سيكون من مادّة الخيال والوهم ، وبالتالي سيبتعد بصاحبه عن الحقيقة ..

إنَّ الاعتقاد بأيِّ مسألة يتوقّف على شرطين :

١ – صدق البرهان وقوّته ومدى مطابقته لحقيقة المسألة وجوهرها ..

٢ – وعي الإنسان وإدراكه في فهم هذا البرهان ، ومدى تجرّده ، وعشقه للحقيقة ، وتحرّره من ضلال النفس وهواها ..

وفي برهان هذه النظريّة سننطلق – إن شاء الله تعالى – من مقدّمات ثابتة مطلقة تستمدّ روحها من القرآن الكريم ، ومادّتها من ثوابت العلم والعقل والمنطق ، لتكون برهاناً يضيء جوهر الحقيقة ، ويرسم حدود إطارها ، وبذلك نكون قد أوفينا بالشرط الأوّل ..

أمَّا الشرط الثاني فيعود إلى وعي القارئ وتجرّده ، وإلى لبّه وصدق إرادته في إدراك الحق ، وهذا يتعلّق بقربه وابتعاده عن ساحة العلم والمنطق والإيمان ..

وتفضلوا إلى برهان هذه النظريّة ..

المهندس عدنان الرفاعي

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

المادّة

.. منذ أن وعى الإنسان ذاته ، وبدأ عقله يستخلص من المحسوسات الماديّة الآتية من عالم المادة المحيط به مدركاتٍ عقليَّةً يبني عليها معرفته المباشرة .. منذ ذلك الوقت بدأ يفكِّر في أصل المادة ، وماهيتها ، و من أين جاءت ، وكيف رُتِّبت بهذا الشكل ..... إلخ .. ومع تطوُّر الحضارات وتطوُّر الفكر الإنساني تطوَّر هذا التفكير ، وكثرت هذه الاستفسارات ، حتى أصبحت حجر الزاوية في بناء الفلسفة الإنسانية ..

لقد نظر الفلاسفة القدماء إلى المادة ، محاولين معرفة أصلها ، فرؤوا أنَّه لا بُدَّ من افتراض مادة أولى تكون أصلَ الموجودات في هذا الكون .. وقد اختلفوا في تحديد هذه المادة التي افترضوها ، فمنهم من قال إنَّ هذه المادة هي الماء ، ومنهم من قال إنَّها الهواء ، ومنهم من قال إنَّها النار ، ومنهم من قال إنَّ الوجود أصله ليس عنصراً واحداً ، بل أربعة عناصر ماديَّة هي التراب والهواء والنار والماء ، وإن اختلاف مواد هذا الكون تابع لاختلاف هذه العناصر في كلِّ مادة ..

ومنهم من قال هذه العناصر لا بُدَّ أنّها تحمل الصفات المادية وغيرها ، والتي تحملها جميع عناصر هذا الكون ، ورأوا أنَّ العدد هو الصفة الوحيدة التي تحقق ذلك ، وبما أنَّ الواحد هو أصل الأعداد ، وهذه الأعداد هي تكرار للواحد ، فقد اعتبروا أنَّ الواحد هو أصل الكون ..

ومنهم من قال إنَّ الذرّات هي أصل مادة هذا الكون ، وهي متشابهة ومتجانسة ومتحركة بذاتها ، وإنَّه نتيجة للحركة والاختلاف في تلاقي هذه الذرّات وتآلفها في الجسم المادي ، تنتج الصفات المختلفة لمواد هذا الكون ..

وما حملهم على إرجاع الكون إلى مادة واحدة ، أو مجموعة مواد هي أصل المـــواد المختلفة في هذا الكون ، إلا سببان :

١ – تغيُّر شكل المادة وحركتها في هذا الكون ..

٢ – عدم تصوُّرهم العدم والخلق من العدم ..

وهكذا عجزوا عن تصور الخلق من العدم ، فافترضوا مـــادة أولى خُلقـــت منـــها محسوسات هذا الكون .. وسبب عجزهم عن تصوُّر الخلق من العدم يتبع للتصـــورات المادية (المكانية الزمانية) للنفس .. تلك التصوُّرات التي تُبنى على قياس التمثيل ..

لقد تعوَّد الإنسان على وجود صورة للمادة ، وعلى عدم وجود صورة من غير المادة ، فالصورة والمادة تدخلان النفس البشرية (عن طريق الحواس التي هي آليـــات الـــنفس الحسيَّة حين وجود هذه النفس داخل الجسد) بشكل متلازم دون انفصال ، وذلـــك في عالم المادة المحيط بنا في الحياة الدنيا ..

فلا يمكن للنفس البشرية (من خلال معرفتها المباشرة التي تأخذ مقدماتها من عـــالم المادة عن طريق الحواس) أن تدرك الانفصال بين المادة والصورة .. فالصورة (في عالم المادة والمكان والزمان) لا يمكن أن تظهر إلاّ في مادة ، والمادة لا يمكن أن تظهر إلا في صورة ..

وبما أنَّ آليات النفس الماديَّة (حين وجود النفس داخل الجسد) وظيفتـــها تحسُّـــس الأجسام الماديَّة ، لذلك فقد اكتسبت هذه النفس (المعرفة المباشرة للعقـــل البشـــري) أكثر تصوراتها من هذا المحيط المادي .. وبالتالي فإنَّ تصوُّر مسألة مادَّة الكون وأصـــلها وخلقها ، لا بُدَّ أن ينصبغ بمقياس التمثيل الذي انصبغت به النفس ، حيث تعوَّدت على رؤية تحويل المادة من شكل لآخر ، ولم ترَ هذه النفس خلقاً للمادة من العدم .. هذا ما أدَّى إلى افتراضات بعض الفلاسفة عن أصل المادة وماهيتها ..

وقد قاد منهج التفكير السليم بعض الفلاسفة إلى القول بأنَّ هـذه المـادة القديمـة المفروضة ، يستحيل أن تكون شيئاً معيّناً ، لأنها بلا صورة ، ولكنها تتمتع بقابلية التَّلقِّي ، أي أنَّ هذه المادة القديمة (التي فرضوها) بلا صفة ولا شكل ولا لون ولا حجـم ولا طعم ولا رائحة ..... إلخ ، فذلك هو خواص لهذه الصورة ، وهي (كما فرضوا) بلا صورة ..

فهذه المادة التي بلا صورة (حسب افتراضهم) هي خارج حدود المكان والزمـان ، وهي غير محسوسة ، فهي إذن خارج حدود هذه الدنيا .. وعندما تتلقَّى هـذه المـادة المفروضة صورتها ، تملك صفات المادة المحسوسة (شـكل ، لـون ، وزن .....إلخ) ، وبالتالي تصبح داخل حدود المكان والزمان ، أي أنها تدخل حدود عالم الدنيا ..

إنَّ محاولة معرفة خلق المادة ، تقودنا وعبر جميع الفرضيات إلى نتيجة واحدة ، هي أنَّ المادة الأولى التي خُلِق منها هذا الكون هي العدم .. هذا الخلق من العدم عندما تحـاول النفس البشرية تصوُّره ، تكون النتيجة تصورات كالتي رأيناها ..

فالذي قال بأنَّ أصل مادة الكون هو الماء أو الهواء أو ..... إلخ ، كأنه لم يقل شيئاً ، لأنه سيُطلَب منه أن يُبيّن للآخرين من أيِّ شيء خُلقت هذه المادة التي فرضـها ، وإن جاء خياله بمادة ما ، سيُطلَب منه أن يُبيّن للآخرين من أيِّ شيء خُلقت هـذه المـادة الأخيرة ، وهكذا ..... وفي النهاية سيُسلِّم هذا القائل (إن كان سليم العقل) أنَّ المادة الأولى التي خُلق منها هذا الكون هي العدم ..

والذي قال إنَّ هذه المادة هي بلا صورة وهي عبارة عن قابلية التلقي ، ولا تملك أي صفة ، سيُطلب منه أن يُبيّن للآخرين ما هو الفارق بين مادته هذه التي فرضـها وبـين العدم ، وعندها سيجد (إن كان سليم العقل) أنَّه لا فارق بين مادته المفروضة وبـين العدم ، لأنه لو كان هناك فارق ، فهذا يعني أنَّ هناك صفةً ما أو أكثر تميِّز هذه المـادة

عن العدم ، وهذا مخالف للفرض الذي فرضه وهو أنَّ هذه المادة بلا صورة ولا صفة .. وسينتهي به الأمر إلى الاعتراف بأنَّ هذه المادة هي العدم ، أو مخلوقة من العدم ..

إنَّ كلَّ ما ندركه ونعلمه بالنسبة للمادة ، لا يتعدَّى الصفات المحسوسة لمواد هذا الكون ، وإنَّ الجزم بأي فرضية حول ماهيَّة المادة الأولى وحول نشأة الكون ، لا يضع هذه الفرضية في ميزان العلم ، لأننا لا نملك الدليل والشاهد على وقوع هذه الفرضية ..

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١]

وستبقى هذه الفرضية متأرجحةً بين الشَّك والظَّن والوهم والجهل والتقليد ، دون أن تصل إلى مستوى العلم الذي يملك البرهان والشاهد على وقوعها ..

وحتى ننطلق من مقدمات توصلنا إلى نتائج سليمة ، لا بُدَّ من تناول الحقائق العلمية التي توصَّل إليها العلم حول صفات المادة وخواصّها ..

تتكوَّن المادة من جزيئات مكوَّنة بدورها من ذرَّات ، فجميع المواد مكوَّنة في النهاية من ذرَّات .. ولا تختلف أنواع المواد الكثيرة إلاَّ باختلاف الجسيمات التي تكوّن هذه الذرّات ..

وتتكوَّن الذرة (حسب ما وصل إليه العلم) من :

١ ــ وحدات من الطاقة تسمى بالالكترونات تتحرك حول المركز (النواة) على مدارات محدَّدة و مستقرَّة ، بسرعة عشرات الألوف من الأميال في الثانية .. وبسبب دورانها السريع فإنها تملأ الفراغ الممتد حول النواة ، بشكل يتعذر فيه اقتراب أي ذرَّة أخرى إلى تلك المسافة لتنافرهما .. ولكلِّ مدار من المدارات سوية طاقة محدَّدة ، فإذا انتقل الإلكترون من مدار أبعد عن المركز (النّواة) إلى مدار أقرب فإنه يصدر طاقة ،

وإذا انتقل عكس ذلك فإنه يمتصُّ طاقة .. وللالكترون طبيعة ثنائية ، فهو أحياناً يسلك سلوك جسيم ، وأحياناً سلوك ظاهرة موجيَّة غير مادية كالأمواج الضوئية ..

٢ – النّواة : وتحوي تقريباً جميع كتلة الذَّرّة ، وتتكوَّن بشكل أساسي من بروتونات ونيوترونات .. وهذه النواة صغيرة جداً بالنسبة للذّرة ، فقطرها يعادل جزءاً من عشرة آلاف إلى مئة ألف جزء من قطر الذَّرّة ..

.. إذاً .. الذرة مكونة من فراغ كبير ، فلو ضُغطت كهارب الذَّرّات التي يتكوَّن منها جسم إنسان يزن (٨٠) كغ لدرجة يختفي فيها هذا الفراغ ، فإنها تشغل جزءاً صغيراً من الميلمتر المكعب ، أمَّا باقي الجسم فهو فراغ تتخلله خطوط كهربائية ومغناطيسيَّة ..

ولنتصور نسبة الفراغ الكائن في حجم الذَّرّة ، علينا أن نقارن بين قطر الأرض وقطر الكرة التي تدور على سطحها الأرض أثناء دورانها حول الشمس ، فنسبة الفراغ في الحالتين متشابهة إلى درجةٍ كبيرة ..

إنَّ الفارق بين ذرة عنصر وآخر ، يعود إلى الفارق في عدد البروتونات والنيوترونات الموجودة في النواة ، وإلى عدد الالكترونات التي تدور حول النّواة وطريقة تنظيمها .. وإنَّ الأنواع الكثيرة من المواد المختلفة ، تتألف من جزيئات كهربائية ليست إلاَّ مجرَّد صورٍ أو مظاهر من الطاقة ..

فلو نظرنا إلى العناصر الكيميائية ، ولاحظنا ما فيها من أوجه التشابه والاختلاف ، سواء لونها أم صلابتها أم ثقلها أم ... إلخ ، لوجدناها جميعها تخضع لقانون واحد هو القانون الدوري للعناصر .. هذا القانون الذي ينصُّ على أنه لو رتَّبنا العناصر الكيميائية تبعاً لتزايد أوزانها الذَّرية (المتعلقة بمكوِّنات الذَّرة) ترتيباً دوريّاً ، لوجدنا أنَّ العناصر التي تقع في قسم واحد ، تؤلف فصيلة واحدة ، وتكون لها خواص متشابهة ..

لقد تمكن العلماء عبر هذا الترتيب من التنبّؤ بوجود عناصر مجهولة ، لم يكونوا قد توصلوا إليها بعد ، وتمكَّنوا من خلال هذا القانون الكوني من التنبّؤ بخواص هذه العناصر المجهولة وتحديدها بشكل دقيق .. وعندما اُكتشفت هذه العناصر المجهولة التي تنبّأوا بها ، جاءت صفاتها وخواصها مطابقة للصفات والخواص التي تنبّأوا بها من خلال هذا القانون الكوني ..

وعلى الرغم من التعقيد في تركيب كلِّ ذرّة من ذرّات العناصر العديدة ، فإنها جميعاً تتكوَّن من الأنواع الثلاثة نفسها من الجزيئات الكهربائية (بروتونات – نيوترونات – الكترونات) .. وقد كشف العلم الحديث أنَّ البروتونات والنيوترونات مركبة من أجسام أولية تعرف باسم الكواركات ، وأنَّ الالكترونات عبارة عن جسيمات أساسية تنتمي إلى فصيلة أخرى تعرف باسم الليبوتونات ..

وهكذا نرى أنَّ تطوُّر العلم يُبيّن الحقائق التي تحيط بماهية المادة ومكوِّناتها ، وأنه كلما اعتقد البشر أنهم أحاطوا علماً بمكوِّنات المادة ، معتقدين أنَّ هذه المكوِّنات هي اللبنات الأساسية لبناء جسم المادة ، كلَّما اعتقدوا ذلك ، يكشف لهم العلم أنَّ هذه المكوِّنات ليست كذلك ، وأنها تتكوّن من مكوِّنات أخرى يعتقدون أنها هي الأساسية ، ومن ثمَّ يكشف لهم العلم أنَّ هذه الأخيرة هي الأخرى مكوّنة من مكوّنات أصغر ، وهكذا ..... فالإبحار في إدراك اللبنات الأولى للمادة ، ليس أسهل من الإبحار في إدراك حدود هذا الكون ..

ونرى أيضاً أنَّ مكوِّنات المادّة ليست جامدة ، وإنما تسبح في عالم من الحركة والحياة ، وأنَّ هناك طاقة تحرِّك هذه المكوِّنات مع بعضها بعضاً .. بل إنَّ هذه المكونات هي شكل من أشكال الطاقة ، وقد استطاع العلماء تحويل المادة إلى طاقة .. وما الطاقة النوويّة إلاّ مثال على ذلك ..

لذلك تُعدُّ المادة عبارة عن طاقة جامدة ضمن إطار المكان والزمان ، وتُعدُّ الطاقة عبارة عن مادة متحرِّرة من هذا الإطار ..

إذن هناك قدرة في المادة ، تعطيها هُويّتها عن طريق تحريك مقوِّمات هذه المادة ، وبالتالي احتلالها حيزاً من المكان ، وانصياعها لانسياب قانون الزمان ..

ولو تلاشت هذه القدرة المودعة في المادة ، والتي تعطيها هُويتها وحيثيات وجودها في عالم المكان والزمان ، وبالتالي جميع صفاتها وخواصها في هذا العالم .. لو تلاشت هذه القدرة لخرجت المادة من إطار المكان والزمان ، وبالتالي لانتهت إلى الزوال ..

وهذه القدرة المودعة في المادة ، ليست من ذات المادة ، فلو كانت كذلك لما أصبحت المادة محتاجة إليها حتى تبقى موجودة في عالم المكان والزمان ، فهي مودعة فيها .. لذلك إذا سحب مُودِع هذه القدرة قدرته من المادة ، لزالت هذه المادة ، وبالتالي لزالت السماوات والأرض ، لأنها جميعاً مكوَّنة في النهاية من ذرّات مادية محتاجة في كل لحظة من وجودها إلى هذه القدرة ..

لذلك نرى أنَّ مُودِع هذه القدرة التي تعطي المادة حيثيات وجودها في كلِّ لحظة ، يمسك مادة هذا الكون (السماوات والأرض) في كلِّ لحظة من الزوال ، عن طريق إعطائها حيثيات هذا الوجود ، وبالتالي فإنَّ مادة هذا الكون محتاجة في كلِّ لحظة من وجودها إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، الذي يبقيها في عالم الوجود المكاني والزماني ، ونرى أنه لا يوجد أحدٌ غيره عزَّ وجلَّ يعيد مادة الكون إلى ساحة الوجود المكاني والزماني ، إنْ سحب الخالق سبحانه وتعالى حيثيات وجود هذه المادة ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

نرى في هذه الآية الكريمة أنَّ إمساك الله تعالى لمادة الكون من الزوال ، أتى بصيغة الاستمرارية ﴿ يُمْسِكُ ﴾ ، لذلك فالمخلوقات مُدانة بوجودها في كلِّ لحظة للخالق سبحانه وتعالى ..

وحيثيات وجود المادة في السماوات والأرض التي أودعها الله تعالى ، والتي تُقيم هذه المادة في عالم وجودها المكاني والزماني ، هي بحاجة أيضاً (بالإضافة لخلقها) في كلِّ لحظة إلى أمر الله تعالى ، حتى تقوم المادة في عالم المكان والزمان ، فإيداع حيثيات الوجود في المادة ، لا يعني أنها أصبحت أصيلةً ومستقلَّةً في وجودها عن أمر الله تعالى .. إنَّ هذه الحيثيات تُخرِج المادة إلى ساحة الوجود المكاني والزماني في كلِّ لحظة بأمر الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الروم : ٢٥]

وهكذا نرى أنَّ العلوم تستطيع أن تعطينا نظرياتٍ هامَّةً عن خواصِّ موادِّ الكون الموجودة بين أيدينا وصفاتها وتفاعلاتها ، وذلك عبر إخضاع هذه المواد للتجربة والمشاهدة ، ولكنها لا تستطيع أن تبيِّن لنا مصدر المادة الأولى وماهيَّتها التي بُني منها هذا الكون ، وكيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها ، والوقوف عند جوهر آخر اللبنات التي تكوِّن المادة وماهيَّتها ، والإحاطة التامة بالطاقة التي تربط هذه اللبنات بعضها ببعض ..

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١]

ويُثبت العلم أنَّ المادَّة حادثةٌ ، أي أنها مخلوقةٌ بعد أن كانت عدماً ، وأنَّ هناك زمناً قد مرَّ على خلقها .. لقد أُخضعت المادة للتجارب ، وثبت أنَّ خواصّ المادة تتغيَّر مع مرور الزمن ، لذلك ذهب العلماء إلى حساب الزمن الذي مرَّ على خلق المادة ، ونحن

هنا لسنا بصدد تقييم هذا التحديد للزمن ودراسته ، ومدى اقترابه من الحقيقة ، ومدى سلامة المقدمات التي استُند عليها في تحديد هذا الزمن .. إنَّنا بصدد جوهر مسألة الخلق التي أثبت العلم والمنطق أنَّ زمناً قد مرَّ على خلق هذا الكون ، بعد أن لم يكن مخلوقاً .. وقد استنتج هذه الحقيقة كثيرٌ من أولي الألباب ، قبل أن تثبتها تجارب العلم ..

لقد ارتكزت الفلسفة الإلحادية التي ينفي أصحابها وجود ما وراء عالم المادة والمكان والزمان ، على المقدمات التالية :

١ – السكون شكلٌ من أشكال الحركة ، لذلك ترى هذه الفلسفة الإلحادية عدم ضرورة معرفة أيهما أسبق الحركة أم السكون ..

٢ – الزمان والمكان مشتركان بالاستمرارية واللامحدودية واللانهائية ، وبالتالي سرمديَّة المادة ..

٣ – تسير هذه الأحداث باتجاه واحد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ..

هذه هي أهم المقدمات التي بنوا عليها فلسفتهم الإلحادية .. وللنظر في هذه المقدمات نظرة علميَّة عقلية لنرى موقع هذه الفلسفة من العلم والمنطق ..

إنَّ المقدمة الأولى (السكون شكل من أشكال الحركة) تعني من وجهة النظر العلمية (إذا سحبت هذه المقولة على حركة لبنات المادة الأولى) أنَّ العدمَ شكل من أشكال الوجود .. فقد رأينا أنَّ سحب القدرة المودعة بالمادة التي تحرِّك لبناتها الأولى ، وسكون هذه الحركة ، يعني خروج هذه المادة من إطار المكان والزمان ..

لذلك كيف يكون السكون شكلاً من أشكال الحركة ، إذا سُحبت هذه المقولة على حركة اللبنات الأولى للمادة وسكونها ؟!!! .. لا يمكن أن يكون ذلك إلاّ إذا كفرنا بالحقائق العلمية التي أُثبتت بالتجارب ، وأُدخلت إطار الاستثمار التكنولوجي ..

وربَّ قائل يقول : إنَّ مسألة السكون والحركة لا يُقصد بها حركة اللبنات الأولى للمادة وسكونها ، إنما يُقصد بها نسبية حركة الجسم وسكونه بالنسبة لأجسام أُخرى ..

إن كان هذا هو المقصود ، فهذه المقدمة لا علاقة لها بالنتيجة الإلحادية التي يطرحونها ، فما يطرحونه هو أنَّ المادة موجودة سواء قبل تحرُّك لبناتها الأولى أم بعد ذلك ..

لقد اضطروا إلى وضع هذه المقدمة ، لأنهم يعلمون أنَّ الطاقة التي تحرِّك أجزاء المادة وتعطيها حيثيات وجودها هي حادثة ، لذلك أرادوا أن يطمسوا حقيقةً مفادها أنه قبل ولادة هذه الطاقة التي تحرِّك اللبنات الأولى للمادة ، لم تكن هناك مادة أصلاً وبالتالي فإن المادة حادثة ، وبالتالي فإنَّ هناك قوَّة أحدثتها ، وهذه النتيجة تنافي فلسفتهم الإلحادية .. لذلك وضعوا هذه المقدمة بغية التضليل وقطع الطريق على من يريد الوصول إلى الحقيقة ..

ولو نظرنا في المقدمة الثانية ، وهي استمرارية المكان والزمان وعدم محدوديّتهما ، لرأيناها (ضمن معطيات العلم والتجربة) مقدمة ساقطة علمياً .. فالزمان والمكان أثبت العلم ومن قبله المنطق أنهما محدّدان ونهائيّان ، ولهما حدودهما ، ويتولّدان تبعاً للمادة وحركتها ..

لقد اضطروا إلى وضع هذه المقدمة ، لأن محدودية المكان والزمان مرتبطة بحدوث المادة ، فالزمان والمكان خُلقا مع المادة ، وهذا ما ينافي فلسفتهم الإلحادية ..

أمّا المقدمة الثالثة وهي انسياب الأحداث باتجاهٍ واحد ، فهي مسألة تحكمنا نحن في هذا العالم ، لأننا منصاعون لقوانين المكان والزمان .. ولكن من الناحية العلمية النظرية فقد أثبت العلم أنَّ انسياب الزمن (وسرعته) تابع لحركة المادة ، أي أنه يمكن نظرياً (إذا توافرت الشروط المناسبة) تغيير هذا الانسياب الذي اعتبروه مقدِّمةً مطلقةً لا تتغيَّر ..

وإذا كان الوجود (حسب ما تطرحه فلسفتهم) لا يكون إلاّ في إطار المادة والمكان والزمان فهذا يقتضي :

١ – ألاّ يموت الإنسان ، لأنه أثناء موته لا يفقد شيئاً مادياً محسوساً من الممكن دراسته ماديّاً ، وإجراء التجارب عليه ، كالأجسام المادية المحسوسة ..

٢ – أو أن نرى ونحسّ نحن في عالم المادة والمكان والزمان ، هذا الشيء (حسب تصوُّر فلسفتهم الإلحادية) الذي فقده الجسم عندما مات الإنسان ..

عندما يبرهن أتباع هذه الفلسفة الإلحاديّة ، أنَّ ما فقده الإنسان في موته ، هو شيءٌ ماديٌ يمكن دراسته ، وإخضاعه للتجربة ، والتأثير عليه ، عند ذلك فقط يمكن للعاقلين الهبوط إلى مستوى هذه الفلسفة ، وإعادة النظر بها ، والقول بأنه لا وجود إلاّ في إطار المادة والمكان والزمان ..

وهكذا نرى كيف أنَّ بعض الفلسفات يضع أصحابها النتائج التي يريدونها ، ثم يبدؤون بالبحث عن مقدمات لها ، غير مهتمِّين بحقيقة هذه المقدمات وثبوتها علميّاً ومنطقيّاً .. ونرى أنهم يقرّون نتائج ليسوا عاجزين عن إثبات مقدماتها فحسب ، بل عاجزين عن إثبات عدم سقوط هذه المقدمات علميّاً ومنطقيّاً ..

وبعد الحديث عن المادة من خلال فلسفة البشر وعلومهم ، لنعد إلى كلام خالق المادّة سبحانه وتعالى وننظر في بعض النصوص القرآنية التي تصوِّر هذه المسألة ..

إنَّ خلق الشيء يعني ابتداعه وإحداثه بعد أن لم يكن موجوداً ، فالمخلوق هو مُحدث ، أي له بداية لم يكن موجوداً قبلها ، وكلّ ما تقع عليه حواسّنا وما لم تقع عليه ممّن يقبل الخضوع لقوانين المكان والزمان ، هو مخلوق أي مُبتدَع أي مُحدَث ..

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٠١]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩ – ٢٠]

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢]

ومسألة بداية الخلق ، وأنَّ للمخلوقات لحظة بدأت بها وجودها في هذا الكون ، هي مسألةٌ تُعَدُّ من مقدمات إدراك حقيقة هذا الكون ، ومن مقدمات الإيمان أنَّ هناك خالقاً لهذه المخلوقات .. هذه الحقيقة التي حاول واضعو الفلسفة الإلحادية وأتباعهم ومن دار في فلكهم ، طمسها واعتناق نقيضها .. هذه الحقيقة المثبتة علميّاً ومنطقيّاً يدعونا القرآن الكريم إلى النظر والتَّعمُّق فيها ..

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ١٩ – ٢٠]

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : ١١]

ويلقي القرآن الكريم الضوء على جوهر مرحلة من مراحل هذه المسألة ، هي تمايز السماوات والأرض وانفتاقهما بعد أن كانتا رتقاً ..

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠ – ٣٢]

ويلقي القرآن الكريم الضوء على مسألة اتساع السماء (التي بدأ العلم باكتشاف بعض جوانبها) بشكل تظهر فيه عظمة القرآن الكريم ، الذي أخبرنا بذلك قبل أربعة عشر قرناً

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧]

وبعد أن ينظروا إلى هذه المخلوقات المحيطة بهم ، وإلى خلق أنفسهم كجزء من هذه المخلوقات ، يدعوهم القرآن الكريم إلى التأمُّل في ما وراء ذلك .. فلا بُدَّ أن يكون لكلِّ ذلك خالق ، لأنه ليس من العقل بشيء أن يدَّعو بأنهم خُلِقوا من غير شيء ، أو أنهم خلقوا أنفسهم ، أو أنهم خلقوا السماوات والأرض ، أو أنهم يضعوا أيديهم على خزائن القوّة التي تسيطر على هذه المخلوقات ..

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الطور : ٣٥ – ٣٨]

وبعد أن يُزهق الحقّ تصوُّراتهم ، بأنَّ هذه المخلوقات لابُدَّ لها من خالق ، يدعوهم إلى التأمُّل في وحدانية هذا الخالق ، وأنه لا شريك له ، وذلك بدعوة العقول السليمة لاستنتاج وحدانية الله تعالى من المقدمات المخلوقة في هذا الكون ..

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ

ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٠ – ٦٤]

وَجَسَدُ الإنسان الذي يطلُّ من خلاله على هذا العالم المادي ، هو مادّة ، ويخضع لقوانين المادة ، فهو يسمن ويهزل حسب تفاعله مع الغذاء المأخوذ من عناصر الأرض ..

﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥]

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [نوح : ١٧]

فقد أثبت العلم أنَّ المواد التي يتكوَّن منها جسد الإنسان ، جميعها موجودة في التربة الخصبة ..

وأصحاب الفلسفة الإلحادية ، قديماً وحديثاً ، كما أنهم أنكروا حدوث المادة وخلقها من العدم ، أنكروا أيضاً إعادة الخلق مرةً ثانية .. فالجسد الذي خرجت منه النفس والحياة ، يتفسَّخ ويعود في النهاية إلى المادة الأولى التي خُلق منها وهي التراب ..

وهذا التراب الذي آل إليه جسد الإنسان ، يتكوَّن من عناصر يتغذى عليه النبات ، وبعد ذلك يأتي إنسان آخر ويتغذى من هذا النبات ، فتنتقل بعض ذرّات العناصر من جسد الإنسان الأول إلى جسد الأخير .. وقد تطير ذرّات الجسد في الهواء فتختلط بمواد أخرى .. وهكذا صعب على الذين أنكروا المادة من العدم ، أن يتصوَّروا بأنَّ الجسد سيُعاد تركيبه في الآخرة من جديد ..

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [السجدة : ١٠]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٧]

ويأتي الرد القرآني على هؤلاء معيداً المسألة إلى جوهرها ، فذرّات المادة التي يتكوّن منها جسد الإنسان مخلوقة وموجودة في الأرض ، قبل وجود جسد الإنسان في الحياة الدنيا ، بل قبل خلق آدم عليه السَّلام وأمر الملائكة بالسجود له ..

ومما يميَّز الجسد الإنساني ويعطيه ماهيَّته الخاصة به ، ليس جنس الذرّات التي تكوِّنه ، فالذرّات هي ذاتها سواء بالجسد أم بغير ذلك .. إنَّ ما يميِّز هذا الجسد هو نسب توزع هذه الذرّات به ، والصورة التي حددها الله تعالى لهذا الإنسان ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ – ٨]

فالصورة هي التي تميِّز ماهية الجسد ، بالإضافة إلى نِسب توزُّع العناصر المختلفة بين جسد وآخر ..

إنَّ هذه الدورة البعيدة لذرّات جسد الإنسان بعد موته ، وانتقالها من مكان لآخر ، يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً ، وهي مسجَّلة في كتاب حفيظ لا يُترك فيه شيءٌ إلاّ وقد أُحصي ..

﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق : ٢ – ٤]

وهكذا نرى أنَّ افتراض الكفار قديماً وحديثاً بأنَّ المادَّة أصيلة في هذا الكون وأزلية ، هو افتراض توليفي اقتضته النتيجة الإلحادية التي تحكم فلسفتهم .. فحتى لا يسألهم أحدٌ عن خالق هذه المادة ومحدثها ، افترضوا أنها أزلية وليس لها بداية من الزمان .. وقد رأينا كيف أنَّ العلم المرتكز على ثوابت التجربة والمنطق ، ومن قبله القرآن الكريم ، أثبتا

سقوط مثل هذه الفرضيات الإلحادية علميّاً وفلسفيّاً ، وبالتالي سقوط النتائج المترتبة عليها ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

المكان

إنَّ الصلة بين المادّة وصورها المكانية في هذه الدنيا ، هي صلةٌ وثيقــةٌ ، فالصــورة المكانية تُحدِّد شكل المادَّة وأبعادها ، والمادَّة هي التي تعطي الصورة المكانية جسداً تقــع عليه الحواس .. وبعبارة أخرى إنَّ المكان هو الحاوي للمادَّة ، والمادّة هي امتداد المكــان .. فجوهر المادة يتميَّز بأنه امتدادٌ ذو ثلاثة أبعاد (الطول ، العرض ، الارتفاع) ..

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ مكوِّنات المادَّة تكون ضمن حدود جسم هذه المادَّة ، وأنَّ الطاقة التي تُكوِّن وتحرِّك هذه المادِّة ، على امتداد الأبعاد الثلاثة (الطول ، العرض ، الارتفاع) ، تحتجز من الفراغ مكاناً هو جسم هذه المادَّة ، أي تحتجز حيِّزاً تتحرَّك ضمنها المــادَّة التي تشَّكل هذا المكان ..

ولما كانت الصورة المكانية مرتبطة بالمادَّة وحركتها ، ولما كانت المــادة في حركــةٍ مستمرَّةٍ ، فيمكننا تعريف المكان الذي يحتجزه الجسم في لحظة ما ، بأنه الحيِّز الذي تملؤه مادة هذا الجسم في تلك اللحظة ..

وهكذا يكون دليل المكان هو الجسم المادي ، أي أنه لا يُوجَد مكانٌ عندما لا يُوجد جسمٌ مادِّيٌ يدلُّ على هذا المكان .. فإذا كان الجسم المادي متناهياً ، كان الحيِّز المكاني التابع له متناهياً ، وبالتالي انعدام المكان الذي يدلُّ عليه هذا الجسم ..

والعقل البشري ، لا يمكنه تصوُّر مادَّة دون مكانٍ تشغله هذه المــادة ، ولا يمكنــه تصوُّر مكانٍ غير مشغولٍ بمادَّة .. فالمادة والمكان شيئان متلازمان أحدهما يقتضي الآخر ويدلُّ عليه ، ولا يمكننا (في هذا العالم المادي) تصوُّر وجود انفصالٍ بينهما ..

عندما نقيس أبعاد جسم ما ، نخرج بأرقام تشير إلى أبعاد المكان الذي يحتجزه هــذا الجسم من الفضاء الذي يحيط به ، وعلى الرغم من أنَّ الفضاء الكوني المحيط بنا ملــيءٌ

بالمادَّة ، وهو تابع لجسم هذا الكون ، وهو شكل من أشكال المادَّة ، وأنَّ مـادَّة هـذا الجسم الذي قسنا أبعاده يمكن تحويلها إلى بعض أشكال المادة التي تملأ الفضاء .. على الرغم من ذلك نجد أنه لا نستطيع تصوُّر أبعاد هذا الجسم ، لولا وجود الفضاء الـذي يحيط به ، حيث يحتجز هذا الجسم قسماً من الفضاء يملأ به مادَّته التي لها شـكلٌ مـن أشكال المادَّة ، يختلف عن شكل مادة هذا الفضاء .. أي أنَّنا لا نستطيع تصـوُّر أبعـاد الجسم لولا التمايز بين صورته المكانية ، والصورة المكانية للفراغ المادِّي المحيط به ..

عندما ننظر إلى كلٍّ ما يحيط بنا من مادَّة ، فإننا نرى أجساماً ماديَّة تحتجـز أبعـاداً مكانية من هذا الكون ، ويفصلها عن بعضها بعضاً أبعادٌ مكانية تُعدُّ أيضاً مـن جسـم مادة هذا الكون .. إذا نظرنا إلى نجمين في السماء ، نحسُّ أنَّ بُعداً مكانياً يفصـلهما ، وأنَّ أحدهما يبعد عن الآخر بُعداً ما .. إنَّ هذا البُعد الذي يفصلهما عن بعـض ملـيء بشكلٍ من أشكال المادَّة ..

صحيح أنَّ شكل هذه المادَّة يختلف عن شكل المادَّة التي تكـوِّن جسـمي هـذين النَّجمين ، لكنّها مادّة ، ولو لم تكن مادَّة لما وُجد هذا البعد المكاني الذي يفصـل بـين هذين النجمين ، ولما استطعنا رؤية ذلك ..

كيف نستطيع أن نرى ما هو خارج حدود عالم المادَّة ؟ .. كيف نسـتطيع ذلـك ونحن نعلم أنَّ المادَّة والمكان شيئان متلازمان ؟.. بل كيف ستأتي إلى أبصـارنا صـورٌ لأشياء لا يحدّها مكان ؟!!! ..

ومن هنا ندرك أننا نستطيع قياس المكان وتصوُّره ، بعد قياس أبعاد المادَّة التي تمـلأ جسم هذا المكان وتصوُّرها ، وبعد تصوُّر الفضاء المادّي المحيط بالمادَّة التي تمـلأ هـذا المكان .. فلا يوجد مكانٌ مستقلٌ عن الارتباط بالأشياء الخارجية ..

إنَّ الكون الذي نسبح بداخله ونحسُّه ونراه ، مكوَّنٌ من المادَّة ، وإنَّ الأبعاد التي تفصل بين جميع الأجسام المادّية المرئية ، مليئة بالمادَّة ، ولا يُوجد فراغٌ في جسم هذا الكون المحسوس لا تملأه المادة بأي شكل من أشكالها ..

ولو وُجد هذا الفراغ غير المملوء بالمادة ، فهذا يعني وجود فطور (شقوق) في جسم الكون .. ونحن عندما ننظر إلى السماء لا نرى شيئاً من هذه الفطور ، ولو كانت هناك شقوقٌ غير مملوءة بالمادَّة ، فهذا يعني عدم وجود مكانٍ يُحدِّد هذه الشقوق ، وبالتالي سوف لا نراها لأنه لا يوُجد بُعدٌ مكانيٌ مليٌ بالمادَّة ، كي تنعكس صورة هذه المادَّة إلى أبصارنا .. والقرآن الكريم يدعونا للنظر في هذه الحقيقة الكونية ، والتَّفكُّر في حكمة خلقها ..

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ [الملك : ٣ – ٤]

إنَّ لكلِّ جسمٍ ماديٍّ في كلِّ لحظه هيئة مكانية ما ، تُعبِّر عن الطبيعة المكانية لهذا الجسم بالنسبة للأشياء الخارجية المحيطة به ، وعن توزُّع شكل المادَّة داخل الحيِّز الذي يحتله هذا الجسم في تلك اللحظة .. فالتَّغيُّر في الهيئة المكانية للجسم يتمُّ بشكل عام وفق بُعدَيْن :

١ – التَّغيُّر في الهيئة المكانية الخارجية من لحظة لأخرى ، وهو ثبات شكل هذه الهيئة أو حركتها ، بالنسبة للأجسام الخارجية المحيطة بهذا الجسم ، أو زيادة الحجم أو نقصانه .. فالبالون الذي يتعرَّض للنَّفخ تتغيَّر هيئته المكانية من لحظة لأخرى ، والأرض في دورانها حول نفسها وحول الشمس ، يتغيَّر وضعها المكاني الخارجي من لحظة لأخرى ..

٢ – التَّغيُّر في الهيئة المكانية الداخلية ، وهو التَّغيُّر الذي يطرأ على توزُّع المادَّة وحركتها داخل الجسم ، في كلِّ صورةٍ من صور تغيُّر الهيئة المكانية الخارجية لهذا الجسم .. فالبالون الذي يتعرَّض للنفخ ، والذي تتغيَّر هيئته المكانية الخارجية (حجمه الخارجي) من لحظة لأخرى ، يتعرَّض في الوقت نفسه لتغيُّر حركة مكوِّناته الداخلية ، ابتداءً من حركة ذرّاته الداخلية ، وانتهاءً بحركة الهواء داخله ، وكذلك الأرض أثناء دورانها حول الشمس ، وتغيُّر موقعها الخارجي من لحظة لأخرى بالنسبة للأجسام الماديَّة الخارجية ، فإنها تتعرَّض لتغيُّر داخلي ضمنه ، ابتداءً بحركة ذرَّاتها، وانتهاءً بحركة الغيوم والأنهار و ..... إلخ ..

وكلُّ شيءٍ في هذا الكون يتحرَّك ، وتتغيَّر هيئته المكانية باستمرار (سواء الهيئة المكانية الخارجية أم الداخلية) وجميع المخلوقات المادية في الكون تخضع لهذا القانون .. فابتداءً بالذّرة التي تتكوَّن منها جميع مواد هذا الكون ، والتي تتحرك مكوِّناتها الداخلية بشكل مستمر ضمن هيئتها المكانية الداخلية ، مروراً بالمجرَّات الكونية التي تدور وتتحرَّك وفق نُظم وقوانين محدَّدة ، حيث تتغيَّر هيئتها المكانية والخارجية الداخلية من لحظة لأخرى ، وانتهاءً بجسم الكون الذي تتغيَّر هيئته المكانية أيضاً من لحظة إلى أخرى ..

إنَّ الوقوف عند إدراك هيئتين مكانيَّتين متتاليتين ، لا توجد هيئة مكانية مستقلة بينهما (سواء بالنسبة للهيئة المكانية الداخلية أم الخارجية) هو من المستحيل على البشر .. فلإدراكنا حدودٌ معيَّنة ، ويجب ألاَّ نسى أننا مخلوقات يحكمنا قانون التَّغيُّر هذا ، فكلَّما زاد تواتر الحركة كلَّما قلَّ إدراكنا لتغيُّر الهيئة المكانية للجسم المتحرِّك ، حتى الدرجة التي لم نعد ندرك معها شيئاً ..

فمروحة الطائرة مثلاً عندما تتحرك ببطء شديد نستطيع إدراك (ولو بشكل جزئي) تغيُّر هيئتها المكانية الخارجية ، وعندما تزداد سرعة الحركة لا نستطيع إدراك هذا التَّغيُّر ، وعندما تزداد هذه السرعة لدرجة كبيرة ، عندها لا نرى شيئاً ..

إنَّ الإلكترونات (كما يقول العلم) تتحرَّك داخل جسم الذَّرة حول النواة بسرعة عشرات الألوف من الأميال في الثانية ، فمن أين لنا أن ندرك تغيُّر الهيئة المكانية الداخلية للذَّرّة بين حركتين متتاليتين ، تعبِّران عن صورتين متمايزتين ؟!!! ..

وأفضل تشبيه لهذه المسألة هو الفيلم السينمائي ، حيث نقوم بتصوير عددٍ كبيرٍ من الهيئات المكانية (الصور) للحدث في الثانية ، ونقوم بعد ذلك بعرض هذه الهيئات المكانية بشكل متتابع وفق الترتيب والسرعة نفسها ، فتظهر لنا الصورة الحيَّة لهذا الحدث ..

ولو أخذنا صورتين متتاليتين ، تُعبِّران عن هيئتين مكانيتين متتاليتين من الشريط الذي قمنا بتصويره .. ألا توجد في الحدث الحقيقي هيئة مكانية أخرى بينهما ؟ .. وهل استطعنا رصد التغيُّر الأصغر في الهيئات المكانية لهذا الحدث ؟.. حسب إدراكنا (نحن البشر) المحدود بتواترات معيَّنة قد يُخيَّل إلينا ذلك ، ولكنَّ الحقيقة أنَّ ذلك من المستحيل لأنَّ المادة تتغيَّر وتنبض بتواترات عالية يستحيل علينا إدراكها ، ومنها المادة التي تدخل في تركيب الآلات التي قامت بعملية التصوير هذه ، والمادة التي تدخل في تركيب أجسادنا ، وفي تركيب جسد هذا الحدث ..

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التَّغيُّر الذي يطرأ على المادة من هيئة مكانية لأخرى ، لابُدَّ له من قوَّة تؤدي إلى هذا التغيُّر ، وأنَّ هذه القدرة لا تخلقها المادة ، وهي ليست باختيارها وحرِّيتها ..

والمادة محكومةٌ لهذا التَّغيُّر، وفق نظمٍ وقوانينَ محددةٍ وثابتة ، فالذَّرة تتحرَّك مكوِّناتها الداخلية ضمن نظمٍ معيَّنة ، وهي محكومة لهذا التَّغيُّر ولهذه الحركة .. والكواكب والمجرَّات محكومة هي الأخرى لقانون تغيُّر الهيئة المكانية ، ولا خيار لها في ذلك ، فهذا التَّغيُّر ليس بإرادتها وليس باختيارها ، لأنَّ القوة التي تؤدِّي إلى هذا التَّغيُّر ، والقانون الذي يسير ضمنه هذا التَّغيُّر يحكمانها ويسيِّرانها ..

إنه القانون الذي يشمل كلّ المخلوقات المادية المحسوسة في هذا الكون ، إنه قانون المكان .. فهل حدث أنَّ ذرة من ذرّات أي عنصر قرَّرت في وقت ما وقف حركة مكوِّناهَا الداخلية ، أو تغيير هذه الحركة ؟ .. كيف يكون ذلك وهي محتاجة في كلِّ لحظة من وجودها لهذه الطاقة وحركتها .. وهل حدث في وقتٍ ما أنَّ كوكباً أو نجماً قرَّر في فترةٍ ما الاستراحة من قانون الدوران والتَّغيُّر في الهيئة المكانية ، أو تعديل هذا القانون وفق شكل آخر من اختياره ؟ .. كيف يكون ذلك وتوازن المجرَّات السابحة في الكون بحاجة في كلِّ لحظة لهذه القوانين التي تحكمها ..

إنَّ المادة مخلوقة ويحكمها قانون المكان المخلوق وهي خاضعة تماماً لهذا قانون ، وإنَّ الانتقال من هيئة مكانية لأخرى يتمُّ نتيجة قوَّة وحسب قانون لا علاقة لهما باختيار المادة ..

فالإرادة والاختيار يعودان إلى من أودع هذه القوى في المادة ، وإلى من وضع لها القوانين الثابتة التي تؤدِّي إلى تغيُّر الهيئة المكانية ، وفق نُظم محدَّدة نتيجة تفاعل هذه القوى المودعة في المادة ..

فالتَّغيُّر في الهيئة المكانية لأي جسم ولأي حدث ، مهما صغر أو كبر ، هو بقدرة من أودع هذه القوى في المادة ، ومن وضع قانون المكان الذي يتمُّ وفقه هذا التَّغيُّر ، وبإذنه .. وهذا التغيّر لا يغيب عن علمه ومشاهدته وإرادته لحظة واحدة ، لأنَّ المادة ومكانها محتاجان في كلِّ لحظة من وجودهما في هذا العالم المادي إلى الخالق سبحانه وتعالى ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

إنَّ المكان مخلوق شأنه شأن كلّ المخلوقات الأخرى ، والخالق سبحانه وتعالى يعلم علماً مطلقاً الهيئة المكانيّة التي كان ويكون وسيكون عليها هذا المخلوق على مدار الزمن .. فهو الذي خلق المادة التي تملأ جسم هذا المكان ، وهو الذي أودع فيها وبعلم مطلق

الطاقة التي تعطي لهذه المادة ماهيتها وحيثّيات وجودها ، والتي تؤدي إلى تغيُّر هيئة المكان التي تحتجزه هذه المادة ..

فعلم الله تعالى المطلق بالهيئة التي يكون عليها المكان ، يحيط إحاطة مطلقة بكلِّ ما في هذا الكون ، ولا فارق في ذلك عند الله تعالى بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فكلُّ ما أدَّى ويؤدِّي وسيؤدِّي إلى التَّغيُّر ، هو من عند الله تعالى ، وكلُّ ما وصل ويصل وسيصل إليه هذا التَّغيُّر في الهيئة المكانية ، هو من رسم الله تعالى ويعلمه علماً مطلقا قبل حصوله ..

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

فالورقة التي تسقط ، ويعلم الله تعالى حركتها ، والحبَّةُ التي في ظلمات الأرض ، واللتان يعلمهما الله تعالى علماً مطلقاً ، هما أيّ ورقة وأيّ حبة في هذا الكون ، سواء الورقة والحبّة المخلوقتان في الماضي أم الحاضر أم المستقبل ، لذلك جاءت هاتان الكلمتان في النَّص القرآني على شكل نكرة [**﴿ وَرَقَة ﴾** ، **﴿ حَبَّة ﴾**] ..

أمّا علم الله تعالى بحركتهما فهو علمٌ مستمرٌ وموجودٌ دائماً ، سواءٌ وُجدتا في عالم المادة والمكان والزمان ، أم قبل وجودهما ، أم بعد خروجهما من هذا العالم ، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بأن جاءت هاتان الكلمتان بصيغة الاستمرارية [**﴿ تَسْقُطُ ﴾** ، **﴿ وَيَعْلَمُ ﴾**] ..

ويجب عدم قياس علم الله تعالى بحركة المكان والزمان على علمنا نحن ، وعدم وضع إطار وعينا وعلمنا المحدود قيداً على علم الله تعالى .. فنحن نطلُّ على هذا العالم المادي عبر جسدٍ مادي يحيط به مكانٌ محدَّد ، ووجودنا في مكان يقتضي عدم وجودنا في غيره

، ويقتضي تفاعلنا مع الصور الحسيَّة التي تصل إلى هذا المكان فقط .. فقانون المكان قيدٌ يحدُّ من علمنا وإحساسنا في هذا الكون ..

وهذا المخلوق – المكان – الذي يحدُّ من شهادتنا وعلمنا في عالم المادة ، هو مخلوقٌ منصاعٌ لله تعالى .. فعلم الله تعالى يحيط بكلِّ مكان وزمان في الوقت نفسه ، لأنَّ وجود الله تعالى ليس مقيَّداً في مكان محدَّد ولا زمان محدَّد ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧]

ولو تجلَّى الله تعالى بنوره العظيم على أيِّ جسمٍ ماديٍّ له إطاره الخاصُّ من المكان ، لاقتضى ذلك زوال هذا الجسم من إطار المكان الذي يحيط به ، لأنَّ الطاقة المودعة في الجسم ، والتي تعطيه حيثيات وجوده في هذا العالم المادي ، تتلاشى أمام عظمة النور الإلهي العظيم ..

ويبيِّن القرآن الكريم هذه المسألة عبر مشهدٍ من قصّة موسى عليه السلام ..

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣]

لقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام **﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾** لأنَّ رؤية موسى عليه السلام لله عزَّ وجلَّ ، في هذا العالم المادي المحكوم لإطار المكان والزمان ، تقتضي أنَّ الله

(سبحانه وتعالى عن ذلك) من مادة ، وبالتالي محكومٌ لإطار المكان والزمان ، وبالتالي هو موجود فقط في الحيِّز الذي سيراه فيه موسى عليه السلام .. وهذا يتنافى مع الصفات الإلوهية لله عزَّ وجلَّ ، ولذلك قال الله تعالى **﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾** ..

وحتى يقرِّب الله تعالى هذه المسألة لموسى عليه السلام ، قال له **﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾** ، فلما نظر موسى عليه السلام إلى الجبل ، ذلك الكائن المادي المحكوم لإطار المكان والزمان ، وأحاط بصره بحدود المكان الذي يملأه الجسم المادي لهذا الجبل ، عندما تيقَّن موسى عليه السلام من وجود هذا الجبل في إطار المادة والمكان والزمان ، عند ذلك تجلَّى ربّه جلّ وعلا للجبل ، أي ظهر نور الله تعالى للجبل في إطار المكان المحيط بهذا الجبل ..

ولتصوُّر ما يمكن أن يحدث ، علينا أن نحاول تصوُّر النسبة بين الطاقة المودعة في مادة هذا الجبل ، والتي تعطيه مقوِّماته المادية ، وإطاره المكاني والزماني في عالم المادة ، وبين عظمة النور الإلهي الذي تجلَّى به الله تعالى .. وبعبارة أخرى علينا أن نحاول تصوُّر الفارق بين الطاقة التي أودعها الله تعالى في جسد هذا الجبل لإعطائه حيثيات وجوده في عالم المادة والمكان والزمان ، وبين قوة الله سبحانه تعالى وقدرته ..

عندما نتصوَّر ذلك ندرك أنه لم يبقَ في ذلك المكان الذي كان يشغله جسم الجبل أيُّ شيءٍ من مادته ، وذلك عندما تجلَّى الله تعالى عليه ، وندرك أنَّ جسم الجبل ذهب من ذلك المكان و لم يبقَ منه شيءٌ **﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾** ..

وعندما أدرك موسى عليه السلام ذلك ، أدرك جوهر هذه المسألة ، ولذلك خرَّ صعقاً **﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾**

هذه المسألة المرتبطة بصفات الكمال المطلق لله تعالى ، وأنه أسمى من أن يحيط به مكان محدَّد ، وما يقتضيه ذلك من عدم إدراك الأبصار له ، وعدم قدرة الحواس عليه ، هذه المسألة تبينها الصورة القرآنية التالية ..

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣]

وكما قلنا بأنَّ المكان تابعٌ لحركة المادة ووجودها ، فإنَّ المكان الذي يشغله جسم هذا الكون ، هو مخلوقٌ مع المادة ويتَّسع تبعاً لامتداد هذه المادة ..

والقرآن الكريم يلقي الضوء على جوهر هذه المسألة .. فمن المراحل الأولى في خلق هذا الكون ، أنَّ السماوات والأرض كانتا ضمن حيِّز مكاني صغير (إذا ما قورن بالمكان الذي يشغله جسم الكون الآن) وبعد ذلك تمَّ التمايز ..

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ ﴾ [الأنبياء : ٣٠]

وبعد هذه المرحلة بدأت السماء بالاتِّساع في كلِّ الاتجاهات ..

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧]

إننا نرى في هذه الآية الكريمة أنَّ العبارة القرآنية ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ تعني الاستمرارية في الاتِّساع ، وبالتالي فإنَّ جسم هذا الكون يتَّسع ويتمدَّد من لحظة لأخرى ، وبالتالي يكبر المكان المحيط بذلك ..

ولكن إلى أين سيستمرُّ هذا الاتِّساع ؟ .. هل سيستمرُّ إلى اللانهاية ، أم أنَّ هناك حدًّا سيقف عنده ؟ .. أم أنه سيعود بالانكماش إلى ما كان عليه ؟ ..

ويلقي القرآن الكريم الضوء على جوهر هذه المسألة ، مبيِّناً أنَّ هذا النظام الكوني الذي رسمه الله تعالى ، سيتراجع وستطوى السماء ، ويعاد الخلق إلى بدايته ..

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]

وهكذا نرى أنَّ المكان الذي تشغله المادة في هذا الكون ليس ثابتاً ، وإنَّما يتغيَّر من لحظة لأخرى ، وأن الهيئة المكانية تتغيَّر باستمرار .. فالمكان الثابت المطلق لا وجود له في هذا الكون ..

والسؤال الذي حار عنده الكثيرون (قديماً وحديثاً) هو معرفة ما هو خارج جسم هذا الكون وتصوُّره ، فخارج البعد المكاني الذي يملؤه جسم هذا الكون ماذا يُوجَد ؟! .. وهل نستطيع تصوُّر ذلك ؟ .. وقبل خلق هذا الكون وخلق المادة الأولى التي تكوَّن منها ، هل كان هناك أي شيء اسمه المكان ؟ ..

نحن البشر تعوَّدنا أن نرى ونتخيَّل أنَّ خلف كلِّ شيءٍ شيئاً آخر ، وأنَّ خلف هذا الآخر شيئاً آخر ، وهكذا ... فنحن نعلم أننا نعيش على الأرض ، والأرض تحيط بها المجموعة الشَّمسيَّة ، والمجموعة الشمسية تحيط بها المجرَّة التي ننتمي إليها .. وهكذا حتى يكلُّ العقل عن تصوُّر ذلك ..

إنَّ سبب هذا الكلل العقلي هو قياس التمثيل ، الذي تعوَّده العقل من معرفته المباشرة الآتية عن طريق الحواس ، فجميع الأشياء التي يدركها العقل البشري مكوَّنة من أجسام يقع خلفها أجسام ، وهكذا ... فلم يحصل أنَّ العقل البشريَّ قدَّمت له الحواس صورة من العدم غير مرتبطة بمادة ومكان ، لذلك لا يستطيع تصوُّر العدم ، ولا يستطيع تصوُّر نهاية الكون ماديّاً ..

إنَّ العبارة (خارج جسم هذا الكون) في السؤال السابق ، تحمل تصوّراً وهميّاً مفروضاً (يجهله صاحبه) هو أنَّ الكون يحتلُّ مكاناً جزئياً من شيءٍ أكبر ، ونريد تصوُّر هذا المكان الأكبر .. إنَّ هذا المكان الأكبر الذي فرضه التَّصوُّر السابق لا وجود له ، وقد دخل إلى العقل نتيجة قياس التمثيل الذي تعوَّده هذا العقل ، فمنافذه الحسيَّة على

عالم المادة تقدِّم له مقدماتٍ جميعُها مادية ، وبالتالي جميعها يحدّها مكان محدَّد ، وهي جزء من مكان أكبر يحيط بها .. فمن أين للعقل أن يتصوَّر ما هو خارج عالم المادة ، وبالتالي ما هو خارج حدود المكان ! ..

إنَّ المكان مرتبط بالمادة ، فلا مكان دون مادةٍ تشغله ، ولا مادة دون مكانٍ يحدّد أبعدها ، لذلك وببساطة يمكن للعقل اعتماداً على الفكر النظري المجرَّد ، وحسب المقدمات السابقة ، أن يستنتج أنَّه لا مكان خارج جسم هذا الكون ، وأنَّ تصوُّر وجود مكان خارج هذا الكون ، يقتضي تصوُّر وجود مادة تشغل هذا المكان ، وبالتالي فالذي تصوَّرناه خارج هذا الكون هو جزءٌ من هذا الكون ..

وعلى العقل (حسب ما تقدَّم) أن يدرك بأنَّه لا مكان قبل خلق مادة هذا الكون ، وأنَّ المكان مخلوقٌ وُجد في اللحظة التي خُلقت فيها مادة هذا الكون ..

لقد رأينا في بحث المادة ، كيف فرض أصحاب الفلسفة الإلحادية مقدماتٍ وهمية ، لتضليل العقل وحجبه عن التفكير والتَّعمُّق في حكمة خلق هذا الكون .. فكما أنهم فرضوا أنَّ المادة أزليةٌ لقطع الطريق على من يسأل عن خالق المادة ، فرضوا اللا محدودية على المكان والزمان ، لأنَّ أزلية المادة تقتضي ذلك .. وها نحن نرى سقوط هذه المقدمة الوهمية علمياً (فقد أثبت العلم أنَّ للكون حدوداً وأنه ليس لا نهائياً) ، وسقوطها منطقياً ، ورأينا كيف أنَّ القرآن الكريم أثبت قبل ذلك سقوط مثل هذه المقدمات الوهمية الضَّالَّة ، ملقياً الضوء على جوهر هذه المسائل وعلى حقيقتها ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الزمان

.. ما هو الزمن ؟ .. وما هي ماهيَّته ؟ .. وكيف ندركه ؟ .. عندما نقول : إنَّ السنة هي (١٢) شهراً ، وإنَّ الشهر هو (٣٠) يوماً ، وإنَّ اليوم هو (٢٤) ساعة ، وإنَّ الساعة هي (٦٠) دقيقة ..... إلخ .. فماذا يغني ذلك ؟ ..

لو أخذنا شريطاً سينمائياً يصوِّر حادثةً ما ، وقمنا بعرضه ، لوجدنا أنَّ زمن عرض هذا الشريط بالنسبة لنا وحسب مقياسنا للزمن ، هو مجموع الوحدات الزمنية التي عُرِض خلالها هذا الفيلم ..

إذا قُمنا بعرض هذا الفيلم نفسه ، ولكن بشكلٍ أبطأ قليلاً ، أو أسرع قليلاً من العرض الطبيعي السابق فهل مجموع الوحدات الزمنية اللازمة (حسب مقياسنا للزمن) لعرضه هو ذاته في الحالة الطبيعية ؟ ..

إنَّ الصور المعروضة (الهيئات المكانية) هي ذاتها في الحالات الثلاث ، لم تنقص و لم تزد أيّ صورة ، وعلى الرغم من ذلك نجد أنَّ الزمن اللازم لعرض الفيلم يختلف من حالة لأخرى ، مع أنَّ إحساسنا بزمن أحداث القصّة هو ذاته في الحالات الثلاث ..

وإنَّ الفترة الزمنية الجزئية ، التي تفصل عرض صورتين متتاليتين في الحالات الثلاث ، مختلفة ، ويكون الزمن الكلِّي اللازم لعرض الفيلم في كلِّ حالة هو مجموع الأزمنة الجزئية الفاصلة بين عرض صورتين متتاليتين لهذه الحالة ، بينما إحساسنا بزمن أحداث القصّة مسألةٌ أخرى تتعلق بمتابعة إدراكنا لتنقُّل أحداث هذه القصّة ..

فإحساسنا وإدراكنا للتَّغيُّر الحاصل نتيجة الانتقال من صورة حدث لصورة حدث آخر ، وما تدركه نفوسنا وتتأثَّر به نتيجة هذا التَّغيُّر ، هو ذاته إدراكنا للزمن الذي

يفصل بين حدثي هاتين الصورتين عن بعضهما .. إنَّ الصورة الأولى رسمت في النفس (عبر أحاسيسنا) تأثيراً ما ، وتصوُّراً عن الهيئة المكانية الأولى التي تصُّورها هذه الصورة . وتأتي الصورة الثانية لترسم في النفس تأثيراً آخر ، وتصوُّراً آخر للهيئة المكانية الثانية التي انتقل إليها الحدث ، ويكون الزمن الفاصل (الذي تدركه نفوسنا) بين هاتين الصورتين (الهيئتين المكانيتين) ، هو إدراك النفس للتغير الحاصل بين هاتين الهيئتين المكانيتين ..

إنَّ الإسراع والإبطاء في إحساسنا الداخلي بتغُّير أحداث قصَّة الفيلم ، وبانسيابها الزمني ، يكون بعيداً عن تسريع عرض الفيلم وتبطيئها (زمن عرض الفيلم) .. فاختيار صورة مناسبة لأحداث من مراحل القصّة ، يرسم في نفوسنا سرعةً محدَّدةً لانسياب أحداث القصّة ، ولتصوٌّر زمن هذه الأحداث ..

والاختيار المناسب لصور أحداثٍ متباعدةٍ زمنياً في هذه القصّة ، يجعلنا نحسُّ بكامل زمن هذه القصَّة ، ولكن عبر عرضٍ أقلَّ زمناً من العرض الطبيعي .. فتصوُّرنا لزمن أحداث القصَّة المصوَّرة في مسلسلٍ يستغرق عرضه عشرات الساعات ، هو ذاته تصوُّرنا لزمن أحداث هذه القصَّة حينما تُصوَّر في فيلم يستغرق عرضه ساعتين ..

والاختيار المناسب لصور أحداثٍ متقاربة زمنياً في هذه القصّة ، يجعلنا نحسُّ بكامل زمن القصّة ، ولكن عبر عرضٍ أكبر زمناً من العرض الطبيعي ..

ولو قمنا بتصوير شريطٍ سينمائي لجسمٍ لا تتغيَّر هيئته المكانية (حسب حدود إدراكنا) لا هو ولا كلُّ ما يحيط به ، عندها ستكون جميع الصور التي يعرضها هذا الشريط متماثلة تماماً ، وأثناء عرض هذا الفيلم نَحْسَبُ أنَّه قد تمَّ إيقاف عرض هذا الشريط ، ولا فارق عندنا حينئذٍ من الإسراع أو الإبطاء في عرض هذا الفيلم ، لأنه لا يرسم في نفوسنا أيَّ تأثيرٍ نتيجة الانتقال من صورةٍ إلى أخرى ، وبالتالي انعدم الزمن

الجزئي (الذي تدركه نفوسنا) الذي يفصل عرض صورتين متتاليتين ، وبالتالي انعدام زمن هذا الفيلم وكأنه لوحة جدارية ميِّتة ..

من هنا ندرك أنَّ الانتقال من هيئة مكانية إلى أخرى ، بالنسبة لحادثةٍ ما نتفاعل معها حسب أحاسيسنا ، هو الذي يُحدِّد سرعة انسياب زمن هذه الحادثة ..

.. ولنأخذ مثالاً آخر ..

لو قُمنا بزراعة إحدى الخضروات الصيفية في الصيف ، وحسبنا الزمن المقابل من لحظة زراعتها إلى لحظة إنتاجها .. وقمنا بزراعة الصنف نفسه في الشتاء ، وضمن ظروف مادية أخرى غير تلك الموجودة في الصيف ، وقمنا أيضاً بحساب الزمن المقابل من لحظة زراعتها إلى لحظة إنتاجها ، فهل يتساوى الزمنان ؟ .. بالطبع لا ..

إنَّ النبتة في الحالتين مرَّت بمراحل النمو ذاتها ، ونمت وتكاثرت خلاياها بالحجم نفسه ، فالهيئات المكانية التي مرَّت بها النبتة في الحالتين هي ذاتها ، على الرغم من ذلك نجد أنَّ الزمنين مختلفان ..

نحن خارج العالم الداخلي لهذه النبتة ، نُحسُّ أنَّ الزمن في الحالة الثانية ، أطول منه في الحالة الأولى ، وبالتالي فإنَّ الزمن الجزئي (حسب إحساسنا نحن) اللازم لانتقال الخلية من هيئة مكانية إلى أخرى ، هو في الحالة الثانية أطول منه في الحالـة الأولى .. ولكـن بالنسبة للنبتة نفسها ما الفارق بين الحالتين ؟ ..... من خلال زمنها الداخلي الذي يحكم نمو خلاياها ، لا يُوجد أيُّ فارق ، لأنها في كلِّ حالة ستمرُّ عبر مراحل معيَّنة ، وهيئات مكانية محدَّدة ، هي ذاتها في الحالة الأُخرى ..

ولو أُتيح لنا تصوير هاتين الحالتين (النبتة في الصيف ، وفي الشتاء) عبر شريطين سينمائيين كبيرين ، سوف لا نجد أيَّ اختلافٍ بين الشريطين ، سوى أنَّ إحساسنا بسرعة عرض الشريط الثاني أبطأ من سرعة عرض الشريط الأول ، وبالتالي نحس بأنّ زمنه أكبر (هذا إن استطعنا رصد الهيئات المكانية الصغرى التي ينمو خلالها النبات

وتصويرَها) .. ولو أننا أسرعنا بعرض الشريط الثاني بمقدار محدَّد لحصلنا على الشريط الأول ، ولو أننا أبطأنا بعرض الشريط الأول بمقدار محدَّد لحصلنا على الشريط الثاني ..

وهكذا نرى أنَّ تفاعل حواسّنا مع حركة المادّة ، من هيئة مكانية لأخرى ، هو الذي يرسم الزمن الخارجي (بالنسبة لنا) الذي يحكم المادّة ..

.. ولنأخذ مثالاً آخر ..

لنتخيَّل أنّنا وضعنا إنساناً وبيده ساعة مواقتة لساعاتنا ، في مركبة فضائية تسير بسرعة قريبة نسبياً من سرعة الضوء ، وبعد فترة عاد هذا الإنسان بمركبته إلينا .. فهل تسجِّل الرقم نفسه الذي سجَّلته ساعاتنا أثناء غيابه عنَّا ؟ .. يقول العلم لا !..

فساعته ستسجل زمناً أقلّ من الزمن الذي سجلته ساعاتنا بمقدارٍ يتعلَّق بسرعة مركبته ، وسيُفاجأ هو بذلك كما نُفاجأ نحن .. ففي تلك الظروف التي كان فيها ، لن يحسَّ أبداً بتباطؤ ساعته ، لأنَّ خلايا جسده ، ونبضات قلبه ، وحواسّه ، وجميع مادّة جسمه ، ستتباطأ حركتها بالنسبة نفسها التي تتباطأ بها حركة ذرّات ساعته وعقاربها ، وكلُّ ذرّات المركبة التي هو بداخلها .. فزمنه الداخلي المرتبط بمادة جسده ، يتباطأ بالنسبة نفسها التي يتباطأ بها الزمن الخارجي (بالنسبة له) الذي يحكم مركبته وساعته .. فمن أين له أن يحسَّ بهذا التباطؤ ؟ ..

ولو أُتيح لنا النظر إليه أثناء رحلته هذه ، لأحسسنا بتباطؤ حركته .. ولو أُتيح لهذا الراكب النظر وهو بمركبته إلى عالمنا نحن ، سيحسُّ أنَّ زمننا (الذي يُعتبر الزمن الخارجي بالنسبة له ولعالم مركبته) يتسارع بشكل مغاير لانسياب الزمن في عالم مركبته ..

إنَّ سرعته الهائلة في هذا الكون ، هي التي جعلت الانتقال من هيئة مكانية لأخرى في هذه الجملة المتحرِّكة ، أبطأ منها في العالم البعيد عن هذا التسارع الكبير .. فكلُّ ما في هذه المركبة ستتباطأ حركته بالنسبة نفسها ، وستصل صور أحداث هذه المركبة إلى

نفوسنا التي تعيش في عالم آخر له حركته وصفاته وماهيته الخاصّة .. لذلك سنرى من عالمنا نحن صور أحداث ذلك العالم – عالم المركبة – تتباطأ بنسبة معيَّنة تتعلَّق بسرعة المركبة ..

فنبضة القلب التي تحتاج في عالمنا إلى ثانية تقريباً ، تحتاج داخل المركبة (حسب توقيتنا نحن) إلى أكثر من ذلك .. وسرعة دوران الإلكترونات حول النواة في ذرّات عالم المركبة أبطأ منها عندنا .. لذلك فالزمن الجزئي اللازم للانتقال من هيئة مكانية إلى أخرى في عالم المركبة (حسب مقياسنا نحن للزمن) أطول من الزمن الجزئي اللازم للانتقال من الهيئة المكانية إلى الأخرى التالية في عالمنا ..

إنَّ ما يحدث بالنسبة لتباطؤ الزمن في عالم المركبة (بالنسبة لنا) يُرافقه تقلُّص في الأطوال الداخليَّة لكلّ العناصر الماديَّة في المركبة بما فيها جسد الإنسان ، وذلك باتجاه الحركة ، ويرافقه أيضاً ازدياد في كتلة هذه الأجسام الماديَّة .. وهذه الملاحظات (كما قلنا) التي نلاحظها نحن ، لا يمكن أن يُلاحظها الراكب داخل هذه المركبة ، لأنَّ كلَّ ما يحيط به سوف يتغيَّر بالنسبة نفسها التي يتغيَّر بها جسده ..

من خلال الأمثلة السابقة ، المستندة على حقائق علمية مثبتة ، نستطيع القول : إنَّ إدراك الزمن الجزئي الأصغر الذي يفصل بين هيئتين مكانيتين متتاليتين ، هو إدراك حوّاسّنا للتغيّر الحاصل نتيجة انتقال الهيئة المكانيّة من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية .. وعليه يكون إدراك النفس للزمن هو إدراكها لتراكم هذه الأزمنة الجزئية ..

وهكذا يعد الزمن صورة من صور الإدراك الحسِّي ، شأنه بذلك شأن إدراكنا للَّون والرائحة والطعم ، شأنه شأن إحساسنا بالبرودة والسخونة ، فكما أننا لا نستطيع الإحساس بصفات المادة إلاّ من خلال نقل حواسِّنا لهذه الصفات إلى الدماغ ، فكذلك لا نحسُّ بالزمن إلاّ من خلال تفاعل حواسِّنا وأجسادنا وأنفسنا مع الأحداث المتحركة في عالم المادَّة الذي نعيش ضمنه ..

فالزمن ليس مقداراً رياضياً مجرَّداً عن أي ارتباط بالحركة ، ولا ينساب على نمط واحد ، وبالتالي لا تُوجد له طبيعة خاصَّة مستقلَّة عن المادة وحركتها .. إنَّ إدراكنا للزمن يكون عبر إطلالتنا على عالم المكان والزمان عن طريق جسدنا وحواسّنا ..

أمّا الزمن الداخلي الذي يحكم النفس ، فهو تراكم الإدراك الداخلي لهذه النفس بالنسبة للمتغيِّرات الماديّة وحركتها داخل الجسد الذي تسكنه النفس ، ويتبع ذلك لمادة الجسد وحركته .. وهذا الزمن الداخلي الذي يحكم النفس ، تعتبره النفس الميزان الذي تقيس عليه درجة الانسياب الطبيعي للأزمنة الخارجية التي تتفاعل معها عن طريق الحواس ..

لنقف الآن عند صُور المادة خارج الجسد ، والتي تَعْبُر النفس عن طريق الحواس ، محاولين التعرف على حركتها عبر المكان .. تلك الحركة التي ولّدت في النفس الإحساس بالزمن الخارجي ..

إنَّ صُور الحوادث في هذا الكون تنتقل في الفضاء الخارجي بسرعة الضوء (٣٠٠٠٠٠) كيلو متر في الثانية ، وهي تنتقل في كلِّ الاتجاهات .. فشعاع الشمس الذي يأتينا بسرعة الضوء يحتاج في مسيره إلينا إلى (٨) دقائق تقريباً ، وبالتالي فإنَّ صورة الشمس التي تنتقل إلينا عبر هذه الأشعّة ، تحتاج إلى (٨) دقائق حتى تصلنا .. لذلك نقول إنَّ الشمس تبعد عنا مسافة (٨) دقائق ضوئية ..

إنَّ هذه الشمس التي نراها (من على الأرض) هي ليست الشمس الحقيقية الآن ، إنها الشمس قبل (٨) دقائق .. ولا يمكننا أبداً رؤية الشمس الحقيقية (حسب زمنها هي) إلا بالذهاب إليها .. فصورة الشمس التي تَعْبُر النفس (هنا على الأرض) من خلال منافذها الحسِّية عبر الجسد ، نعيش معها بفارق زمني (عن زمن الشمس الذاتي) يُقدَّر بحوالي (٨) دقائق ..

وهذا ينسحب على كلِّ الأجسام المادية في هذا الكون ، فرؤيتنا لباب الغرفة هي إدراكنا لصورة هذا الباب قبل فترة زمنية ضئيلة جداً ، تساوي نسبة بعدنا عن الباب إلى سرعة الضوء (٣٠٠٠٠٠) كيلو متر في الثانية .. صحيح أنَّ هذه النسبة صغيرة جدّاً ، ولكنها موجودة فعلاً ويمكننا حسابها ، وعندما تكبر المسافة الفاصلة بيننا وبين الجسم المُشاهَد ، يصبح لهذه النسبة حدٌ محسوس ..

لفرض أنَّ نجماً يبعد عنّا مسافةً تعادل (١٠٠٠) سنة ضوئية ، أي أنَّ الضوء المنبعث من هذا النجم والذي يحمل معه صورته ، يحتاج إلى ألف سنة في وصوله إلينا ، ولنفرض أنَّ هذا النجم قد انفجر قبل (٦٠٠) سنة (حسب زمنه هو) ، فمن أين لنا أن نشاهد صورة هذا الانفجار .. إننا لا نستطيع مشاهدة ذلك إلا بعد مرور (٤٠٠) سنة حسب زمننا نحن ، لأنَّ صورة هذا الانفجار تسير إلينا بسرعة الضوء ، وستصلنا بعد فترة زمنية هي (١٠٠٠ – ٦٠٠ = ٤٠٠) سنة ..

فالزمن الخارجي الذي تدركه النفس ، هو إدراكها لصورة المادة وحركتها في الماضي (الماضي المرتبط بالأزمنة الذاتية للأماكن التي انطلقت منها هذه الصور في الفراغ) .. ذلك الماضي الذي يختلف من نقطة لأخرى ، وذلك حسب بُعد هذه النقاط عن المكان الذي تُوجد فيه هذه النفس ..

وهكذا تتفاعل النفس مع الزمن الذي يحكم المادّة عبر بُعدين :

١ – الزمن الداخلي : وهو ناتج عن تفاعل النفس مع طبيعة مادة الجسد وماهيَّته وحركته وسلامة صحّته ، حيث تُدرك النفس انسياب زمنها الداخلي نتيجة لهذا التفاعل .. والزمن الداخلي لكلِّ نفس ، هو الأساس والميزان الذي تقيس عليه الانسياب الطبيعي للزمن الخارجي الذي تتفاعل معه عبر حواسِّها ..

٢ – الزمن الخارجي وهو ناتج عن إدراك النفس (عبر حواسِّها) لحركة المادَّة خارج الجسد ، ويتبع ذلك للوضع المكاني لها ، ولنسبيَّة حركتها بالنسبة للعالم الخارجي (خارج الجسد) .. وتقدِّر النفس سرعة انسيابه بالنسبة لزمنها الداخلي ..

إنَّ الزمن الخارجي للنفس ، مرتبطٌ بمكان وجود هذه النفس .. فنحن على الأرض نتعامل (وفق زمننا الداخلي) مع ماضي الشمس بفارق (٨) دقائق ، ومع ماضي نجم آخر بفارق سنة مثلاً ، ومع ماضي نجم آخر بفارق (١٠٠٠) سنة ، ولو وُجدت نفوسٌ أُخرى في تلك الأماكن ، لتعاملت (حسب زمنها الداخلي) مع ماضينا نحن بالفارق الزمني نفسه ..

وهكذا تُعدُّ الحادثة المستقبلية بالنسبة لنا ، حادثةً ماضية في مكان آخر من هذا الكون (حسب زمن ذلك المكان) ، فبعض الحوادث الخارجية التي نراها بعد سنة ، مرَّت هي ذاتها من أماكن أخرى في هذا الكون قبل سنين ، وستمرُّ من أماكن أخرى بعد سنين .. فمن نقطة ما في هذا الكون نستطيع رؤية كلّ أحداث الكون التي تصلنا ، ولكن حسب ماضي هذه الأحداث .. ذلك الماضي المتعلِّق بالبعد المكاني الذي يفصلها عنَّا ..

فكما أنه لا يوجد مكان مطلق مستقلّ عن أبعاد المادة ، لا يوجد زمان مطلق مستقلّ عن حركة هذه المادة .. إنَّ مفهوم الزمن المطلق المجرَّد المنساب على نمط واحد ، وله طبيعته الخاصَّة المستقلَّة ، هذا المفهوم لا يكون إلاّ إذا كان انتشار التأثير لحظيّاً ، أي عندما تكون صورة أيّ حادثة في هذا الكون ، تنتشر إلى جميع أجزائه بلحظة واحدة ، وتشعر به جميع مواد هذا الكون في اللحظة نفسها .. عند ذلك فقط يكون المفهوم المجرَّد المستقل لانسياب الزمن صحيحاً .. ولكن هذا المفهوم ساقط علمياً ، فانتشار التأثير ، وانتقال صور الأحداث ، يكون بسرعة الضوء (٣٠٠٠٠٠) كيلو متر في الثانية ، وهي سرعة محدّدة ، لذلك فإنَّ انتشار صور حادثة ما يحتاج إلى زمن ..

إنَّ كلمة الآن تختلف من مكانٍ لآخر ، فكلمة الآن هنا تعني مجموعة من تواقيت الماضي (أو المستقبل) للأماكن ، حسب بعدها المكاني عنَّا ، لأننا ضمن مكانٍ محدَّد في هذا الكون ، ونتفاعل مع أحداث الكون (حسب أزمنتها هي) بفواصل زمنيَّة تتبع بعدها عنَّا ، فانتقال هذه الأحداث ليس لحظيّاً ، ويحتاج إلى زمن للوصول إلينا ..

إذا فرضنا (جدلاً) أننا نريد رؤية انعكاس الترتيب الزمني ما بين النتائج ومقدماتها بالنسبة للأحداث الخارجية ، أي رؤية انسياب الزمن بشكل معاكس لانسيابه الذي يحكمنا ، أي أننا نريد رؤية النتائج قبل المقدمات التي أدَّت إليها بالنسبة لحادثة ما ، فهذا يقتضي أن يكون البعد المكاني بين المقدمة ونتيجتها (المحسوب بناءً على سرعة الضوء) أكبر من البعد الزماني بينهما (الزمن الفعلي بين المقدّمة ونتيجتها) ..

فمثلاً إذا ركب أحدٌ بسيارة وانطلق من مدينة أولى إلى مدينة ثانية .. حتى يتغيَّر الترتيب الزمني بين المقدمة (وهي الانطلاق من المدينة الأولى) والنتيجة (وهي الوصول إلى المدينة الثانية) ، أي حتى نشاهد وصوله إلى المدينة الثانية قبل انطلاقه من المدينة الأولى ، يجب أن تكون المسافة بين المدينتين (منسوبة لسرعة الضوء) أكبر من البعد الزمني الذي استغرقته الرحلة (الزمن الحقيقي للرحلة) ..

وبعبارة أخرى يجب أن تكون سرعة سيارته أكبر من سرعة الضوء .. عند ذلك يعود الزمن إلى الوراء ، وبالتالي يمكن رؤية النتائج قبل المقدمات ، أي يمكن لمشاهد ما في مكان آخر من هذا الكون ، رؤية وصول راكب السيارة إلى المدينة الثانية ، قبل انطلاقه من المدينة الأولى .. أي رؤية الرحلة بشكل عكسي ..

إنَّ ذلك من المستحيل على المخلوقات المحسوسة المشاهدة في هذا العالم المادي ، لأنَّ سرعة حركتها لا يمكنها الوصول إلى سرعة الضوء ، ولو حصل ذلك لتحوَّلت مادة هذه المخلوقات إلى طاقة ..

كما يستحيل على المخلوق مشاهدة تغيُّر الترتيب الزمني الذي يحكمه ، لأنه محكوم لقوانين المادة والمكان والزمان ، فهو موجود في مكان محدَّد ، ولا يمكنه رصد الحوادث إلاّ من مكانه هذا ، أو من مكان يتحرَّك بسرعة لا يمكنها الوصول إلى سرعة الضوء ..

فرؤية انسياب الزمن من النتائج باتجاه المقدمات (عكس الانسياب الذي يحكمنا) يحتاج إمّا إلى انتقال المتحرِّك بسرعة أكبر من سرعة الضوء ، أو إلى انتقال المشاهِد بسرعة أكبر من سرعة الضوء ، أو أن يكون المشاهد موجوداً في كلِّ مكانٍ من هذا الكون ، ويرى في اللحظة نفسها جميع أمكنة هذا الكون دفعة واحدة ، أي متحرِّراً من قيد المكان ، وكلٌّ ذلك مستحيلٌ على المخلوقات ..

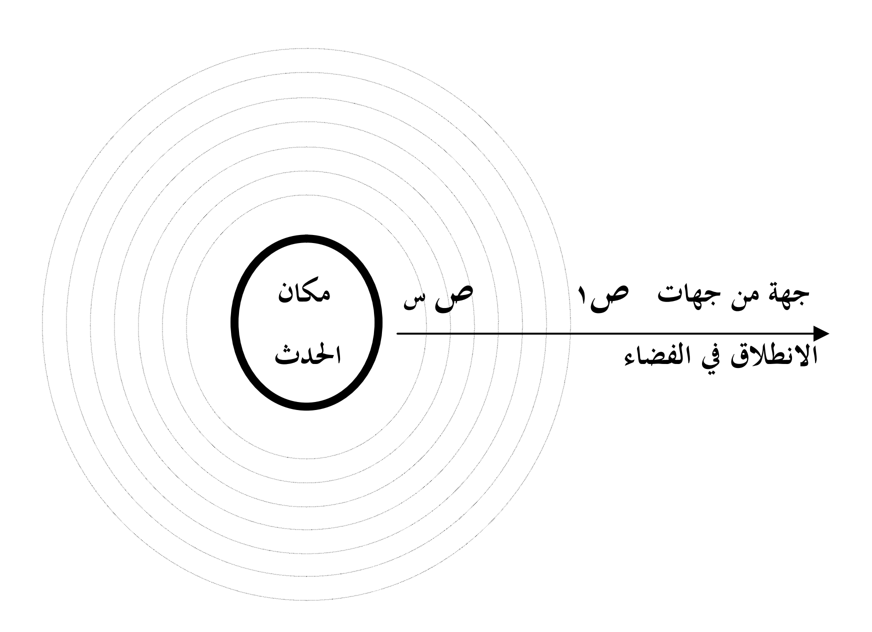
.. لنقف عند هذا المثال الذي سوف يقرِّب الصورة إلى أذهاننا ..

إذا فرضنا أنَّ إنساناً عاش ومات خلال فترةٍ زمنية مقدارها (س) واحدة زمن .. حيث يرمز الحرف (س) إلى عدد وحدات الزمن التي عاشها هذا الإنسان ، وبما أنّنا فرضنا أنَّ لكلِّ واحدة زمن صورة خاصّة بها ، فإنَّ هذا الرمز يشير أيضاً إلى عدد صور حياة هذا الإنسان التي انطلقت في الفضاء .. فكلّ واحدةٍ من هذه الوحدات تفصل بين صورتين متتاليتين من صور حياته التي تنطلق في الفضاء ..

.. أي لنتصوَّر أنَّ حياة هذا الإنسان ، كانت عبارة عن شريط سينمائي مكوَّن من (س) صورة ، بحيث تنطلق هذه الصور في الفضاء ، من مكانه الذي يعيش فيه في كلِّ الاتجاهات ..

لو أخذنا اتجاهاً واحداً ، من مجموعة الجهات المنطلقة في الفراغ على شكل كرات مركزها هو مكان الحدث ، لكانت الصورة (ص١) التي انطلقت في الفضاء لحظة ميلاده ، هي الصورة الأبعد عن المكان الذي عاش ومات فيه ، لأنها أول صورة انطلقت في الفضاء .. ولكانت الصورة الأخيرة (ص $_{س}$) التي انطلقت في الفضاء لحظة موته ، هي الصورة الأقرب إلى المكان الذي عاش فيه ، لأنها آخر صورة انطلقت في الفضاء ..

وما بينهما من الصور تكون مرتَّبة حسب ترتيب تغيُّر الهيئة المكانيَّة التي عاشها هذا الإنسان ..



ص ١ ص س

(الميلاد) (الموت)

لنتخيَّل أنَّ مشاهداً يرى جميع الأمكنة التي تمرُّ منها هذه الصورة باللحظة نفسها ، أي أنَّ المشاهد غير محكوم لقانون المكان ... إنَّ هذا المشاهد (المفروض) يستطيع رؤية جميع صور هذا الإنسان التي عاشها دفعة واحدة ، لأنَّ بصره (كما فرضنا) يحيط بجميع الأمكنة دفعة واحدة ..

لو نظر هذا المشاهِد ابتداءً من جهة المكان الذي عاش فيه هذا الإنسان لرأى صورة هذا الإنسان لحظة موته (ص س) ، ومن ثمَّ الصورة التي سبقتها (انطلاقاً في الفضاء) ، وهكذا ، لتكون آخر صورة يراها هي صورة ميلاد الإنسان (ص١) .. أي أنه يرى

عمر هذا الإنسان من موته إلى ميلاده ، وهو ذاته الانسياب العكسي للزمن الذي عاشه ذلك الإنسان من النتائج باتجاه المقدمات ..

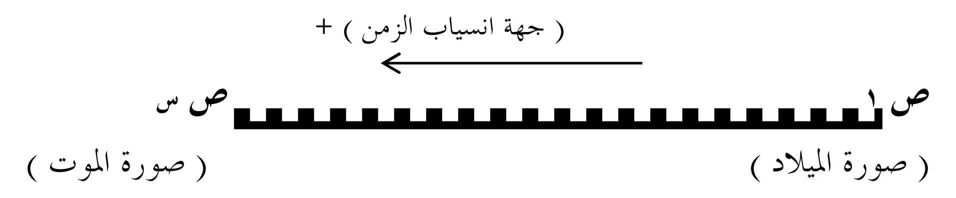
+ (جهة انسياب الزمن)

ص١ ص س

(صورة الميلاد) (صورة الموت)

(محور الزمن الخارجي لنظرة المشاهد في هذه الحالة)

ولو نظر هذا المشاهِد عكس ذلك ، أي ابتداءً من الصورة الأولى التي انطلقت في الفضاء لحظة ميلاد الإنسان (ص١) ، باتجاه الصورة الأخيرة التي انطلقت في الفضاء لحظة موت الإنسان (ص س) ، لرأى انسياب الزمن الحقيقي لعمر هذا الإنسان ، أي لرأى ترتيب الزمن من المقدمات باتجاه النتائج ..



(محور الزمن الخارجي لنظرة المشاهد في الحالة الثانية)

ولو نظر هذا المشاهِد إلى نقطة ما (ن) تقع بين صورة الميلاد (ص١) وصورة الموت (ص س) ، لرأى هذه النقطة عبارة عن حلقة تمرُّ منها صور شريط حياة هذا الإنسان .. ففي كلِّ لحظة زمنية من وحدات الزمن التي تمرُّ صورة من هذه الحلقة .. إنَّ أوَّل صورة مرَّت من هذه الحلقة هي صورة الميلاد (ص١) ، وآخر صورة ستمرُّ منها هي صورة الموت (ص س) ..

ص ١ ص ن ص س

(صورة الميلاد) (صورة الموت)

ويكون عمر الإنسان في اللحظة (ن) عند الصورة (ص ن) ، هو مجموعة الصور من صورة ميلاده (ص١) حتى الصورة (ص ن) ، وهذا الجزء يزداد كلَّ واحدة زمن بمقدار صورة واحدة على حساب القسم الآخر .. ويكون ما بقي له من العمر هو مجموعة الصور على يسار الصورة (ص ن) حتى صورة موته (ص س) .. وهذا الجزء ينقص كلَّ واحدة زمن بمقدار صورة واحدة ، هي ذاتها التي يربحها القسم الآخر في واحدة الزمن هذه ..

وهكذا عندما ينظر المشاهِد المفروض إلى شريط صور حياة الإنسان (من ميلاده باتِّجاه موته) فإنه يرى بالنسبة لأيِّ صورة من حياته مثل الصورة (ص ن) التي يعيشها في اللحظة (ن) ، يرى مرحلتين من العمر الكامل لهذا الإنسان ، تتغيَّران من لحظة لأخرى ، يمكن تمثيلهما بالمحورَين التاليَين ..

+ (جهة انسياب الزمن)

ص س ص ن ص ١ المحور (١)

ص س ص ن ص ١ المحور (٢)

(الميلاد) (الموت)

المحور ١ : يمثِّل الماضي بالنسبة للحظة (ن) ، وهو محور زيادة العمر ، حيث يمثِّل الخطُّ المستمرُّ مجموعةَ الصور التي يراها المشاهِد المفروض قد عمَّرت حتى اللحظة (ن) ، والتي تزداد من لحظة لأخرى ..

المحور ٢ : يمثِّل المستقبل بالنسبة للحظة (ن) وهو محور نقصان العمر ، حيث يمثِّل الخطُّ المستمرُّ مجموعةَ الصور المستقبلية بالنسبة للصورة (ص ن) ، هذه الصور التي تنقص من لحظة لأخرى لحساب الخطِّ المستمرِّ في المحور (١) ..

إنَّ بإمكان العقل البشري تصوُّر ذلك ، عندما تكون أحداث عمر الإنسان جميعها من لحظة ميلاده إلى لحظة موته قد وقعت فعلاً ، أي أنَّ الإنسان قد عاش عمره فعلاً ومات ، وبالتالي انطلقت صور حياته (من لحظة ميلاده إلى لحظة موته) كاملةً في الفضاء .. في هذه الحالة فقط يستطيع العقل البشري تصوُّر المفهوم السابق ..

ولكن عندما لم يعش هذا الإنسان جميع مراحل عمره ، أي أنه لم يمت بعد ، فمن يستطيع مشاهدة أحداث حياته التي لم يعشها بعد ؟ .. من يستطيع أن يشاهد صورة موته (ص س) ، وهو مازال على قيد الحياة ؟ .. طبعاً من المستحيل على المخلوقات رؤية ذلك أو تصوُّره ..

إنَّ قوانين المادة والمكان والزمان التي تحكم المخلوقات ، وتمنعهم من رؤية المستقبل ، هي قوانين مخلوقة لله سبحانه وتعالى ، وهي محكومة له .. فالله سبحانه وتعالى يحيط علماً بكلِّ مكان وزمان ، ويرى كلَّ الكون (زماناً ومكاناً) دفعة واحدة ..

لندرس هذه المسألة عبر مقدمات يتصوُّرها العقل البشري بسهولةٍ أكبر ..

إذا افترضنا أننا ضمن فراغ نعلم تماماً جميع صفاته من كثافة ومقاومة للاحتكاك و ..... إلخ ، وإذا افترضنا أننا نعلم تماماً جميع القوانين التي تحكم حركة سير القذيفة نتيجة القوى التي تؤثِّر عليها ، وإذا افترضنا نقطة البداية ولحظة البداية لإطلاق هذه القذيفة من مدفع نعلم تماماً جميع صفاته وميِّزاته ..

ألا يمكن عند ذلك التنبؤ مسبقاً (حسب علمنا المحدود) بالنقطة التي ستسقط فيها هذه القذيفة ، وبلحظة سقوطها ، وبالمسار الذي ستسلكه أثناء حركتها ، وبعمر هذا الحدث من لحظة إطلاق القذيفة إلى لحظة سقوطها ، وبكلِّ التَّغيُّرات التي تطرأ نتيجةً لهذا الحدث ؟ .. إنَّ علمنا بذلك يكون أقرب إلى الحقيقة ، كلَّما اقترب هذا العلم من حقيقة المقدمات التي استنتجنا منها التنبؤات السابقة ..

.. ولنأخذ مثالاً آخر ..

لو افترضنا أننا نعلم تماماً جميع الظروف المادية التي تحيط بقطرة محدَّدة من مياه البحر ، والتي تؤدِّي إلى تبخُّر هذه القطرة ، ولحظة تبخُّرها ، والمكان الذي تبخَّرت منه ... وإذا فرضنا أننا نعلم تماماً جميع القوى التي تُؤثِّر على هذه القطرة بعد فراقها لمياه البحر ، وبالتالي إلى أيِّ ارتفاع ستصل ، وإلى أيِّ غيمة ستنتمي .. وإذا فرضنا أننا نعلم تماماً جميع القوى الداخلية في الغيمة والتي تؤثِّر على هذه القطرة ، وبالتالي تحديد مسارها وحركتها وحالتها ضمن هذه الغيمة .. وإذا فرضنا أننا نعلم تماماً جميع الظروف المحيطة بها في كلِّ لحظة من قوة رياح وغيرها والتي ستدفع هذه الغيمة ، وبالتالي معرفة الأماكن التي ستصل إليها وستسقط مياهها فيها ، والقوانين التي تحكم ذلك ، وبالتالي معرفتنا لنقطة سقوطها ..... وهكذا ..... إلخ ..

ألا يمكننا عندئذٍ التنبّؤ (على قدر علمنا بالمقدمات السابقة) بالمكان والزمان اللذين ستسقط فيهما هذه القطرة ، وبماهيَّة السقوط ؟ ..

إذا فرضنا (جدلاً) أنَّ علمنا حول رحلة قطرة المياه تلك ، ينسحب على جميع ذرّات المياه في الأرض في كلِّ مكانٍ زمان ، ألا نستطيع (وعلى قدر علمنا) التنبؤ بكميات المياه التي ستسقط في كلِّ زمان ومكان على سطح الأرض ..

إنَّ كلَّ ذرّة في هذا الكون تتحرَّك طاقتها التي أودعها الله تعالى فيها ، ضمن قوانين محدَّدة وثابتة رسمها الله تعالى لها ، من أجل إعطائها حيثيات وجودها في عالم المادة

والمكان والزمان .. وهذه الذرّة تدخل في تركيب جزيئاتٍ أكبر ، هي الأخرى تتحرَّك ضمن قوانين محدَّدة ، حدَّدها الخالق سبحانه وتعالى .. وهذه الجزيئات تدخل في تكوين أجسام أكبر ، لها قوانينها ومؤثِّراتها الداخلية والخارجية التي حدَّدها الخالق سبحانه وتعالى .. وهكذا .. حتى المجرَّات .. حتى جسم الكون .. كلٌّ يتحرَّك ويدور ويؤثِّر بعضه ببعض ، عبر قوى وقوانين حدَّدها ورسمها خالق المادة ومبدعها سبحانه وتعالى ..

ولنسأل أنفسنا السؤال التالي : إذا كُنَّا نحن كمخلوقات ، عندما نعلم الجانب الظاهري من قوانين مسألةٍ ما وظروفها ومؤثراتها ، نستطيع معرفة الماهيَّة (على قدر علمنا) التي ستؤول إليها المادة نتيجة تطبيق هذه القوانين عليها .. فهل خالق المادة وكلّ شيء في هذا الكون ، وممسكها من الزوال في كلِّ لحظة عن طريق إعطائها حيثيات وجودها ، وخالق جميع المؤثرات الداخلية والخارجية المؤثرة فيها وواضع قوانينها ونُظمها التي تسير عليها .. فهل خالق الكون سبحانه وتعالى الذي لا تحكمه قوانين والمكان والزمان ، والذي يملك هذه القوانين ، والذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً ، والموجود في كلِّ مكانٍ وزمان .. هل من الصعب عليه إدراك الهيئة التي ستصير إليها الأشياء التي خلقها نتيجة تطبيق القوانين التي رسمها ؟ ..

إنَّ هذه الأمثلة وغيرها هي تقريب للتَّصوُّر البشري (المحكوم لقوانين المادة والمكان والزمان) عبر مقدمات مادِّية تؤدي إلى نتائج مادِّية .. ولكن بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى الذي هو أسمى من أن يُشبَّه بأيِّ شيء ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، والذي يحيط بكلِّ مكان وزمان ، فإنه يرى الكون مكاناً وزماناً من لحظة ميلاده إلى نهايته دفعةً واحدة ، ويرى انسياب الزمن بكلِّ اتجاه .. فلا فارق عنده في رؤية نتائج الأحداث سواء وُجدت مقدماتها في عالم المادة والمكان والزمان أم لم توجد ..

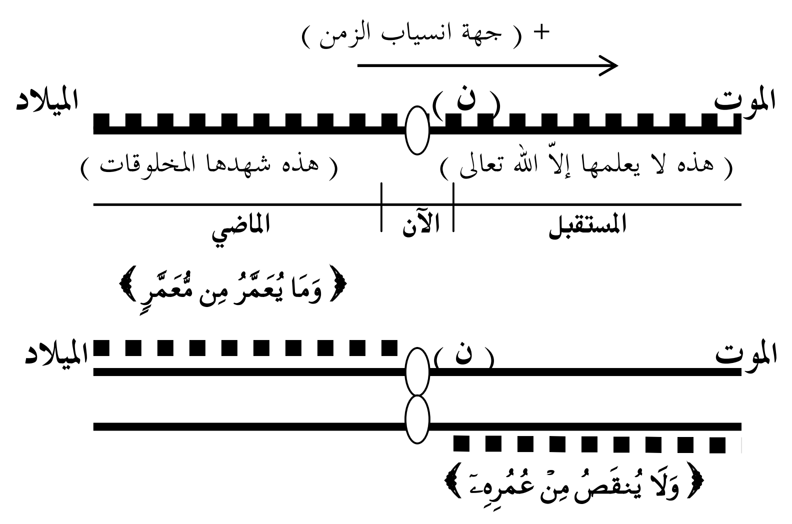
﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

إنَّ الأحداث بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى ، كأنها شريط سينمائي مفرود ، صورته الأولى هي لحظة ميلاد الكون ، وصورته الأخيرة لحظة نهايته ، ويسير هذا الشريط من الماضي باتجاه المستقبل ، ليمرَّ في حلقةٍ اسمها الآن .. ونحن من المخلوقات لا نشاهد من الأحداث التي تخصّنا إلا صور الأحداث الموجودة معنا داخل هذه الحلقة (الآن) ..

ويُلقي القرآن الكريم الضوءَ على هذه المسألة ، مُبيِّناً أنَّ الله تعالى يرى في كلِّ لحظة ما عاشه الإنسان حتى هذه اللحظة ، وما بقي له من عمره حتى نهاية هذا العمر ، وإنه كان من الصعب علينا تصوُّر ذلك فإنه على الله تعالى يسير ..

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ٣٥]

إننا نرى من خلال هذه الصورة القرآنية ، أنَّ الكلمتين ﴿ يُعَمَّرُ ﴾ ، ﴿ يُنقَصُ ﴾ تردان بصيغة الاستمرارية ، فما يُعمَّر الإنسان من ولادته حتى لحظة ما (ن) ، يزداد كلَّ لحظة على حساب ما بقي له من عمره ، وما بقي له من عمره اعتباراً من اللحظة (ن) ، ينقص كلَّ لحظة لحساب ما عمَّر حتى هذه اللحظة ..



فالصورة القرآنية : **﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾** ، لا تعني (كما ذهب بعضهم) أنَّ عمر الإنسان يزيد وينقص .. إنما تعني أنَّ عمر الإنسان (في علم الله تعالى) محدَّدٌ وثابتٌ ، حيث يرى الله تعالى في كلِّ لحظة من حياة الإنسان ، ما عاش حتى تلك اللحظة (الماضي بالنسبة للإنسان) ، وما بقي له من العمر حتى يموت (المستقبل بالنسبة للإنسان) ..

وممّا يؤكّد ذلك هو ورود الكلمتين [**﴿ يُعَمَّرُ ﴾** ، **﴿ يُنقَصُ ﴾**] بصيغة المضارع .. وورود كلمة **﴿ وَلَا ﴾** في العبارة القرآنيّة **﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ ﴾** دون كلمة (وما) كما هو في صياغة العبارة **﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾** ، وأنَّ الضمير في كلمة **﴿ عُمُرِهِۦٓ ﴾** يعود على الإنسان ذاته الذي يتعلّق به الضمير في كلمة **﴿ مُّعَمَّرٍ ﴾** ..

ويُبيِّن القرآن الكريم أنَّ الزمن مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، شأنه بذلك شأن جميع المخلوقات الأخرى .. يقول تعالى :

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَ ۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩]

خلال الفترة الزمنية التي أماته الله تعالى بها ، وهي مائة عام ، أجرى الله تعالى انسياب الزمن على حماره الذي أصبح نتيجةً لذلك كومةً من العظام ، ولم يُجرِ الزمن عن طعامه وشرابه ، فطعامه وشرابه بقيا كما هما لم يتسنَّيا طيلة هذه الفترة ..

إنَّ الهدف من ذلك ، هو لفت انتباه الناس إلى أنَّ الزمنَ مخلوقٌ من مخلوقات الله تعالى ، ينساب ضمن قوانين ونُظم حددها ورسمها الخالق سبحانه وتعالى ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، وإنَّ حكم قانون الزمن على المادّة ليس بعيداً عن علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، فالله سبحانه وتعالى يخرق هذه القوانين ليثبت للمخلوقات أنَّ هذه القوانين ، لم تُوجَد لوحدها ، ولم تعمل لوحدها ، إنما هناك خالق قيُّوم على ذلك ..

وتُبيِّن هذه الآية الكريمة ، أنَّ الإنسان عندما لا يُطلُّ على عالم المادة والمكان والزمان بجسده وحواسِّه ، فإنه لا يُحسُّ بحركة المادة في هذا العالم المادِّي ، لذلك على الرغم من لبث هذا الإنسان مائة عام أماته الله تعالى خلالها ، أجاب عن مدة لبثه هذه بأنها تعادل يوماً أو بعض يوم ، قياساً على فترة غيابه عن هذا العالم المادي أثناء النوم ..

رأينا – عبر هذا الفصل – أنَّ المفاهيم الثلاثة (المادة — المكان — الزمان) مرتبطة ومتلازمة ولا يمكن الفصل بينهما ، فلا يمكن إدراك المكان إلا من خلال مادة تملؤه ، ولا يمكن إدراك المادة إلاّ من خلال حيِّز المكان التي تتجسَّد به هذه المادة ، ولا يمكن

إدراك الزمن إلا من خلال حركة المادة ، وتغيُّر هيآت المكان الذي تحتلُّه هذه المادّة ، ولا تُوجد مادة لا تتحرك ، وبالتالي لا توجد مادة ليست محكومة لقوانين المكان والزمان ..

ويشير القرآن الكريم إلى علاقة المكان بالزمان في أكثر من موضع ..

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧]

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۞ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحج : ٤٧]

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحج : ٤٧]

إنَّ كلمة يوم ترتبط بدورة مكانية كاملة لمكان ما ، مما يتولَّد عن ذلك مفهوم الزمن المرتبط بهذا اليوم ، والذي يحكم المكان الذي دار هذه الدورة الكاملة .. فاليوم عندنا على الأرض هو (٢٤) ساعةً ، وفي كوكب آخر يعني الزمن المقابل لدوران هذا الكوكب حول نفسه دورة كاملة ، وهكذا ... لذلك لا يحقُّ لنا أن نجعل من قيد دورة الزمن التي تحكمنا هنا على الأرض إطاراً نُقيِّد به دورات الزمن في كلِّ أرجاء الكون ..

فكلمة يوم عندما يعرضها القرآن الكريم ، تعني دورة الهيئة المكانية المرتبطة بمكان ما دورة كاملة .. فمثلاً خَلْقُ الله تعالى للسموات و الأرض الذي تمَّ في ستة أيام ، يعني أنَّ المادّة الأولى التي خلقها الله تعالى بكلمة كن ، والتي تتكوَّن منها مادة السماوات والأرض ، تفاعلت مع بعضها وتمايزت حتى أخذت الشكل الذي استقرَّت عليه ، خلال ست دورات مكانية كاملة دارت خلالها هذه المادة ..

ونرى الآن أنَّ باستطاعتنا الإجابة على السؤال الذي حار عنده بعض الناس ، الذين جعلوا من تصوُّراتهم قيداً على قدرة الله تعالى .. لو رجعنا بالزمن إلى الوراء وإلى النهاية ، ما هو مقدار الزمن الذي يُحدِّد قِدم الخالق سبحانه وتعالى عن مثل هذه التصوُّرات ؟ ..

إنَّ هذا السؤال ناتج عن جهل بحقيقة الزمن ، وبأنه مخلوق يحكم المادة فقط نتيجة حركتها ضمن حدود المكان الذي تملؤه ، وأنه صورة من صور الإدراك الحسي ، تدركه نفوسنا نتيجة تفاعل الحواس مع حركة المادة ، وأنه لا وجود للزمن خارج هذا الإطار ..

إنَّ هذا السؤال ناتج عن جهل يتعلَّق بتصوُّرٍ خاطئ مفاده أنَّ الزمن مستقلٌّ عن المادة ، وأنَّه قانون أصيل يحكم كلَّ شيءٍ حتى الخالق سبحانه وتعالى عن ذلك ..

وفي الإجابة عن هذا السؤال نقول : لا زمان قبل خلق مادة هذا الكون .. كيف يكون هناك كون دون مادة ومكان وحركة ؟! .. فقانون الزمان مخلوق خُلق في اللحظة التي خُلقت فيها مادة هذا الكون ، وتحركت فيها هذه المادة في إطار المكان المخلوق أيضاً ..

نقول لمثل هؤلاء إنَّ الإله الموجود في تخيلاتكم ، والذي تريدون أن تخضعوه لحواسِّكم ، ولقوانين المادة والمكان والزمان التي تحكمكم ، ليس هو الله سبحانه وتعالى .. فالإله الذي تتخيلون هو صنم من الجهل والضلال ، وضعه الشيطان في مخيلاتكم لإبعادكم عن حقيقة عبادة الله تعالى ..

إنَّ صفات الله تعالى تُدرك آثارها ولا يمكن الإحاطة بها ، وهي ليست تبعاً لتصوِّر أحد .. فآثار صفات الله عزَّ وجلَّ وعظمته وقدرته ، يستطيع أيُّ إنسانٍ رؤيتها في أي شيء من مخلوقات الله تعالى ..

وهكذا نرى سقوط المقدمات الوهمية التي وضعها أصحاب الفلسفة الإلحادية .. لقد سقطت هذه المقدمات (التي اضطروا لوضعها من أجل إبعاد أصحاب العقول النيرة والقلوب الحية عن عبادة خالقها عزَّ وجلَّ) علمياً ومنطقياً .. هذا السقوط الذي بيَّنه قبل ذلك كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

مراتب الوجود

بعد أن ألقينا الضوء على مفهوم المادَّة ، التي هي – كما رأينا – جسد المكان ، وساحة تصوُّرنا لمفهوم الزمان .. لا بدَّ من إلقاء الضوء على كلِّ مراتب الوجود ، ولو بشكلٍ مختزلٍ جداً ، حتى نستطيع تصوُّر كلّ مسألةٍ من المسائل التي سنتناولها – إن شاء الله تعالى – في الفصول القادمة ، ضمن ساحةِ مرتبة وجودها ، ممّا يُساعد تصوُّرنا في إدراك هذه المسائل ، وفي إدراك الحدود الفاصلة بينها ..

إنَّ للوجود ثلاث مراتب :

١ – الذّات الإلهية وصفاتها : وهو وجودٌ مطلقٌ غير محكوم للمكان والزمان ، وهو حاكمٌ للمكان والزمان .. وإليه تعود كلُّ الموجودات الأخرى ..

٢ – عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) : وهو وجودٌ غير محكوم للمكان والزمان ، ولكنَّه ليس حاكماً للمكان والزمان .. وهذا الوجود يتعلَّق بصفات الله تعالى مُباشرةً .. وفي ساحة هذا الوجود لا تجتمع المتناقضات ..

٣ – عالم الخلق : ويتكوَّن من مرتبتين :

أ – وجود مخلوق غير محسوس (كالنفس البشريَّة) : وهذا الوجود على الرغم من أنَّه متحررٌ من قانون المكان والزمان (أي ينتمي إلى عالم ما فوق المادَّة والمكان والزمان) ، إلاّ أنَّه يخضع لقوانين المكان والزمان حينما يؤطَّر بجزئيّات المادّة في عالم الحسّ ، كالنفس البشرية حينما تكون داخل الجسد ..

ب – وجود مخلوق محسوس (عالم المادّة التي تنتمي إليه أجسادنا) : وهو وجود محكوم لقوانين المكان والزمان ..

وعالم الخلق وعالم الأمر يعودان لله تعالى ..

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

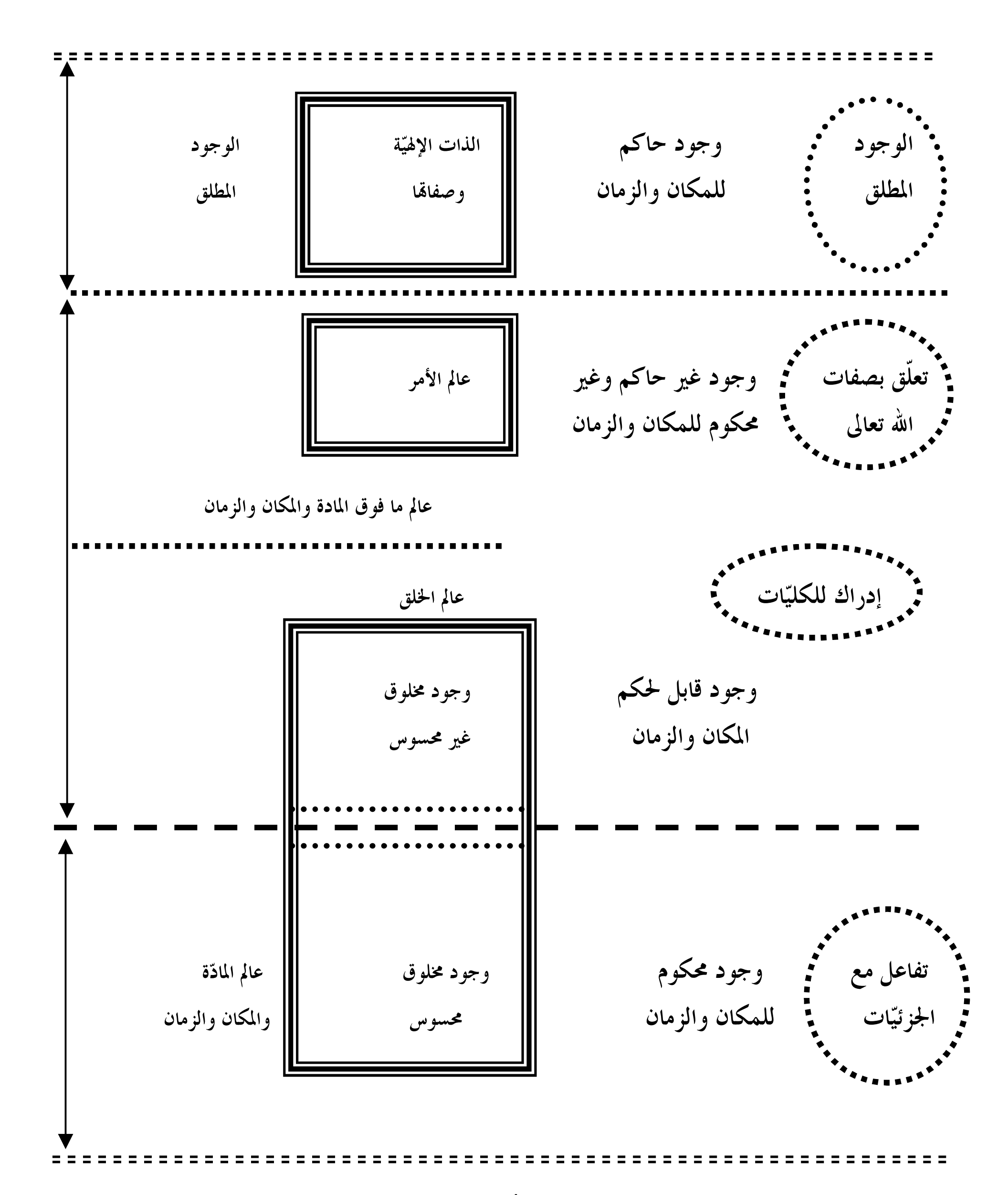
فالله تعالى هو الذي أوجد عالم الأمر الذي يتعلّق بصفاته مُباشرة ، وخلق عالم الخلق الذي يحتاج في كلِّ لحظة لله تعالى ، حيث يُعطيه الله تعالى حيثيات وجوده كما رأينا ..

ومن الخطأ الكبير النظر إلى موجودات عالم الأمر ، من منظار الزمان والمكان الذي يحكمنا ككائنات تنتمي إلى عالم الخلق ..

إنَّ إرجاع موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) إلى زمنٍ محدَّدٍ يتعلّق ببداية وجودها ، هو محاولة لوضع معيارٍ لا ينتمي إلى عالمها أصلاً ، كالذي يُريد معرفة أوزان الأشياء عبر معيار الألوان ..

فقولنا .. إنَّ موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) مخلوقة ، هو قولٌ مغلوطٌ حسب معيار صياغة القرآن الكريم ، لأنَّ كلمة (خلق) في القرآن الكريم تعني إيجاد الشيء في عالم الخلق ..

وهذا لا يعني (كما سيتوهَّم بعضهم) أنَّ موجودات عالم الأمر مستقلَّة (في إيجادها) عن الذّات الإلهية .. أبداً .. إنَّ الله تعالى أوجدها في مرتبةٍ من الوجود ، متعلِّقة مباشرة بصفاته ، ومستقلَّة تماماً عن عالم الخلق المحكوم لقوانين المكان والزمان ..



والخلط الذي يمكن أن يحصل في تصوُّراتنا حول مراتب الوجود هو بين عالم الأمر وعالم الوجود المخلوق غير المحسوس .. ولذلك سنلخِّص الفارق بين موجودات عالم

الأمر وموجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، حتى نستطيع تصوُّر الخط الفاصل بين هذين العالمين ..

١ – موجودات عالم الأمر تتعلَّق بصفات الله تعالى ، فلا تحمل إلا الصفات الإيجابيَّة .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، منها من يحمل صفات إيجابيَّة دائمة كالملائكة ، ومنها من يحمل صفات إيجابيَّة وسلبيَّة ، كالأنفس البشرية ، وكعالم الجن ..

٢ – موجودات عالم الأمر لا يمكن أن تخضع للزمان والمكان .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس تخضع للزمان والمكان حينما تؤطَّر بالجزئيّات الماديَّة في عالم المادَّة والمكان والزمان ..

٣ – موجودات عالم الأمر لا يُطلق عليها اسم الشيء (كما بيَّنا في النظرية الثالثة "الحق المطلق" وفي كتاب قصَّة الوجود) ، شأنها بذلك شأن الذات الإلهية .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع لصفات الأشياء حينما تُؤطَّر بقوانين العالم المادِّي ، شأنها بذلك شأن موجودات عالم الوجود المخلوق المحسوس ..

ويمكننا أن نُشير إلى بعض التشابه بين موجودات عالم الأمر ، وبين موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس حينما تكون خارج إطار عالم المادَّة والمكان والزمان ..

١ – كلاهما غير خاضعٍ للمكان والزمان ..

٢ – كلاهما لا يتفاعل مع مسألتين متناقضتين في الوقت ذاته ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net
adnan@thekr.net

الروح والنَّفس

الروح والنَّفس .. كلمتان تصفان – كما سنرى إن شاء الله تعالى – مسألتين تنتميان إلى عالمين يختلفان عن عالمنا المادّي الحسِّي .. لذلك لا يمكننا وضعهما في المخبر – كالمادة – وإجراء التجارب عليهما .. وبالتالي لا يمكننا الوصول فيهما إلى نتائج يقينيَّة إلاّ عبر ما يخبرنا الله تعالى عنهما في كتابه الكريم ..

والنَّفس مسألة أقرب إلى الدراسة الفلسفيةّ العلميَّة من الروح .. لأنَّ الروح – كما سنرى – مسألة إيمانيّة خالصة ، حيث يزداد كميّة الروح في الإنسان بمقدار اقترابه من الله تعالى .. ولذلك نرى أنَّ بعض الفلاسفة ، قديماً وحديثاً ، مسلمين وغير مسلمين – توصَّلوا إلى تعريف النَّفس ، بشكلٍ قريبٍ ممَّا يحمله القرآن الكريم من دلالات ومعانٍ لها .. ولكن لم يقترب أحدٌ حتى الآن – سواءٌ من المسلمين كفلاسفة وكفقهاء وكمفسِّرين للقرآن الكريم ، أم من غير المسلمين – من تعريف الروح ، كما يصوِّره القرآن الكريم ، أو حتى من الاقتراب من هذا التعريف ..

وتناول الفلاسفة المسلمين ومفسِّري القرآن الكريم للنفس ، كان باتّجاهات تتبع للرؤى المختلفة التي كانوا ينظرون منها إلى كتاب الله تعالى .. ولكن مُجمَل هذه الرؤى لم يخرج عن ربط الروح بالنفس ، وربطهما بالجسد .. فما بين المساواة التامَّة بين الروح والنَّفس ، وبين جعل الروح والجسد داخل مفهوم النَّفس ، أبحرت كلُّ الرؤى الفلسفية والتفسِّيريَّة لكتاب الله تعالى ، والتي تُكوِّن الموروث الفلسفي والتفسيري لهاتين المسألتين ..

في بحثنا هذا سنخلع كلَّ التصوُّرات السابقة الموروثة بالنسبة لمسألتي الروح والنفس ، لأنهما – كما سنرى – موروثات فكرية لم تُستنبط من كتاب الله تعالى ... وسنبحر في القرآن الكريم لاستنباط معاني هاتين المسألتين ، ودلالاتهما ، وحدودهما ، التي تميّزهما ..

وأقول لمن سيستغرب ما سنتوصَّل إليه .. إنَّك تُعاير دلالات كتاب الله تعالى على تصوُّرات تاريخيَّة تحسبها عين المنهج .. فحينما يُقدَّم برهانٌ من كتاب الله تعالى بالنسبة لمسألةٍ ما ، يجب على كلٍ من يعتبر نفسه مؤمناً بالله تعالى وبكتابه الكريم ، أن يُعيد تقييم تصوُّراته بالنسبة لهذه المسألة على معيار هذا البرهان ، وإلا فعصبيته المذهبية أكبر من عصيَّته لله تعالى ولكتابه الكريم ، وهذا من أكبر أوجه الشرك ..

وكما قُلنا في المقدِّمة .. سننطلق في تعريف المسألة المدروسة من جميع مشتقَّات الجذر اللغوي ، الذي تفرعت عنه الكلمات التي تصف هذه المسألة في كتاب الله تعالى ، وبحيث تكون النتيجة المستنبطة موافقة لدلالات جميع النصوص القرآنية الحاوية على الدلالات المتفرعة عن هذا الجذر اللغوي ..

ولنبدأ برسم صورتي الروح والنَّفس كما يُصوِّرهما لنا القرآن الكريم ..

١ – الروح ينتمي إلى عالم الأمر ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
[الإسراء : ٨٥]

فقوله تعالى **﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾** هو إجابة لقوله تعالى **﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾** ، شأنه شأن جميع الأجوبة القرآنية للعبارات القرآنية التي تبدأ بكلمة **﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾** .. ونهاية الآية الكريمة **﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾** تُبيِّن لنا أنَّ انتماء الروح لعالم الأمر ، يجعلنا لا نعلم عن الروح إلاّ القليل الذي نتدبَّره من خلال آيات كتاب الله تعالى التي تحوي مشتقَّات الجذر (ر ، و ، ح) ..

وهذه الآية الكريمة لا تعني (كما يتوهَّم الكثيرون) أنَّ البشر لا يمكنهم أن يعلموا أيَّ علمٍ عن الروح .. فالقرآن الكريم الذي يأمرنا الله تعالى بتدبُّره ، روحٌ من أمره جلَّ وعلا ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى : ٥٢]

٢ – الروح مسألة مستقلَّة عن مسألة الحياة الجسديّة ...

يتصوَّر معظم الناس أنَّ الحياة ترتبط بالروح ، فأينما وُجدت الحياة الجسديّة – حسب تصوُّرهم – وُجد الروح .. إنَّ مثل هذه التَّصوُّرات تنبع من مفاهيم مغلوطة ، لا يُثبتها القرآن الكريم ولا العلم ..

إنَّ إحياء الشيء – بشكل عام – هو إخراجه من حالة الموت إلى حالة الحياة ، فالحياة هي النمو والتفاعل مع الوسط المحيط ، ولا يعني إحياء الشيء أنَّ روحاً قد ألقي فيه ..

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٩]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ [الأنعام : ٩٥]

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ [النحل : ٦٥]

نرى من خلال هذه الآيات الكريمة أنَّ إحياء القرية الخاوية يكون بعودهما إلى الحياة ، وأنَّ الحب والنوى تحمل بذرة الحياة وهي في حالة جامدة ميتة ، وأنَّه عند تأمين المياه والظروف المادية المناسبة للإنبات تنمو معطيات النبات الحي .. ونرى أنَّ إحياء الأرض

يكون بإنزال الماء عليها .. فالآيات الكريمة لا تنصُّ على أنَّ إحياء النبات والأرض يكون بإلقاء الروح فيهما ..

٣ – الروح في القرآن الكريم أتى مُضافاً لله سبحانه تعالى ، ومرتبطاً بأمر الله تعالى ، وبجبريل عليه السلام ، وبمنهج الحق الذي طلب الله تعالى من الإنسان اتِّباعه ..

فلا يوجد نصٌّ قرآنيٌّ يدلُّ على أنَّ الروح أُلقي على باقي المخلوقات (عدا الإنسان) .. وهذه هي جميع النصوص التي وردت فيها كلمة الروح ومشتقاتها ..

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٨٧]

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٢٥٣]

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١]

﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [المائدة : ١١٠]

﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧]

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩]

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل : ٢]

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [النحل : ١٠٢]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥]

﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧]

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١]

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٤]

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة : ٩]

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢]

﴿ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر : ١٥]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢]

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨ – ٨٩]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنۡهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢]

﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤]

﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ [النبأ : ٣٨]

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ﴾ [القدر : ٤]

٤ – إضافة الروح – المرتبط بالإنسان – لله تعالى في كتابه الكريم ، لا تعني أنَّ هذا الروح هو جزءٌ من الذات الإلهية ..

علينا أن نعلم أنَّ المضاف إلى الله تعالى نوعان :

أ – صفات لا تقوم بأنفسها ، وليس لها كيان مستقل بذاتها ، كالكلام ، والسمع ، والبصر ، والعلم و ..... فهذه الصفات إذا أُضيفت لله سبحانه وتعالى ، تكون إضافة صفة لموصوفٍ بها ، فعلم الله تعالى وحياته وقدرته و ..... هي صفات غير مخلوقة ، وهي قديمة قدم الله تعالى ..

ب – أعيان منفصلة عن الذات الإلهية ، كالروح ، والرسول ، والعبد ، والبيت ، والناقة ، والأرض ..

﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ ﴾ [النساء : ١٧١]

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [الأعراف : ٧٣]

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦١]

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ [هود : ٦٤]

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩]

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠]

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١]

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦]

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ [الجن : ١٩]

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ [الشمس : ١٣]

فهذه الأعيان خصَّها الله تعالى بأن أضافها إلى اسمه العظيم ، إضافةً تبيِّن خصوصية إيجادها ، وخلقها ، وصنعها واختيارها ، وحبه لها ، فهي تؤدي إلى الله تعالى ، وإلى رؤية نور منهجه العظيم ..

وهكذا فإنَّ إضافة كلمة الروح إلى الله تعالى ، لا تعني أنَّه الروح جزءٌ منه جلَّ وعلا .. ومن تصوَّر ذلك فتصوُّره ملوث بمقياس التمثيل ، الذي تعوّده العقل من صفات المخلوقات التي يقع عليها الحس .. فجميع الأشياء المخلوقة التي يقع عليها الحس ، مكوَّنة من أجزاء ، ويحيط بها المكان والزمان .. وهو يريد فرض تصوُّراته الملوَّثة بصفات المخلوقات على الخالق سبحانه وتعالى ..

والآية الكريمة ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾ [النساء : ١٧١] لا تعني أنَّ روح عيسى عليه السلام جزءٌ من الله تعالى .. فالله تعالى لا يتكوَّن من أجزاء ، ولكن تعني أنَّ هذا الروح مُعطى من الله تعالى ، كما هو الحال في روح آدم عليه السلام ..

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩]

وهذه المسألة ليست مسألة تأويل وتوليف .. إنها حقيقة يبيّنها القرآن الكريم ، ففهم هذه الآية يكون ضمن الإطار الذي يحيط بجميع الآيات الكريمة التي تصوِّر جوانب هذه المسألة ، وهذه الآيات الكريمة تقودنا إلى فهم هذه الآية الكريمة بهذه الصورة ..

فعندما يخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم عن أمرٍ بأنه من الله تعالى ، فلا يعني ذلك أنَّ هذا الأمر هو جزء من ماهية الله سبحانه وتعالى عن ذلك ، وذلك قياساً على بعض

تصوُّراتنا المادية ، وإنما يعني أنَّ هذا الأمر يعود في خصوصيته وحرية التَّصرُّف به إلى الله تعالى ..

﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٢]

﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا ﴾ [الحشر : ٨]

وحتى في تصوُّراتنا المادية المحكومة لقوانين المكان والزمان ، عندما يقول أحدنا للآخر خذ مني هذا الشيء ، فلا يعني أنَّ هذا الشيء هو جزء من ماهية مُعطيه .. إنَّ ما يعنيه ذلك هو أنَّ هذا الشيء يعود في خصوصيته وملكه وحرية التَّصرُّف به إلى المُعطي ..

٥ – الروح في القرآن الكريم يُوصف بصيغة المذكَّر ..

﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم : ١٧]

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣]

﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ ﴾ [النبأ : ٣٨]

وصيغة المؤنث (كصيغة خطاب وليس كذات) في الصورتين القرآنيتين التاليتين ، هما للملائكة وليست للروح ..

﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾ [المعارج : ٤]

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر : ٤]

وهذا لا يعني أنَّ الروح يتَّصف بالذكورة (زوج الأنوثة) .. فالروح – كما رأينا – ينتمي إلى عالم الأمر ، وموجودات عالم الأمر ليست أشياءً ، كما رأينا في النظرية الثالثة (الحق المطلق) وفي كتاب (قصة الوجود) .. وبالتالي فموجودات عالم الأمر ليست محكومة لقانون الزوجيَّة ..

٦- مشتقات الجذر (ر ، و ، ح) في القرآن الكريم ، تدور حول محور القربى من الله جلَّ وعلا ، والصلة معه ..

لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

إنَّنا نرى أنَّ العبارة القرآنية **﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾** تعني وأيَّدهم بمددٍ منه جلَّ وعلا ، وقرَّبهم إليه .. فبعد الإيمان حصلوا على هذا المدد ، فلا يمكن لعاقل أن يتصوَّر بأنَّ معنى الروح هنا هو سرُّ الحياة التي تدخل الجسد فتجعله حيًّا ..

ولننظر إلى الصورة القرآنيَّة التالية ..

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢]

إنَّنا نرى أنَّ العبارة القرآنية **﴿ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾** تعني المدد الإلهي الذي تحمله الملائكة لبعض العباد **﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾** ، كي ينذروا ويدعوا إلى وحدانية الله تعالى ..

والرَّوْحُ من مشتقَّات الجذر (ر ، و ، ح) ، وبالتالي تدور دلالاته في إطار معنى هذا الجذر اللغوي ..

﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧]

إننا نرى أنَّ العبارة ﴿ رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ تعني صلة الله تعالى ومدده والقربى منه .. وضمن هذا الإطار من المعنى تُفهم دلالات كلمة ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ في الصورة القرآنية التالية ..

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨ – ٨٩]

وجبريل عليه السلام ، هو الصلة الأمينة بين الله تعالى وعباده ، وبالتالي يُوصف بالروح الأمين ..

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٤]

وكلُّ مولودٍ يولد على الفطرة النقيَّة الطاهرة .. هذه الفطرة هي الروح الذي ينفخه الله تعالى في هذا المولود ، بعد تسويته إنساناً كاملاً ..

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ – ٩]

وهكذا فنفخ الروح في آدم عليه السلام كان بعد تسويته إنساناً كاملاً ، ولا يعني نفخ الروح فيه إعطاءه سرَّ الحياة في جسده ، كما يتصوَّر الكثيرون ..

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩]

فالعبارة القرآنية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ ، تعني اكتمال خلقه كإنسان ، ودخول نفسه في جسده .. والعبارة القرآنية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ تعني وأعطيته مدداً منِّي وصلةً وقربةً إلي ..

ولمّا كانت كميَّة الروح الذي نُفخ في عيسى عليه السلام أكبر من الذي نُفخ في آدم عليه السلام ، حيث عيسى عليه السلام روحٌ من الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .. لذلك نرى أنَّ عيسى عليه السلام وُلد نبيّاً .. بينما آدم عليه السلام أتته النبوَّة – كما سنرى في بحث الغيب والشهادة – بعد توبته التي قبلها الله تعالى منه ، بعد أن عصى الله تعالى في جنّة الاختبار ..

وهكذا نرى أنَّ الروح هو الصلة مع الله تعالى ، والقربى منه ، والمدد الذي يحصل عليه المؤمنون نتيجة صدقهم وإخلاصهم لله تعالى .. وبالتالي فالكافر يفقد هذا الروح حتى الذي نُفخ فيه عند ولادته ، نتيجة ابتعاده عن الله تعالى ..

٧ – إحياء عيسى عليه السلام للموتى بإذن الله تعالى ، لا يعني أنّه كان ينفخ الروح في من كان يحييه بإذن الله تعالى ، إنما يعني أنّه كان ينفخ في الجسد فيدخل فيه سرّ الحياة بإذن الله تعالى ..

٨ – يُبيِّن الله تعالى أنَّ النفس تنتمي إلى عالم الخلق ..

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : ٥١]

٩ – يُبيِّن لنا القرآن الكريم أنَّ النفس مستقلّةٌ عن الحياة وعن الجسد وعن عالم المادة والمكان والزمان ..

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]

فالنفس يتوَّفاها الله تعالى في منامها (وحين موتها) ، وعلى الرغم من ذلك نرى أنَّ جسد الإنسان – أثناء النوم – لا يفقد عنصر الحياة ، ويبقى ماثلاً أمام أعيننا على الرغم

من خروج النفس منه .. فلو كان الجسد جزءاً من النفس لتوفاه الله تعالى حينما توفّى النفس .. وفي هذا أكبر دليل على أنَّ النفس مسألة مستقلّة عن الجسد وحياته ..

والصورة القرآنيَّة التالية تؤكِّد هذه الحقيقة ..

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]

فالملائكة تتوفّى الأنفس ، وتبقى الأجساد التي نضعها في القبر للدود والتراب ..

١٠ – لمّا كانت النفس تنتمي إلى عالم الخلق ، ولمّا كانت النفس مجرّدة عن الجسد وعن عالم المادّة والمكان والزمان (عالم الشهادة الحسّي) ، فإنَّ النفس تنتمي إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، وبالتالي بماهيّتها المجرّدة تنتمي إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، ولكنّها تصبح محكومةً لقوانين عالم المادّة والمكان والزمان حينما تدخل الجسد الحيّ ، الذي يفرض عليها قوانين عالمه ..

لذلك لا نحسُّ بالزمان ولا بالمكان أثناء نومنا ، أي حين خروج أنفسنا من أجسادنا ، لأنَّ الله تعالى يتوفّى هذه الأنفس ، وبعد يقظتنا وعودة أنفسِنا إلى أجسادنا نحسُّ بالزمان والمكان نتيجة خضوع هذه الأنفس لقوانين عالم المادّة والمكان والزمان الذي ينتمي إليه الجسد ..

وكذلك الأمر في الموت ، فلا نحسُّ بالزمن أبداً ، لأنَّ أنفسنا تكون بلا أجسادٍ ، أي تكون خارج عالم المادّة والمكان والزمان ..

﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٩]

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ – ١١٤]

١١ – النفس في القرآن الكريم أتت مضافة إلى الله تعالى ، ومرتبطة بالإنسان ، وتعلُّقها بالإنسان مستقلٌّ عن إضافتها لله تعالى .. وهذه هي النصوص القرآنية الكريمة التي أتت فيها النفس مضافة لله تعالى ..

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨]

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٣٠]

﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦]

﴿ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ [الأنعام : ١٢]

﴿ فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ ﴾ [الأنعام : ٥٤]

﴿ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [طه : ٤٠–٤١]

أمّا باقي النصوص القرآنية التي وردت فيها كلمة النفس ومشتقّاتها ، فقد أتت مرتبطةً بالإنسان ، ولا يُوجد نصٌّ قرآنيٌّ يدلُّ صراحةً على أنَّ النفس ترتبط بباقي المخلوقات ..

١٢ – النفس تشتهي وتأمر بالسّوء ، وتموت وتذوق الموت (أثناء الخروج من الدنيا) ..... أمّا الروح فمجرَّدٌ تماماً عن هذه المسائل ..

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ ﴾ [آل عمران : ١٤٥]

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١٥١]

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥]

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف : ١٢]

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ١٧]

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ [النجم : ٢٣]

ولم يرد أيُّ نصٍّ قرآني يدلُّ على أنَّ الروح المرتبط بالإنسان يموت ، أو يزهق ، أو يشتهي ، أو يأمر بالسوء ، لأنَّه مجرَّد عن عالم المادة والمكان والزمان ، وينتمي إلى عالم الأمر ..

١٣ – النفس تُوصف بصيغة المؤنَّث ، وهي زوج الجسد الحي ..

﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : ١١١]

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [العنكبوت : ٥٧]

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان : ٣٤]

ولَّما كانت النفس تنتمي إلى عالم الخلق (غير المحسوس) ، فإنَّها تخضع لقانون الزوجيّة ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .. وبالتالي لها زوج آخر ، هو آليتها للإطلال على عالم الوجود المخلوق المحسوس ، وهذا الزوج هو الجسد الحي .. وفي الآخرة تعود النفس للتزاوج مع زوجها الجسد (ولكن

ليس كجسد الدنيا) ، التي تركته حين موتها .. ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ [التكوير : ٧] ..

١٤ – رأينا أنَّ الروح يخصُّ الجانب الإيماني بالإنسان ، حيث يتفاضل البشر عن بعضهم بعضاً بكميّة الروح فيهم .. ونرى – من خلال تبيان القرآن الكريم – أنَّ النّفس خاصَّةٌ بالإنسان ، من بين جميع المخلوقات .. فلا يوجد نصٌّ قرآنيٌ يشير إلى أن المخلوقات الأخرى تملك أنفساً .. بل هناك نصوصٌ قرآنيةٌ صريحة تبيِّن أنَّ النّفس مسألة خاصَّة بالإنسان ..

﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ [المائدة : ٣٢]

﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف : ٣٥]

﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ [ق : ٢١]

فلو كانت الذبابة نفساً لكان حكم من يقتلها كحكم من يقتل الناس جميعاً ، فقوله تعالى ﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا ﴾ يشمل أيَّ نفسٍ ، والحيوان تحكمه الغريزة بعيداً عن الأمر بالسوء ، وبغير السوء ، فقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ يشمل جنس الأنفس .. والحيوانات لا تجيء يوم القيامة مع كلٍّ منها سائقٌ وشهيد ..

١٥ – العقل والفكر النظري المجرَّد ، اللذان يميِّزان الإنسان ، يرتبطان بالنَّفس المجرَّدة مباشرةً ، ولا يرتبطان بأي جزء مادي من الجسد ..

إنَّ باقي المخلوقات المحسوسة ، لا تستطيع استنباط أحكامٍ مجرَّدة ، مستقلَّة عن إطار المادة والمكان والزمان .. فالعقل هو تفعيل قدرة الإنسان لاستنباط ما وراء الظواهر

الحسية ، وهو ليس جزءاً محسوساً في الإنسان .. لذلك لم ترد كلمة العقل – في القرآن الكريم – كاسم ولا مرّة ، وإنَّ ما ورد هو مشتقات هذه الكلمة ، والتي جاءت جميعها بصيغ الأفعال (عقلوه ، تعقلون ، نعقل ، يعقلها ، يعقلون) ..

لذلك نرى أنَّ الله تعالى يُشبّه البشر الذين لا يعقلون بالأنعام ، لأنّهم لم يستنبطوا الحقيقة التي تكمن ما وراء هذه الظواهر الماديّة ..

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤]

لقد وردت مشتقّات كلمة العقل في القرآن الكريم لتدلَّ على استنباط حقائق الأشياء التي تكمن وراء ظواهر المادّة المحسوسة ، هذه الظواهر التي تشترك في رؤيتها جميع المخلوقات التي لها إطلالة على هذا العالم الماديّ .. ولكنَّ الإنسان الذي اُختصّ بالنفس (وبالتالي بامتلاكه للعقل) عليه إدراك الحقائق الكامنة وراء المحسوسات ..

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٢]

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨]

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

إنَّ وفاة النفس تعني فقدانها للإطلالة على عالم المادّة والمكان والزمان ، وبالتالي فقدانها للتفاعل مع هذا العالم من شهوة وهوىً وَ ..... فنفس الإنسان تغيب وتحضر إلى هذه الدنيا بالنوم والاستيقاظ ، وتغيب نهائيّاً بالموت ..

وبالانطلاق من المقدّمات السابقة ، نصل إلى نتيجة مفادها أنَّ الإنسان هو التحام عنصرين هما النفس والجسد ..

الإنسان = نفس + جسد

فعندما يتوفّى الله تعالى نفس الإنسان (في حالة النوم) ، يبقى زوجها الآخر (وهو الجسد بحياته ونموّه) ماثلاً أمام أعيننا ..

وهكذا فوفاة النفس هي فقدانها للإطلالة والتفاعل مع عالم المادّة والمكان والزمان ، وذهابها إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان .. ويكون موت الإنسان بانفصال نفسه عن جسده انفصالاً نهائيّاً ، وخروج الحياة من جسده خروجاً نهائيّاً .. أي بموت الزوجين اللذين يكوّنان ذات الإنسان (النفس والجسد) ..

وفي الآخرة ، تعود الذات الإنسانيّة للوجود ، وذلك بالتحام النفس بجسدٍ جديدٍ يُخلق بحيثيّات تختلف عن حيثيّات الجسد في الدنيا ..

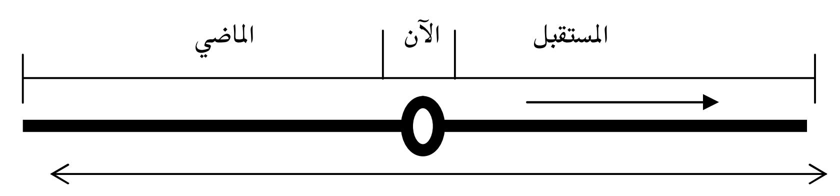
﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ [التكوير : ٧]

إنَّ مسألة بقاء النفس في عالم ما فوق المادّة والمكان وعدم إطلالتها وإحساسها بقوانين الزمن لعالم المادّة بعد موتها (في عالم البرزخ) ، هي مسألة يبيّنها القرآن الكريم ..

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ – ٥٦]

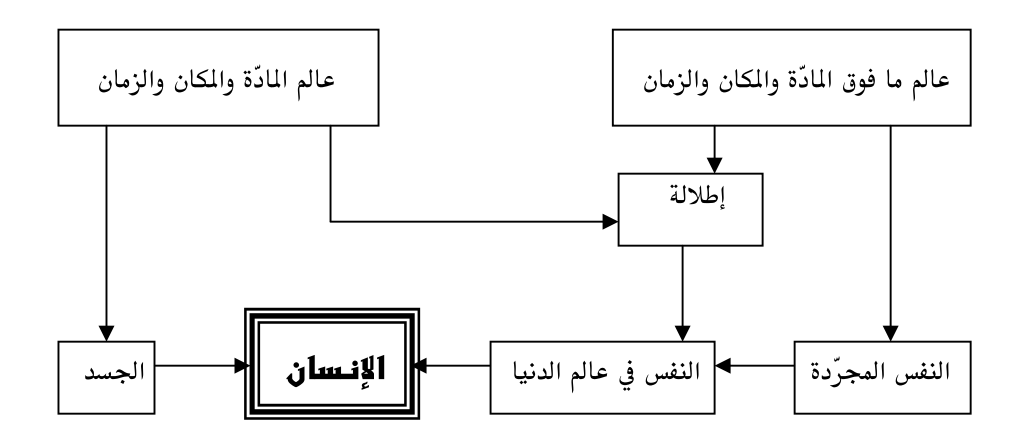
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : ٤٥]

إذاً .. **النفس الإنسانيّة وهي داخل الجسد = النفس المجرّدة + إطلالة على عالم المادّة والمكان والزمان** .. وبالتالي موت النفس (أو وفاتها) = فقدانها لهذه الإطلالة = رجوعها إلى عالمها (ما فوق المادّة والمكان والزمان) ..



: إطلالة النفس الآنيّة على عالم المادّة   : النفس المجرّدة

ويمكن تمثيل النتائج التي توصّلنا إليها بالمخطط التالي ..

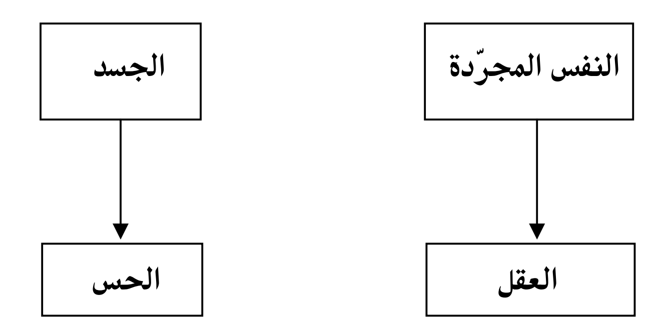


لنقف الآن عند إدراك النفس للأحداث ، ومراحل المعرفة التي تمرّ بها النفس أثناء إدراكها للعالم الخارجي (خارج الجسد) ..

إنَّ جميع الكائنات الحيوانيّة في هذا العالم المادّي المحسوس والمحكوم لقوانين المكان والزمان ، تملك منافذ حسيّة تطلّ منها على هذا العالم ، وتتفاعل مع ما يحيط بها ، وفق تفاعل مدركاتها الحسيّة مع غرائزها المودعة فيها ..

فسلوك الحيوان وتصرّفاته ناتجة عن تفاعل الغريزة الفطريّة المودعة فيه مع ما تأتي بـه الحواس من عالم المادّة خارج الجسد .. ولا يمكن لهذه الغريزة وللذات الحيوانيّة أن تستنتج من المدركات الحسيّة الجزئيّة أفكاراً كليّة ، واستنتاجاتٍ تتعلّق بالأسباب والمسببات التي تقف وراء ما أتت به الحواس ..

أمّا الإنسان فبالإضافة إلى أنّه يملك بداخله غريزةً وفطرةً تتفاعلان مع العالم الحسّي الخارجي ، فإنّه يملك فوق هذا كلّه عقلاً يرتّب ويدرك الأسباب والمسبّبات للمدركات الحسيّة ، ويستنتج منها أفكاراً كليّة ومدركات عقليّة ..



إنَّ مصادر المعرفة الإنسانيّة في الحياة الدنيا هي الحسّ والعقل ، فالأحاسيس تنقل الموادّ الأولى للمعرفة من الخارج إلى داخل النفس ، ويقوم العقل بترتيبها ، وإدراك الاتّفاقات والاختلافات بينها ، وإدراك الأسباب القائمة بين هذه المحسوسات وعلاقاتها ببعض ، ويتصوّر العقل ترتيبها المكاني والزماني ، ليكوّن منها إدراكات عقليّة مستقلّة

عن صور الأشياء المحسوسة .. وما كان ذلك لولا ارتباط العقل بالنفس التي تنتمـــي إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ..

فالمعرفة الإنسانيّة تحتاج إلى :

١ – أحاسيس من عالم المادّة ، وهذه مهمّة الحواس المرتبطة بالجانب الجسدي المادّي للإنسان ، وهو الزوج الآخر للنفس ، ولا علاقة للنفس المجرّدة بذلك ، إنّما تطلّ النفس على هذا العالم المادّي عبر آليّات جسديّة (عين ، أذن ، أنف .....) ..

٢ – عقل يرتّب ويدبّر ويدرك الأسباب والمسبّبات بين هذه الأحاسيس ، ليســتنتج منها أحكاماً كليّة ، وهذا العقل يرتبط بالنفس ، وفي هذه المسألة يتميّز الإنســان عــن الحيوان ..

وما تفاعل الإدراك الحسّي مع العقل من أجل الوصول إلى المعرفة الإنسانيّة إلاّ نتيجة لتفاعل الجسد المادّي مع النفس المجرّدة .. إنَّ لكلٍّ من الحسّ والعقل ماهيّته الخاصّة به ، ولكنّهما يعملان بتوافق تام في إطار معرفة النفس الإنسانيّة ..

وهكذا فإنَّ إدراك النفس للمعرفة يكون بتفاعل عنصرين مستقلّين تماماً .. **الحـــواس** المرتبطة بالجانب الجسدي المادّي المحكوم لقوانين المكان والزمان من جهـــة ، **والعقـــل** المرتبط بالجانب المجرّد للنفس الإنسانيّة ، وغير المحكوم لهذه القوانين من جهةٍ أُخـــرى ، ذلك العقل الذي يُدرك في الإدراكات الحسيّة معقولاتها ..

فإدراك النفس الإنسانيّة للمعرفة يكون باجتماع عنصرين ، لكلٍّ منهما عالمه الخاصّ به ، عنصر من عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، وعنصر من عالم المـــادّة والمكـــان والزمان .. وإنَّ إهمال أحد عنصري المعرفة الإنسانيّة (العقل ، الحواس) أثناء البحـــث عن حقائق الأشياء ، يوازي إهمال أحد زوجي حياة الإنسان (النفس ، الجسد) أثنـــاء البحث في حقيقة الإنسان ..

إنَّ الحسّ المرتبط بالجانب الماديّ الذي هو آليّة إطلالة النفس على هذا العالم ، يدرك الصورة في المادّة ، وجميع الصفات الماديّة الظاهرة التي تقع تحت سيطرته .. أمّا العقل المرتبط بالجانب المجرّد للنفس ، فيدرك المعنى والحقيقة (على قدر ما يستطيع) التي تنبض في صورة المادّة التي نقلها الحس ..

.. وهكذا ..

١ – تنقل الحواس من عالم المادّة المحيط بالنفس البشريّة صوراً مفكّكة متتابعة ، ومن ثمَّ يقوم العقل بتثبيت هذه الصور الحسيّة وتجميعها وركزها في خزانته المصوِّرة ، التي تحوي ما يدركه ويجمعه الحس من هذه الصور ..

٢ – يقوم العقل بعد ذلك بمرحلة المقارنة بين هذه الآثار الحسيّة التي وردت إليه ، ومعرفة علاقاتها وعللها وأسبابها ، أي أنّه يُدرك من هذه المحسوسات ما لا يُحسّ ، ليكوّن منها مدركات عقليّة يضعها في خزانته الحافظة ..

٣ – بعد ذلك يبدأ العقل بمرحلة التأمّل النظري في ما تحويه خزانتيه المصوِّرة والحافظة ، من أجل الوصول إلى استنتاجات وأحكام إنشائيّة من ذاته ، لا يعتمد فيها على الإحساس والتجربة ..

وبما أنَّ جميع الظواهر المخلوقة في هذا الكون ، والتي يمكن للنفس إدراكها ، هي ظواهر ماديّة ، ولها متعلّقاتها من المادّة ، وهي محكومة لقوانين المكان والزمان ، وتدخل النفس عن طريق الحواس المرتبطة بالجانب الجسدي الماديّ كآليّة لإطلالة النفس ، والمحكوم لقوانين المكان والزمان ، وبما أنّ عالم المادّة متغيّر ، ويُوجد لكلِّ شيءٍ نقيض ... لذلك يمكن للنفس أن تتصوَّر خطأ أو نقيض أيِّ مسألة متعلّقة بعالم المادّة والحس ..

فمثلاً يمكن للنفس الإنسانيّة أن تتصوّر أنّ ارتفاع درجة الحرارة يؤدّي إلى انكماش أقطار الجسم ، في الوقت الذي تصوّرت فيه أنّ ارتفاع درجة الحرارة يؤدّي إلى تمدّد

أقطار هذا الجسم ، دون التعرّض إلى ارتباكٍ عقليٍّ ، لأنَّ هذه المقدّمات ونتائجها تنتمي إلى عالم المادّة والمكان والزمان الذي يحوي المسائل المتناقضة ..

ومن هذه الزاوية يدخل الشيطان إلى النفس البشريّة ، وهذه هي الساحة التي يمكن للنفس أن تضلّ فيها ، وفي هذه الساحة يقع الجهل وما ينتج عنه من معصيةٍ وتصوّراتٍ خاطئة تحكم البشر ، وسبب ذلك أنَّ النفس البشريّة رهينة — في هذه الساحة — للمادّة وتغيّراتها .. وإنَّ غطاء المادّة يحجب النفس المجرّدة عن تذكّر الحقائق الروحيّة الثابتة ، التي هي فوق عالم المادّة وقوانينه .. لذلك في هذه الساحة لا يرتبك العقل عند تصوّر أيّ قضيّة مهما كانت خاطئة .. وجميع الفلسفات الإلحاديّة وما يدور في فلكها ، لا تخرج مقدّماتها ونتائجها وتوليفاتها عن هذه الساحة ..

وفي الآخرة يُرفَع هذا الغطاء عن النفس ، فترى الأشياء على حقائقها ..

﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ [ق : ٢٢]

أمّا المبادئ العقليّة النظريّة المرتبطة بالفكر النظري المجرّد ، والنابعة من العقل المرتبط بالجانب المجرّد (غير المحكوم لقوانين المادّة والمكان والزمان) للنفس البشريّة ، فلا يمكن تصوّر نقيضها ، لأنَّ عالم التجريد الذي تنتمي إليه هذه المبادئ والأفكار ثابتٌ لا يحكمه المكان والزمان ، وبالتالي لا تجتمع فيه المتناقضات ..

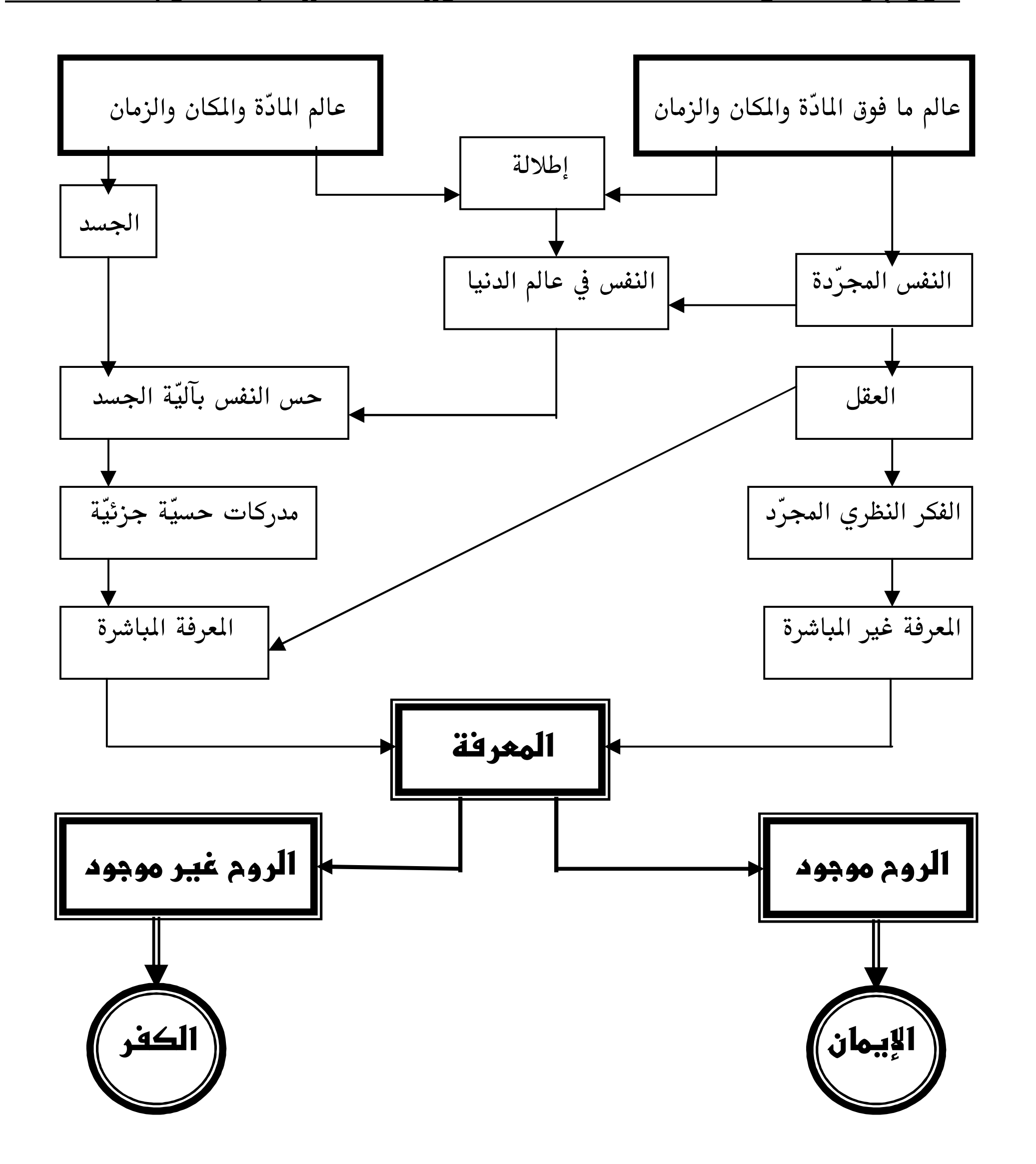
فمثلاً لا يمكننا ولا بأيٍّ شكلٍ من الأشكال ، أن نتصوّرَ أنّ الواحد (كقيمة مجرّدة عن أيٍّ تعلّقٍ مادّي) أكبر من الاثنين .. إنّ محاولة تصوّر ذلك تضع النفس البشريّة في ارتباك عقلي ، يختلف عنه حين تصوّرت هذه النفس أنّ ارتفاع درجة الحرارة يؤدّي إلى انكماش (وتمدّد) أقطار الجسم ..

وهكذا نرى أنّ المعرفة الإنسانيّة الناتجة عن تفاعل النفس المجرّدة مع الجسد في عالم الدنيا ، لها ثلاثة أعماق :

١ – الحسّ المادّي : ويتعلّق بالحواس المرتبطة بالجانب الجسدي المادّي ، وفي هذا العمق يشترك الإنسان والحيوان ..

٢ – معرفة النفس : وهي ناتجة عن اجتماع الفكر النظري المجرّد للعقل مع المدركات الحسيّة الجزئيّة ، وعن تفاعلهما مع بعضهما بعضاً .. وفي هذا العمق يشترك جميع البشر مؤمنين وكافرين ، ويتميّزون عن باقي المخلوقات ..

٣ – العمق الروحي : وهو الإدراك الإيماني للحقيقة الإلهيّة الكامنة وراء المعرفة .. وفي هذا العمق يمتاز المؤمنون على الكافرين ..



.. إنَّ إبراهيم عليه السلام هو من أصحاب الأرواح الصافية والضمائر النقيّة ، لذلك نرى أنّه حافظ على صفاء عقيدته ونقاء روحه بعيداً عن تأثير المجتمع الوثني الذي كان يحيط به .. فرحلته إلى معرفة الحقيقة مرّت عبر أعماق المعرفة الإنسانيّة الثلاثة ، لأنّه امتاز عن الكثير من جيله بامتلاكه العمق الثالث (الروح) ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥ – ٧٩]

لقد نقلت حواسّه عليه السلام صوراً لظواهر حسيّة يدركها هو وغيره ، وهي رؤيته للظواهر الواردة في هذه الآيات الكريمة (الكوكب ، القمر ، الشمس) ، وهذا متعلّق بالعمق الأوّل للمعرفة الإنسانيّة (الحسّ المادّي) ..

بعد ذلك استنتجت معرفته النفسيّة (العمق الثاني) من هذه الظواهر الحسيّة مدركاتٍ عقليّة ، مرتبطة بالتصوّر المادّي للأشياء ، فاستنتجت أنّ هذه الظواهر الحسيّة هي ربّه .. وهذا الإدراك العقلي المرتبط بالمادّة ، اعتنقه الكثير من جيله ، لذلك كانوا يعبدون الأصنام ، ومنهم أبوه ..

ولكنّ روحه (العمق الثالث) لم يستسغ هذه الإدراكات العقليّة المادّية ، فهذا الروح الصافي الذي افتقده الكثير من أبناء جيله قاده إلى إدراك ما لم يدركه غيره .. فهذا الروح فوق الجانب العقلي المرتبط بالمادّة ، لذلك رفض كلّ إدراكاته العقليّة السابقة ، واستنتج إدراكاً روحيّاً خالصاً صافياً ، هو أنّ ربّه من خلق السماوات والأرض ، وأنّه يجب ألاّ يشرك به شيئاً ..

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى بعض البشر الذين يفتقدون هذا الروح ، لأنّهم لا يستخلصون من مدركاتهم العقليّة حقيقة الإيمان ، ولا تنسجم نفوسهم مع السِّرِّ والهدف الذي وُجدت الدنيا من أجله .. ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، لذلك يعيشون حياتهم الدنيا كالأنعام .. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمّد : ١٢] ..

إنَّ هوى النفس عند هؤلاء هو الهدف الذي يسعون إليه ، فهم لا يسمعون نداء الحق ، ولا يعقلون ذلك بأنفسهم ، وهذا ما جعلهم يفقدون الروح ، وبالتالي يصبحون كالأنعام ، بل أضلّ من الأنعام ، لأنّ الأنعام إن أُتيح لها امتلاك العمق الثاني للمعرفة (معرفة النفس) فلربما تتوصّل إلى حقيقة الإيمان والالتزام بمنهج الله تعالى ..

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٣ – ٤٤]

وفي نهاية هذا البحث نقول : قد يستغرب الكثيرون تعريف الروح الذي توصّلنا إليه ، عبر دراسة قرآنيّة منهجيّة ، تنطلق من جميع الصور القرآنيّة التي ترد فيها مشتقّات الجذر (ر ، و ، ح) ، ومن أنَّ دلالات هذه المشتقّات تدور داخل إطارٍ واحد من المعنى والدلالات .. إنَّ سبب هذا الاستغراب هو جعل الموروث المعرفي والتاريخي والتفسيري الذي بين أيدينا ، معياراً لدلالات كتاب الله تعالى ..

لقد رأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، وفي كتاب : المعجزة الكُبرى ، وعبر معيارٍ رقميٍّ لا يعرف الكذب والخداع ، صحّةَ استنباطنا لمعنى الروح في القرآن الكريم .. فقد تمَّ اكتشاف الأبجديّة القرآنيّة لأوّل مرّة في العالم ، حيث أُعطي كلُّ حرفٍ قيمةً عدديّة هي ترتيب مجموع وروده في القرآن الكريم ، وبعد حساب القيمة العدديّة للقرآن

الكريم ، تمَّ اكتشاف قانونين يحملهما القرآن الكريم في كلِّ حرفٍ من حروفه .. القانون الأوَّل هو أنَّ العبارات القرآنيّة المتكاملة في تصوير دلالات مسألة واحدة – وإن كانت متباعدة – يكون مجموع القيم العدديّة لحروفها من المضاعفات التامّة للعدد (١٩) دون زيادة أو نقصان .. والقانون الثاني هو أنّ العبارات القرآنيّة المتوازنة في المعنى والدلالات يكون مجموع القيم العدديّة لحروفها متساوياً تماماً ..

وقد رأينا أنَّ الآية الكريمة التي تصوّر السؤال وإجابته بالنسبة للروح ، تتكامل مع الآيات التي تليها ، والتي تتمحور بمجملها حول القرآن الكريم ، فمجموع القِيَم العدديّة للحروف المصوِّرة لهذا النصّ القرآني متعلّق بالوجه الإعجازي ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ .. وفي هذا دليل – كما رأينا في النظريّة الخامسة – على أنَّ حروف هذا النصّ تصوّر مسألة كاملة ، هي الروح القرآني ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ

أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٨٥ – ٩٣] = **٣٢٤٩ = ١٩ × ١٩ × ٩**

العبارة القرآنيّة ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ نراها تدخل في مسألةٍ كاملةٍ مع عبارات قرآنيّة تالية لها مباشرة ، تتمحور بمجملها حول القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم – كما يؤكّد الله تعالى – روحٌ من أمره جلّ وعلا ، وبالتالي فدلالات العبارة القرآنيّة ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ تدور في هذا الإطار ..

هذه الحقيقة نراها عبر عمقٍ إعجازيٍّ آخر ، هو عمق توازن القيم العدديّة (القانون الثاني) ، الذي يعكس توازن الدلالات والمعاني .. لننظر إلى الصور القرآنيّة التالية لنرى كيف أنّ توازن القيم العدديّة لحروفها ، هو نتيجةٌ لتوازن دلالاتها في مسألة واحدة ..

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [**الحجر : ٩**] = ١٨٨

﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ [الإسراء : ٨٥] = **١٨٨**

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [الزخرف : ٣] = **١٨٨**

وصحّة استنباطنا لمعنى الروح تتجلّى في مسألة عيسى عليه السلام ، فعيسى عليه السلام ملأَ اللهُ تعالى نفسَه مائة بالمائة بالروح : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ** ﴾ [النساء : ١٧١] ... ولذلك نرى أنّ العبارةَ القرآنيّةَ : ﴿ **رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ** ﴾ والمصوِّرة لحقيقة المسيح عيسى ابن مريم ، نراها تتوازن مع أيٍّ من العباراتِ السابقةِ التي تُصوِّرُ تنزيلَ القرآنِ الكريم كروحٍ من عندِ اللهِ تعالى ..

﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ = **١٨٨**

وهذه العبارةُ القرآنيّة : ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ، والتي تُصوِّرُ – كما نرى – ماهيّةَ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، والتي تتوازنُ مع العبارات القرآنيّة المُصوّرةُ لِجوهرِ الذكرِ والروحِ الذي نزّله الله تعالى في كتابٍ اسمه القرآن الكريم .. هذه العبارة القرآنيّة نراها تتوازن – أيضاً – مع جوهر تبشير الملائكة لمريمَ عليها السلام : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥] .. فماهيّةُ البشرى تُصوِّرُها العبارةُ القرآنيّةُ : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ..

﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ = **١٨٨**

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ = **١٨٨**

.. وجوهرُ الكلمةِ التي جُعِلَ منها عيسى عليه السلام ، تُصَوِّرُها لنا العبارتان القرآنيّتان : ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ ، ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ .. ولذلك نرى أنّ مجموعَ القِيَمِ العدديّةِ لِحروفِ هاتين العبارتين ، يُساوي تَماماً مجموعَ القِيَمِ العدديّة لحروفِ العبارة القرآنيّة : ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ، التي تُصوِّرُ لنا صفةَ عيسى عليه السلام وماهيّةَ جعلِه من كلمةِ الله تعالى ..

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ = ٩٦

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ = ٤٦

٩٦ + ٤٦ = **١٤٢**

﴿ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ = ١٤٢

.. وامتلاءُ نفسِ عيسى عليه السلام بالروح مائة بالمائة ، حيث أيّده الله تعالى دائماً وبشكلٍ كاملٍ بروح القدس ، يقتضي أنَّ كُلَّ ما ينطق به عليه السلام هو من كتابِ اللهِ سبحانه وتعالى الذي آتاه إيّاه في اللحظة التي نفخه كروحٍ في مريمَ عليها السلام ، وبالتالي لا داعي لنزول جبريل عليه السلام عليه ، فكلُّ ما ينطقُ به هو من الإنجيل .. وهذا ما يتجلّى في تساوي القيم العدديّة ما بين الكلمات : **﴿ عِيسَى ﴾** ، **﴿ ٱلرُّوح ﴾** ، **﴿ ٱلۡإِنجِيلَ ﴾** ..

﴿ عِيسَى ﴾ = ﴿ ٱلرُّوح ﴾ = ﴿ ٱلۡإِنجِيلَ ﴾ = ٣٤

.. ونقول أيضاً .. إنَّ انتماء النفس إلى عالمٍ مغايرٍ عن عالم الجسد ، واستقلالَها التامّ عن الجسد ، لا يعني – أبداً – أنّه لا تُوجَد علاقة تأثيرٍ متبادلٍ بين النفس (في حياتها الدنيا قبل الموت) ، وبين جسدها ..

إنَّ بعض الحالات النفسيّة التي يتعرّض لها الإنسان ، تؤدّي إلى بعض الأمراض الجسديّة .. وإنّ إخراج النفس من الجسد عن طريق التخدير الجراحي ، يكون من خلال موادٍّ يُحقن بها الجسد ..

والنفس حين وجودها في الجسد ، لا ترى إلاّ بآليّة العين الضوئيّة ، ولا تسمع إلاّ بآليّة السمع الصوتيّة ، ولا تحسّ بالعالم المادّي خارج الجسد إلاَّ بآليّات الإحساس الجسديّة ..

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ النفسَ وهي خارج الجسد (سواءٌ في منامها أم حين موتها) تفقد وجودها كذات ترى وتسمع وتذوق الألم واللذة ، في عالمها غير المادّي ..

فنحن في منامنا – حيث أنفسنا تكون خارج أجسادنا – نحسّ باللذّة والألم ، على الرغم من عدم تعرّض أجسادنا لتأثيرات ماديّة تؤدّي إلى هذه الأحاسيس ، وكذلك

نرى ونسمع ونتكلّم (في أحلامنا) دون استعمال آليّات الجسد الماديّة .. وحينما تكون أنفسنا خارج أجسادنا أثناء التخدير الجراحي لا نحسّ بالألم ، على الرغم من تعرّض أجسادنا للعمل الجراحي ، وبعد عودة أنفسنا إلى أجسادنا – بعد زوال تأثير مادّة التخدير – نحسّ بالألم ..

إنَّ الذي يحسّ بالألم واللذة (سواء في المنام أم في اليقظة) ليس الجسد ، إنّما هو النفس .. لكنَّ الجسد هو الباب الذي تعبر منه النفس إلى أحاسيسها إلى هذا العالم الماديّ عبر آليّات الحسّ المعروفة .. وهذا لا يعني أنَّ النفس محتاجة – وهي في عالمها غير الماديّ – إلى هذه الأبواب والآليّات الحسيّة ، حتّى تذوق الألم واللذّة ، وحتّى تسمع وترى ما هو داخل إطار عالمها غير المادّي ..

إنَّ لحركتنا في الحياة الدنيا وجهين متمايزين :

١ – حركة غير إراديّة ترتبط بحياة الجسد ، كحركة القلب ونبضه .. وهذه الحركة لا علاقة لها بالنفس ، بدليل استمرار هذه الحركة أثناء النوم ، حيث النفس خارج الجسد ، كما يؤكّد الله تعالى في كتابه الكريم ..

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢]

٢ – حركة إراديّة تقوم بها النفس عبر الجسد لتحقيق مرادها .. كأن يقوم إنسان بتحريك عضو من أعضائه لهدف يريده ..

وهكذا .. فالإنسان عبارة عن نفس .. وما الجسد أكثر من وعاءٍ لهذه النفس ، ومن آليّات ماديّة تستخدمها النفس في تفاعلها مع عالم المادّة والمكان والزمان .. فمرضى

القلب والكلى تُستبدَل أعضاؤهم المريضة بأعضاء من بشر آخرين ، أو بآلات مصنوعة تعمل على الطاقة تقوم بمهام هذه الأعضاء ..

ولذلك نرى أنَّ الله تعالى يخاطب الإنسان في القرآن الكريم على أنّه جوهرٌ نفسيٌّ مُمتَحَنٌ في عالم الدنيا .. فالنفس التي يتوفّاها الله تعالى في منامها ، يضعها الله تعالى مكان الإنسان في الصورة القرآنيّة ..

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ﴾ [الأنعام : ٦٠]



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

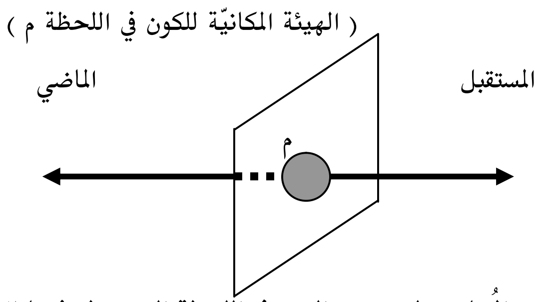
الغيب والشهادة

الغيب ضدّ الشهادة والإدراك ، وعالم الغيب هو العالم الآخر خارج عالم الشـهادة والإدراك الذي نعيش فيه .. فأيّ مسألة نشاهدها وندركها ونعلمها في لحظة ما ، تكون قد عبرت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالنسبة لنا في تلك اللحظة ..

وتحجبنا عن مشاهدة الغيب وإدراكه عدّة أغطية :

١ – غيب المكان : وهو كلٌّ ما غاب عن مشاهدتنا وإدراكنا مكاناً في اللحظة التي نعيش فيها .. إنَّ الجالس في غرفته المغلقة الأبواب والنوافذ ، يكون عالم الغيب المكـاني بالنسبة له هو كلّ الكون ما عدا غرفته .. وإذا فتح التلفاز الموجود في غرفته ، وشـاهد مكاناً آخر عبر بثٍّ حيٍّ ومباشر ، عندها يتّسع عالم الشهادة المكانية بالنسبة لـه علـى حساب عالم الغيب المكاني ، ليشمل المكان الذي ترصده عدسة الكاميرا المصوِّرة لذلك الحدث ..

وهكذا يكون كلٌّ من عالم الغيب المكاني ، وعالم الشهادة المكانيـة ، بالنسـبة لأي إنسان في لحظة ما ، عبارة عن عالَمَيْن مستقلَّيْن ، مجموعهما هو جسم هذا الكون ..

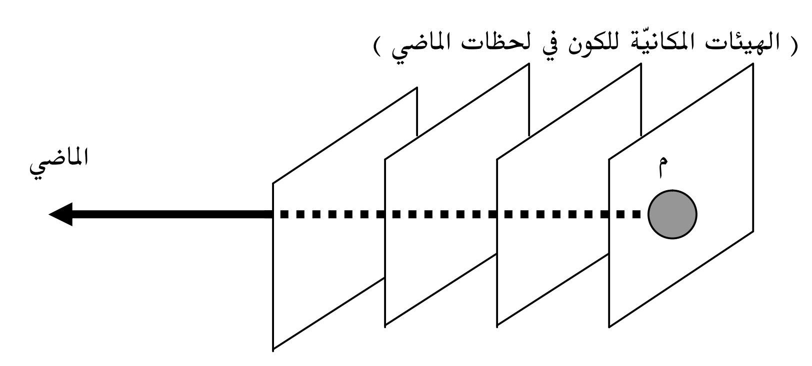


م : نقطة وجود المُشاهِد على محور الزمن في اللحظة التي ينظر فيها إلى الحادثة ..

● : عالم الشهادة المكاني للمُشاهِد في تلك اللحظة ..

▱ : عالم الغيب المكاني للمُشاهِد في تلك اللحظة ..

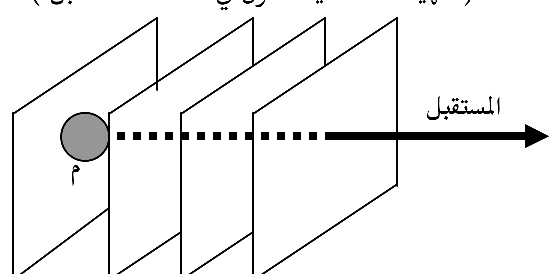
٢ – غيب الزمان الماضي : وهو كلُّ حدثٍ في الماضي ، غاب عن سمعنا ومشاهدتنا وإدراكنا ..



م : لحظة الآن على محور الزمن ..

- **غيب الزمان الحاضر** : وهو كلُّ حدثٍ يحدث الآن ، بعيداً عن مشاهدتنا وسمعنا وإدراكنا ، وهو ذاته غيب المكان ، لأنَّ الزمن الحاضر هو لحظة ، نعيشها الآن ..

٣ – غيب الزمان المستقبل : وهو كلُّ حدثٍ سيحدث بعد الآن ..



٤ – غيب الجوهر والحقيقة : وهو غيب الماهيَّة والجوهر والحقيقة ، لكلِّ حدثٍ نشهده في عالم الشهادة بالنسبة لنا .. إنه كلُّ ما غاب عنّا من إدراك حقيقة ما وراء الأحداث التي ندركها في عالم الشهادة الذي نعيش فيه ..

.. وينقسم الغيب بالنسبة لإمكانية إدراكنا إلى قسمين :

أ – الغيب المقيَّد : وهو الغيب الذي لا ندركه نتيجةً لوجود أسبابٍ ماديَّةٍ تحول بيننا وبين إدراكه كالمكان والزمان ، أو نتيجة عدم إدراكنا للقوانين التي تحكم المادة ..

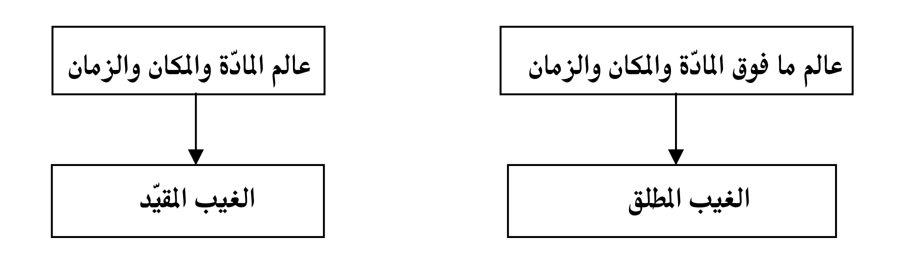
فلهذا الغيب قوانين ومقدّمات في عالم المادّة ، إن انطلقنا منها يمكننا – حسب إدراكنا لهذه المقدمات وقوانينها – كسر هذا القيد المادي الذي يحول بيننا وبين مشاهدة ما غاب عنّا ، والوصول إلى نتائج تُعدُّ – قبل اكتشافها – غيباً بالنسبة لنا ..

إنَّ الراصد الجوي الذي ينطلق من مقدّمات ماديّة معلومة ، من رطوبة وضغط جوي و ..... إلخ ، والذي يستند على قوانين مادية ثابتة بالتجربة ، يمكنه – حسب علمه بمقدمات هذه المسألة وقوانينها – الوصول إلى تنبؤاته الجويّة التي تُعدُّ بالنسبة لنا غيباً مقيَّداً ..

والراصد الفلكي الذي يُراقب مذنباً ما أو كوكباً ما ، يمكنه – إذا علم سرعته وبُعده وخواص الوسط الذي سيمرُّ عبره و ..... إلخ – التنبؤ بمكانه ولحظة مروره ..

وهكذا يُعدُّ الغيب المُقيَّد ، غيباً تحيط به قيود المادة وقوانينها ، لذلك فهذا الغيب يرتبط بعالم المكان والزمان ..

ب – الغيب المُطلق : وهذا الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، فلا توجد له مقدّمات في عالم المادّة الذي نعيش فيه .. لذلك فهو يرتبط بعالم ما فوق المادة والمكان والزمان ..



.. والقرآن الكريم الذي جاء بالمسائل من أساسها ومن بدايتها إلى نهايتها ، يُبين لنا هذه المسألة – مسألة الغيب والشهادة – ويحيط بها إحاطة تامّة ..

.. لننظر إلى هذه الحلقة من قصَّة موسى عليه السلام ، والتي تصوِّر رحلته مع العبد الصالح ، والحوادث الثلاث التي قام بها العبد الصالح ، وما رافق كلّ حادثة من موقفين متضادَّين تماماً ، أحدهما موقف موسى عليه السلام ، الذي ينظر إلى هذه الأحداث من منظار عالم الشهادة الذي نعيش فيه بعيداً عن غيبياتها ، والموقف الآخر هو موقف العبد الصالح منها ، بعد أن أطلعه الله تعالى على غيبياتها وأمره بفعلها ..

ولقد رأينا في النظرية الرابعة (الحكمة المطلقة) جانباً من العمق الباطن لهذه القصَّة ، وكيف أنَّ ظاهرها يرسم بتحركه – من منظار الحكمة الباطنة – أحكاماً وعِبراً مجرَّدة فوق المكان والزمان والتاريخ ، وتتناول الرسالات السماوية الثلاث ، وذلك بعمقها الباطن .. ولكنَّنا في بحثنا هذا (الغيب والشهادة) سننظر إلى هذه القصَّة من منظار مسألة الغيب فقط ..

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾
قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن
شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾
قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا
غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ
أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا
تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ

أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٥ – ٨٢]

إنَّ لكلٍّ من الحوادث الثلاث ماهيّتها الغيبية الخاصة بها ، ولها حكمة خاصّة تميِّزها عن غيرها .. فأغطية الغيب المرفوعة تختلف من حادثة لأخرى ..

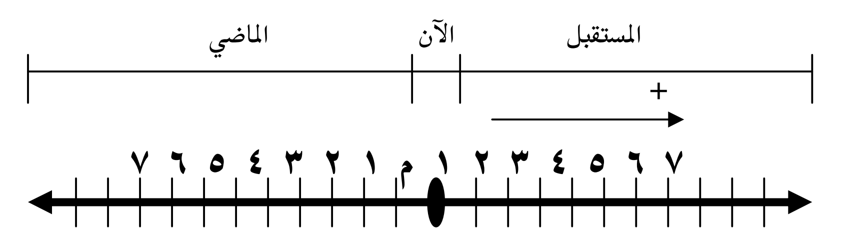
فالحادثة الأولى (خرق السفينة) قام بها العبد الصالح ، نتيجة رفع الله تعالى عنه غطاء غيب المكان (غيب الزمن الحاضر) ، فَعِلمُه بالملك الذي يأخذ كلَّ سفينة غصباً في مكانٍ آخر ، جعله يخرق السفينة حتى لا يأخذها الملك ، ويكون بذلك قد عمل خيراً لصالح المساكين أصحاب السفينة .. هذه هي حقيقة الحادثة من وجهة النظر التي ترى الغيب .. ولكنها من وجهة نظر عالم الشهادة ، تُمثِّلُ شراً قام به العبد الصالح ، وموسى عليه السلام كواحد من الذين يعيشون في عالم الشهادة ، والمحكومين لقانون المكان ، احتجَّ على ذلك واعتبره شراً يُراد به إغراق السفينة ..

ويُعدُّ غيب المكان (غيب الزمن الحاضر) أبسط أنواع الغيب ، فخرقه يحتاج إلى مشاهدة صورة ذلك المكان في تلك اللحظة .. فلو وُجدت كاميرا تنقل لموسى عليه

السَّلام الصورة الحيَّة والمباشرة للملك الذي يأخذ كلَّ سفينة غصباً ، لما احتجَّ على خرق السفينة ..

أما الحادثة الثانية التي قام بها العبد الصالح (قتل الغلام) ، فقد تمَّت بعد أن رفع الله تعالى عنه غطاء غيب الزمن المستقبل بالنسبة لهذا الغلام ، وأمره بقتله .. وهذا الغيب أعقد بكثير من الغيب السابق ، ولا أحد يستطيع مشاهدته إلا إذا رفع الله تعالى عنه غطاء غيب الزمن المستقبل .. لذلك على الرغم من تحذير العبد الصالح لموسى عليه السلام من السؤال والاحتجاج ، احتجَّ من جديد ، لأنَّ الغطاء المرفوع هذه المرَّة أعمق من الغطاء السابق ..

إنَّ عالم الشهادة الذي يعيش فيه موسى عليه السَّلام ، لا يُبرِّرُ ولا بأيِّ شكل من الأشكال قتل الغلام .. وموسى عليه السلام كفرد يعيش في هذا العالم ، وتحكمه قوانين المكان والزمان ، اعتبر هذا العمل منكراً .. ولكنَّ الحقيقة من وجهة نظر من رفع الله تعالى عنه غطاء غيب الزمن المستقبل هي خير وليس شرّاً ..



في كلِّ لحظة من اللحظات الزمنية الممثَّلة بأرقام على محور الزمن ، سواء بالنسبة للماضي أو للمستقبل ، توجد هيئة مكانية لحوادث الكون في تلك اللحظة .. وإنَّ رَفْع غطاء الزمن عن أيِّ حادثة في لحظة ما ، يعني رؤيةَ عالم الشهادة المكاني المحيط بهذه الحادثة في تلك اللحظة .. فصور تغيُّر الهيئة المكانية من لحظة لأخرى ، تنتقل على محور الزمن من الماضي باتجاه المستقبل ..

وخالق المادة والمكان والزمان سبحانه وتعالى ، يُشاهد دائماً جميع صور الهيئة المكانية لهذا الكون ، من بدايته إلى نهايته دفعة واحدة ..

لذلك إذا أراد الله تعالى رفع غطاء غيب الزمن عن أيِّ مخلوق بالنسبة لحادثةٍ ما ، سواء غيب الزمن الماضي أم غيب الزمن المستقبل ، فإنه يرفع عنه هذا الغطاء ليرى صور الهيئة المكانية للحادثة سواء ماضيها أم مستقبلها ..

وهذا ما حدث مع العبد الصالح حين رفع الله تعالى عنه — بالنسبة لهذه الحادثة — غطاء غيب الزمن المستقبل ..

أمّا بالنسبة للحادثة الثالثة (إقامة الجدار) ، فقد تمَّت بعد أن رفع الله تعالى عن العبد الصالح — إضافةً إلى الغيب المكاني والزماني — غطاء غيب الباطن والجوهر والحقيقة .. وهنا على الرغم من تحذير العبد الصالح لموسى عليه السلام من الاحتجاج ، وتعهُّد موسى عليه السلام بعدم الاحتجاج ، على الرغم من ذلك عاد واحتجَّ ، لأنَّ رفع الغطاء في هذه الحادثة ، أعمق منه في الحادثتين السابقتين ..

إنَّ إدراك كنز اليتيمين تحت الجدار ، كان نتيجة رفع غطاء غيب المكان ، وإنَّ معرفة أنه كان لهما أبٌ صالح ، كان نتيجة رَفْع غطاء غيب الزمن الماضي .. ومعرفته بأنَّ هذين الغلامين اليتيمين سيكبران ، وسيخرجان كنزهما ، كان نتيجة رَفْع غطاء غيب الزمن المستقبل ..

ولكن على الرغم من رفع هذه الأغطية ، لماذا أقام الجدار ؟ .. ألم يكن من الممكن استخراج هذا الكنز وإعطاؤه لليتيمين بدلاً من إقامة الجدار ؟! ..

وهنا جاء دور رفع غطاء غيب الباطن والجوهر والحقيقة .. إنَّ عدم تضييف أهل القرية لهما ، هي حادثة مُشاهدة ، ومن عالم الشهادة الذي يدركه موسى عليه السَّلام والعبد الصالح ، وأيُّ إنسان شاهد هذه الحادثة .. ولكنَّ العبد الصالح كشف الله تعالى عنه غطاء غيب الباطن والجوهر والحقيقة لهذه الحادثة ، فاستنتج لآمة أهل القرية وعدم

أمانتهم ، وبالتالي سلبهم للكتر في حال حصل عليه الغلامان اليتيمان .. لقد استنتج نتيجة رفع هذا الغطاء ، أنَّ الكتر يجب أن يبقى بعيداً عن أيدي الغلامين ما داما صغيرين ..

وهكذا فإنَّ رفع هذه الأغطية دفعةً واحدة عن هذه الحادثة ، جعل موسى عليه السَّلام يحتجُّ من جديد ..

إنَّ البحث الهادف إلى معرفة ما غاب عنّا من جوانب المسائل التي تقع في ساحة الغيب المقيَّد ، لا يكون باتجاهه الصحيح إلاّ إذا كانت مقدِّماته مستمدَّة من إحدى أو كلتي الساحتين التاليتين :

١ – مادة الكون وقوانينها التي أودعها الله تعالى فيها ، والتي تقع تحت حواسِّنا وتجاربنا ..

٢ – كلام الله تعالى (القرآن الكريم) الذي يخبرنا الله تعالى فيه عن مسائل الماضي والحاضر والمستقبل ..

وأيُّ بحث لا يستمدُّ مقدِّماته من هاتين الساحتين ، هو بحثٌ ضالٌّ ، لن يصل إلى أي نتيجة صحيحة ، وأصحابه ومن تبعهم ، هم من المضلِّين الذين يبتعدون ويبعدون غيرهم عن الحقيقة ..

ولنختر مسألةً تُعدُّ من مسائل الغيب بالنسبة لنا ، ولنبحث فيها عبر مقدمات يخبرنا الله تعالى عنها في كتابه الكريم .. إنها مسألة خلق الإنسان الأول ، هذه المسألة التي ضلَّ بها كلٌّ من ابتعد في بحثه عن منهج الله تعالى .. لقد ضلَّ بها الكثيرون ، لأنَّ أبحاثهم لا تستطيع أن تستند إلى علم المشاهدة الماديَّة ، التي تعود بالزمن إلى تلك الفترة ، و لم تسند إلى إخبار الله تعالى عن هذه المسألة في كتابه الكريم ..

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف : ٥١]

إنَّ كلَّ حلقةٍ من تصوير هذه المسألة - وأي مسألة — في القرآن الكريم ، ترسم صورة جانب من جوانبها ، ومرحلة من مراحلها .. وإذا أردنا تصوُّر المسألة القرآنية كاملة بكلِّ جوانبها ، يجب النظر في جميع صور جوانبها ومراحلها التي تصوِّر حلقاتها في القرآن الكريم ..

وأول ما ضلَّ به المضلُّون في هذه المسألة ، هو ادِّعاؤهم أنَّ بشراً كانوا مع آدم عليه السَّلام ، وأنَّ اصطفاء الله تعالى له ، يعني اختياره من بين أولئك البشر ، وتمييزه عنهم بالعقل ، فاصطفاء فرد ما لا يكون إلاّ من بين مجموعة أفراد ينتمي إليهم ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣]

ولا يكمن الضلال في عدم استناد مقدِّماتهم على ساحتي العلم الحقيقي — مادة خلق الله تعالى ، وكلام الله تعالى — فحسب ، بل يكمن في تحريف معنى كلام الله تعالى .. فافتراضهم أنَّ بشراً كانوا مع آدم عليه السلام قبل تمييزه بالعقل ، مردّه — في مذهبهم الفكري هذا — أنَّ اصطفاء الله تعالى لآدم ، لا يكون إلاّ من بين مجموعة من أقرانه ..

لقد نسوا — بل تناسوا — أنَّ ساحة اصطفاء الله تعالى لآدم ، هي ذاتها الساحة التي اصطفى منها نوحاً ، وهي ذاتها الساحة التي اصطفى منها آل إبراهيم ، والتي هي ذاتها الساحة التي اصطفى منها آل عمران .. فعندما نقول أنَّ الأستاذ قد اصطفى من طلابه فلاناً وفلاناً على الصَّف ، فهذا يعني أنَّ الساحة التي تمَّ فيها الاصطفاء هي ذاتها لفلان الأوَّل ولفلان الثاني ، فواو العطف التي جاءت بين فلان الأوَّل وفلان الثاني ، تعني أنَّ اصطفاءهما من ساحة واحدة هي الصف ..

ويتصوَّر هؤلاء أنَّ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران ، الذين عاش كلٌّ منهم في زمن يختلف فيه عن الآخر ، يقتضي أنَّ اصطفاء كلٍّ منهم لا بدَّ أن يكون على مجموعة الأفراد الموجودين معهم في زمن واحد ..

إنَّ هذا التصوُّر المحكوم لقوانين المكان والزمان ، يريدون جعله قيداً على علم الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته .. فقد تناسوا أنَّ القائل هو الله تعالى ، غير المحكوم لقوانين المكان والزمان ، وأنَّ هذه الساحة — العالَمين — يراها الله تعالى دفعة واحدة ، من آدم عليه السَّلام إلى قيام الساعة ، وأنَّ كلمة العالَمين في كتاب الله تعالى تشمل جميع المكلَّفين من البشر وغيرهم دون استثناء ، ولا يُقصد بها جيل دون الآخر .. أي أنَّها مجرَّدة عن قوانين المكان والزمان ..

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير : ٢٧ — ٢٨]

لو نظر هؤلاء في قوله تعالى : **﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾** [النساء : ٥٩] .. لعلموا أنَّ آدم عليه السلام خلقه الله تعالى من التراب مباشرةً دون أب ، وبالتالي فما ذهبوا إليه ليس صحيحاً .. إنَّ زعمهم بأنَّ آدم عليه السلام قد تمّ اصطفاؤه من بين مجموعة أقران يعيشون معه في عصرٍ واحد ، يقتضي أنّه خُلق من أبٍ وأم ، وهذا يتناقض مع هذه الآية الكريمة ..

ويبيّن القرآن الكريم مراحل خلق آدم عليه السلام ، ابتداءً من التراب ، فالطين ، فالحمأ المسنون ، فالصلصال كالفخار ، فتسويته ، فنفخ الروح فيه .. ونحن نعرف أنَّ التراب إذا أُضيف إليه الماء أصبح طيناً ، وأنَّ الطين إذا تُرك فترة مُعيَّنة أصبحت له رائحة وأصبح حمأً مسنوناً ، وإذا تُرك بعد ذلك يصبح صلصالاً كالفخار ..

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النساء : ٥٩]

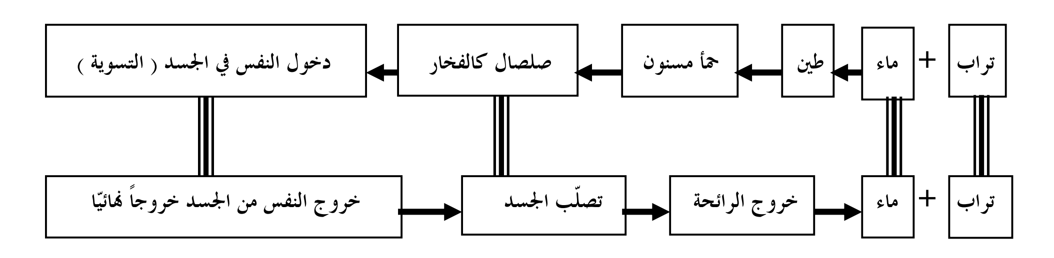
﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص : ٧١]

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ – ٢٩]

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤]

وهذه المراحل لم نشهدها ، فهي غيبٌ بالنسبة لنا ، ولكنَّ الله تعالى ترك بين أيدينا دليلاً حسيًّاً على صدق إخباره لنا عن هذه المراحل ، فنحن نعلم أنَّ الموت نقيض الحياة ، ونحن نشهد كلَّ يوم مسألة الموت ومراحل تفكك جسد الإنسان ..

إنَّ أول مرحلة من مراحل موت الإنسان هي خروج النفس من الجسد ، وهذه تقابل المرحلة الأخيرة من مراحل الخلق ، بعد ذلك يتصلَّب جسد الميِّت ، وهذه تقابل مرحلة الصلصال كالفخار .. بعد ذلك تخرج رائحة الجسد ، وهذه تقابل مرحلة الحمأ المسنون .. بعد ذلك يتبخر الماء ويبقى التراب الذي هو أصل خلق جسد الإنسان قبل إضافة الماء إليه ليصبح طيناً ..



السطر الأول يمثِّل الحياة وبداية الخلق (للإنسان) ، والسطر الثاني يمثِّل الموت والخروج من الحياة الدنيا ..

.. ولنتابع البحث في هذه المسألة ، عبر مقدّمات قرآنية ، باتجاه نتائج يقرُّها القرآن الكريم .. لننظر إلى هذه الصورة القرآنية ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ – ٢٩]

تظهر هذه الصورة القرآنية بشكل صريح المراحل التالية :

١ – إخبار الله تعالى للملائكة بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، حسب المراحل التي جرت على الجسد من التراب إلى الطين إلى الحمأ المسنون إلى الصلصال كالفخار ..

٢ – اكتمال الخلق الجسدي لآدم ، وتسويته بدخول نفسه في جسده الحيّ ..

٣ – نفخ الروح فيه ..

٤ – تنفيذ أمر السجود لآدم عليه السَّلام ..

ومسألة إخبار الله تعالى للملائكة بأنه سيخلق بشراً ويستخلفهم في الأرض ، قبل خلق جسد آدم ، هي مسألة أكَّدها القرآن الكريم ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣٠ – ٣١]

وما تاهت عنده عقول بعض البشر ، هو كيف عرفت الملائكة بأنَّ بني آدم سيفسدون وسيسفكون الدماء ؟ ، لذلك أخذوا بافتراضات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان .. لقد نسوا أنَّ هذه المحادثة تمَّت في ساحة ما فوق المادة والمكان والزمان ، وأنّها

جرت بين الله تعالى خالق الزمن ، وبين الملائكة الذين ينتمون إلى عالم مغاير لعالم المادة الذي ننتمي إليه ..

فهل من الصعب على الله تعالى أن يريهم (الملائكة) الزمن المستقبل لبني آدم ، وصور الفساد وسفك الدماء التي يقوم بها البشر الآن ؟ .. وهل تجرؤ الملائكة بالقول إن بني آدم سيفسدون ويسفكون الدماء ، لولا أنها رأت صور الفساد وسفك الدماء لبني آدم ، بعد أن كشف الله تعالى عنها غيب الزمن المستقبل ؟ ..

وممّا يؤكّد أنَّ الله تعالى فتح – في هذه المسألة – غيب الزمن المستقبل فرأت الملائكة صور الفساد وسفك الدماء التي سيقوم بها البشر في حياتهم الدنيا في الأرض ، هو أنَّ الله تعالى عرض على الملائكةِ أصحابَ الأسماء ، الذين وُجد الكثير منهم بعد نزول آدم عليه السلام إلى الأرض ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ .. إذاً في هذه الساحة من الحوار ، تمّ كشف الزمن المستقبل ، فرأت الملائكة ما سيكون من البشر من فسادٍ وسفكٍ للدماء ، فقالت : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ ..

ولننظر إلى الصورة القرآنية التالية :

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ [الأعراف : ١١]

إنَّ النَّص القرآني مطلقٌ وواضحٌ وصريحٌ ، فكلمة ﴿ **خَلَقْنَٰكُم** ﴾ جاءت بصيغة الجمع ، لتشمل جميع البشر ، وكذلك كلمة ﴿ **صَوَّرْنَٰكُم** ﴾ .. وممَّا يؤكد ذلك أنَّ الآية الكريمة التي تسبق هذه الآية مباشرةً ، تخاطب جميع البشر وبصيغة الجمع أيضاً ..

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠ – ١١]

ولو كان المقصود بالعبارة القرآنية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ آدم عليه السلام وحده لجاء النَّص القرآني الكريم مرتبطاً بآدم عليه السلام لوحده ، كما هو الحال في مسألة السجود التي أتت مرتبطة بآدم وحده ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ..

ومن الصورة القرآنية السابقة تتبيَّن لنا المراحل التالية :

١ – خلق جميع البشر كأنفس مجرَّدة عن المادة ، من آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ..

٢ – إعطاء هذه الأنفس صورها الخاصَّة بها ..

٣ – إعطاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ..

وفي مرحلة الأنفس هذه ، بعد أن تمَّ خلق أنفس جميع البشر وتصويرها ، تمَّ أيضاً حمل الإنسان للأمانة التي عُرضت على المخلوقات ، وهي الالتزام بمنهج الله تعالى إذا أُعطي حرِّية الاختيار ، وذلك في إطار عالم الجزئيات (عالم المكان والمادة والزمان) كما رأينا في كتاب (قصَّة الوجود) ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

وفي مرحلة الأنفس هذه ، وبعد أن اختار الإنسان حمل الأمانة ، تمَّ أخذ العهد والميثاق من جميع بني آدم في حالة الأنفس المجرَّدة قبل هبوط هذه الأنفس في أجساد عالم الدنيا ..

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ – ١٧٣]

ولننظر إلى الصورة القرآنية التالية التي تظهرها هذه الحلقة من قصَّة آدم عليه السلام ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟

مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠ – ٣٨]

إنَّ المراحل التي تُصوِّرها هذه الحلقة هي على الترتيب التالي :

١ – إخبار الله تعالى للملائكة بجعل خليفة في الأرض ..

٢ – معرفة الملائكة بإفساد بني آدم وسفكهم الدماء ..

٣ – تعليم الله تعالى لآدم أسماء جميع الأشياء حتى قيام الساعة ، وإخبار آدم للملائكة بهذه الأسماء ..

٤ – الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم ..

٥ – سجود الملائكة لآدم وعصيان إبليس ..

٦ – إسكان آدم وزوجه الجنة وإغواء إبليس لهما ..

٧ – هبوط آدم وذريته من جنّة الاختبار ..

والنَّص القرآني ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾ هو نصٌّ صريحٌ وواضحٌ ، ويعني كلَّ الأسماء .. فكلمة الأسماء لا تُفسَّر على مشاهدات آدم عليه السَّلام وحسب علمه ، وإنما على علم الله تعالى ، لأنَّ المعلم والقائل هو الله سبحانه وتعالى .. فآدم في هذه المرحلة هو آدم النفس ..

لقد تمَّ ذلك قبل صدور الأمر الإلهي بالسجود لآدم ، ذلك السجود الذي تمَّ بعد خلق جسد آدم وبثِّ الحياة فيه ، وبعد تسويته بدخول النفس في جسد آدم الحيّ ، وبعد نفخ الروح فيه .. لذلك يجب ألاّ نقيس هذه المسألة على تصوُّراتنا الماديّة ، فالمسألة كما رأينا تمَّت في حالة النفس ، وفي هذه الحالة لا وجود لقيود المادة والمكان والزمان ..

وبدمج جميع الصور القرآنية المصوِّرة لجوانب هذه القصَّة ، نحصل على الترتيب التالي لمراحل هذه المسألة ..

١ – خلق أنفس جميع البشر ..

٢ – إعطاء هذه الأنفس صورها الخاصَّة بها ..

٣ – عرض الأمانة على المخلوقات وتعهُّد الإنسان (النفس) بحملها ..

٤ – أخذ العهد والميثاق من جميع البشر ..

٥ – إخبار الله تعالى الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة ..

٦ – معرفة الملائكة بإفساد بني آدم وسفكهم الدماء ، عندما كشف الله تعالى عنها غطاء غيب الزمن المستقبل ..

٧ – تعليم الله تعالى لآدم الأسماء كلّها ، وإخبار آدم للملائكة بذلك ..

٨ – الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم ، حين الانتهاء من خلق جسده ودخول نفسه في هذا الجسد (تسويته) ونفخ الروح فيه ..

إنَّ جميع المراحل حتى الآن تمَّت في عالم الأنفس ، بعيداً عن المادة ، فجسد آدم المادي لم يُخلق بعد ، وبالتالي هذه المراحل بعيدة عن قوانين المادة والمكان والزمان ..

٩ – خلق جسد آدم ، عبر المراحل التي بيَّنها القرآن الكريم ، ومن ثمَّ تسويته إنساناً كاملاً (نفس + جسد) ، ونفخ الروح فيه ..

١٠ – سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، وعصيان إبليس بسبب مادة جسم آدم ..

١١ – إسكان آدم وزوجه جنَّة التدريب والاختبار ..

١٢ – إغواء إبليس لهما ..

١٣ – تلقي آدم التَّوبة من الله تعالى ، حيث اجتباه الله تعالى وهداه ..

وهنا دخل آدم مرحلة النُّبوة ..

﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢٢]

١٤ – هبوط آدم عليه السَّلام وذريته إلى الأرض ، ووعد الله تعالى بأن يُرسل إليهم رسلاً يحملون لهم الهدى ومنهج الحق ..

وحين حلول نفس كلّ واحد من بني آدم في جسده المادي ، أي حين دخول نفسه عالم المادة والمكان والزمان ، فإنَّ هذا الجسد ينبت وينمو على مجموعة عناصر ماديَّة كلّها من الأرض ..

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ [نوح : ١٧ - ١٨]

وجاءت مسألة إنبات الجسد في موقع آخر من القرآن الكريم ..

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إنَّ الإنبات الحسن لجسد مريم عليها السَّلام ، كان بسبب الرزق الطاهر الحلال الذي كان يأتيها من عند الله تعالى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ ﴾ .. إذاً الصورة القرآنيّة : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ تعني تغذية أجساد البشر ونموّها عبر مواد جميعها من الأرض .. بمعنى أنَّ إنباتها هو من موادّ الأرض وفي الأرض ..

ومن خلال القصَّتين السابقتين (قصَّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، وقصة آدم عليه السلام) ، نرى أنَّ علم الله عزَّ وجلَّ بعالم الغيب هو ذاته بعالم الشهادة ، وأنه لا يوجد على الله تعالى أيُّ غيبٍ ، فلا غطاء يحجبه عن أيِّ شيء ، إنَّ الغيب هو غطاءٌ مخلوقٌ ، يحجب عالم الشهادة عن المخلوقات .. وإنَّ مسألة الغيب المُقيَّد على الإنسان ، هي ضرورة تقتضيها مسألة الامتحان والاختبار .. فنحن الآن لا نتذكَّر العهد والميثاق اللذين أخذهما الله تعالى علينا ، وتعهدنا بحمل الأمانة ونحن في عالم الأنفس ، بسبب هذا الجسد الطيني ، وهذا من مقتضيات الامتحان ، فلو تذكَّر الإنسان ذلك ما عصى الله

تعالى أبداً ، لأنه سيرى الحقائق كما هي ، وسيعلم ضآلة هذه الدنيا أمام خلود الآخرة ..

لذلك بعد خروج الإنسان من دنيا الاختبار هذه ، يرى الأشياء على حقيقتها ، ويُكْشَف عنه هذا الغطاء الذي يحول بينه وبين رؤية الحقائق ..

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢]

والله تعالى قادرٌ على رفع أيّ غطاء من أغطية الغيب عمَّن يشاء من عباده ..

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٥]

وهكذا فإنَّ كلَّ ما غاب عن المخلوقات من غيب — سواء غيب مكان أم زمان أم جوهر — هو عالَم شهادة بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١]

لذلك نرى في القرآن الكريم بعض الآيات الكريمة التي تصوِّر لنا مسائل ستحدث — حسب مفهومنا وانصياعنا لقوانين الزمن والغيب — يوم القيامة ، يصورها الله تعالى لنا في كتابه الكريم كما يراها ويعلمها تماماً ، فترسمها كلمات الله تعالى صوراً حيَّة أمامنا ، وهي الصور ذاتها التي سنراها كما هي تماماً يوم القيامة ..

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا

مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦ – ١١٧]

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه : ١٠٢ – ١٠٤]

.. صور حيَّة من غيب المستقبل – بالنسبة لنا – تصوِّرها لنا الآيات الكريمة رافعة عنها غطاء هذا الغيب ..

إنَّ تصوُّراتنا – نحن المحكومين لقوانين المكان والزمان والغيب – محبوسة ضمن مجالٍ ضيِّقٍ ، يحيط به الغيب من كلِّ جهة ، وأجسادنا وحواسنا وكلّ ما نتفاعل معه هو من المادة المحكومة لقوانين المكان والزمان .. فمن أين لنا – وهذه حالنا – ضرب أمثال وبناء تصوُّرات نعدُّها مقدماتٍ نريد عبرها استنتاج حقائق الغيب الذي هو في علم الله تعالى ..

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤]



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الإرادة والمشيئة

.. إذا أردنا تصوّر الإطار الخاصّ – حسب ما نستطيع – لكلٍّ من مسألتي الإرادة والمشيئة ، علينا العودة إلى مشتقّات هاتين الكلمتين في القرآن الكريم ، وقراءة الآيات الكريمة المحيطة بتلك المشتقّات قراءة عميقة ، بعيداً عمّا نحمله من تصوّرات مسبقة موروثة لهاتين المسألتين .. حين ذلك نكون قد اتّبعنا منهجاً علميّاً سليماً في بحثنا القرآني ..

إنَّ قراءة عميقة للنصوص القرآنيّة المحيطة بمشتقّات الجذرين (ر ، و ، د) ، (ش ، ي أ) ، تُظهر لنا أنَّ مسألة الإرادة تتعلّق بالله تعالى ، وبالإنسان ، وبعالم الجن (عبر تعلّقها بالشيطان) ، وأنَّ هناك صورة قرآنيّة واحدة تُبيّن تعلّق الإرادة بالجدار الذي أقامه العبد الصالح ﴿ **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ** ﴾ [الكهف : ٧٧] ..

.. ونرى أنَّ مسألة المشيئة تتعلّق بالله تعالى ، وبالإنسان ولكن ضمن إطار مشيئة الله تعالى ، وأنّها لا تتعلّق أبداً بعالم الجن ، ولا بباقي المخلوقات ..

والعقل السليم والفهم العميق لحقيقة الحياة والهدف منها ، يقرّان بذلك .. فالإرادة والمشيئة تتعلّقان بالغاية في إيجاد أشياء تحدث وفق هذه الغاية ، وهذا لا يكون إلاّ بامتلاك حرّيّة الاختيار ، وبتخيّل الأسباب وكيفيّة التعامل معها لحصول تلك الغاية ..

لقد رأينا في بحث الروح والنفس كيف أنَّ النفس التي تملك الرغبة وحرّيّة الاختيار ، وتصوّر الأسباب المؤدّية لحدوث تلك الرغبة ، ترتبط بالإنسان ، ومضافة لله تعالى ، وكذلك الإرادة والمشيئة منحهما الله تعالى للإنسان ، من أجل امتحانه في حمل الأمانة التي تعهّد بحملها ، والمحافظة عليها وفق منهج الله تعالى ، تلك الأمانة التي حملها قبل

مجيئه إلى الدنيا .. والإرادة (دون المشيئة) منحها الله تعالى لعالم الجن ، بغية امتحانه أيضاً ..

وهكذا نرى أنَّ الحكمة الإلهيّة تتجلّى في عدم منح المخلوقات غير المكلّفة مسألتي الإرادة والمشيئة ، لأنَّ هذه المخلوقات تسير وفق المنهج المرسوم لها ، ولا خيار لها ، فهي ملتزمة بشكلٍ مطلق بقضاء الله تعالى الذي اختاره لها ، ولا علاقة لها بالمنهج الإلهي التكليفي المتعلّق بالإرادة والمشيئة ..

فمسألتا الإرادة والمشيئة هما العطاء الإلهي للإنسان ، بغية امتحانه في مسائل اختياره ، بعد توفير الأسباب التي تمكّنه من فهم البدائل المختلفة وفعلها ، ووضع هذه الأسباب في خدمة إرادته ، وما الأمانة التي تعهّد الإنسان بحملها ، وما العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على الإنسان قبل مجيئه إلى الدنيا ، إلاّ التعهّد باختيار منهج الله تعالى ، عندما يملك الإرادة والمشيئة ، وعندما تتوفّر بين يديه الأسباب التي تمكّنه من اختيار هذا المنهج وعصيانه ..

وكما قلنا فإنَّ الإرادة (دون المشيئة) منحها الله تعالى لعالم الجن ، بغية امتحانه في عالمه الناري ، حيث لا سلطان له على الأسباب الماديّة الكثيفة المسخّرة بين أيدينا ، وقد بيّنت ذلك بشكلٍ مفصَّل في كتاب (قصّة الوجود) ..

.. ولكن ما هي حدود ساحة تداخل هاتين المسألتين ؟ .. وما هو الفارق بين إرادة الله تعالى ومشيئته ، وبين إرادة الإنسان ومشيئته ؟ .. وما هو الفارق بين إرادة كلِّ طرف ومشيئته ؟ .. للإجابة على هذه الأسئلة ، علينا الإبحار في أعماق النصوص القرآنيّة المحيطة بالكلمات المشتقّة من الجذرين (ر ، و ، د) ، (ش ، ي ، أ) ..

إنّ **الإرادة** هي توجيه قدرة الذات وتصوّرها وتفكيرها وعزمها وموازنتها للأمور وتطلّعها ، باتّجاه الغاية التي تريد الذات اتّخاذ قرار وتصوّر لها ، وبالتالي **هي القصد**

والهدف والغاية .. ولا بدّ لوجود الإرادة المرتبطة بغاية محدّدة من بدائل وخيارات أُخرى تخصّ هذه الغاية ..

فامتلاك الذات لإرادة ما ، باتّجاه غاية تخصّ مسألة ما ، هو اتّخاذ هذه الذات لتصوّرٍ وقرارٍ محدَّدين بالنسبة للمسألة المُرادة ، وبشكلٍ موافقٍ للغاية التي تتصوّرها الذات .. وكلّ ذلك دون الأخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى تحقيق الغاية المُرادة .. هذا هو تعريف الإرادة كما يصوّرها لنا القرآن الكريم ، بعيداً عن الفلسفات الوضعيّة النابعة من تصوّر البشر ، سواء تلك التصوّرات الفلسفية ، أم التصوّرات التي حُسبت على الإسلام ، وكتاب الله تعالى منها براء ..

لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٥]

إنّنا نرى أنَّ العبارة القرآنيّة **﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾** تعني من كان قصده وهدفه وغايته ثواب الدنيا ، وكذلك العبارة القرآنيّة **﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾** تعني من كان قصده وهدفه وغايته ثواب الآخرة .. فجميع مشتقّات الجذر (ر ، و ، د) في القرآن الكريم تدور معانيها ضمن إطار القصد والهدف والغاية ..

ومن مشتقّات الجذر (ر ، و ، د) في القرآن الكريم المراودة ، وهي التأثير الخارجي على الذات ، بغية توجيه رغبتها وهدفها وغايتها ، باتّجاه رغبة من يقوم بهذا التأثير ، وباتّجاه هدفه وغايته ، وكلّ ذلك ضمن حدود النفس ..

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف : ٣٢]

﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف : ٦١]

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر : ٣٧]

.. ولنعد إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف : ٧٧]

إنّنا نرى في هذه الآية الكريمة أنَّ الإرادة هي الغاية التي تتّجه إليها ذات الشيء ، بعيداً عن ملك هذه الذات للأسباب التي تؤدّي إلى تلك الغاية .. وتعلّق الإرادة بهذا الجدار هو التعلّق الوحيد (في القرآن الكريم) لإرادة ترتبط بغير الذات الإلهيّة ، وبغير ذوات الإنس والجن .. وهذا التعلّق يُبيّن أنَّ ذات الجدار وكيانه ، تتّجه باتّجاه غاية حاصلة هي الانهيار ، وأنَّ الأسباب التي تؤدّي إلى هذه الغاية ليست من ملك صاحب هذه الغاية ، وليست من ملك من تفعل فيه هذه الأسباب ، وهو هنا الجدار ..

.. وقد رأينا في النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة) أنَّ الإرادة التي أُعطيت للجدار ، ولكلِّ الأشياء في هذا الكون ، ولمرّة واحدة ، كانت حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، حيث اختارت الكائنات (عدا الإنسان) الانصياع لأمر الله تعالى ، والخضوعَ التامَّ للأسباب دون ملك إرادة توجيه هذه الأسباب ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

فعدم امتلاك المخلوقات غير المكلّفة (كالجدار) للإرادة ، هو إرادةٌ اختارتها بذاته حين عَرْض الأمانة .. وبالتالي هي منصاعة (بإرادتها الوحيدة التي مُنحت لها حين عَرْض الأمانة) للقانون الذي يحكمها .. هذا ما نقرؤه من دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ جِدَارًا

يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ .. بمعنى أنّ هذا الجدار ، وفق نواميس المادّة التي اختار الانصياع لها ، والتي تحكمه ، يتّجه باتّجاه الانهيار ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨ — ٢٩]

نرى في هذه الصورة القرآنيّة أنّ الإرادة **﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾** هي رغبة النفس وغايتها ، ولكن دون الأخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى تحقيق هذه الغاية .. فلو أخذ (المقتول في هذه القصّة) بالأسباب التي تتفاعل مع إرادته لإخراجها إلى عالم الوجود الحسّي ، لأصبح شريكاً للقاتل ..

فالإرادة بإيجاد الشيء تسبق إيجاده في عالم المادّة والمكان والزمان ..

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

نرى في هذه الصورة القرآنيّة أنّ الإرادة الإلهيّة لوجود الشيء تسبق الأمر الإلهي (كن) الذي يؤدّي إلى خروج هذا الشيء إلى عالم الوجود المخلوق المحسوس .. فالإرادة — كما نرى — تسبق تفاعل الغاية مع أسباب إظهار موضوع هذه الغاية إلى عالم الوجود المكاني الزماني ..

ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦]

فلو كان قصد هؤلاء وهدفهم وغايتهم الخروج لأخذوا بأسباب تحقيق هذه الغاية ، أي لقاموا بإعداد عدّة للخروج .. فالإرادة (القصد والهدف والغاية) تسبق – كما نرى – الأخذ بأسباب تحقيق موضوع هذه الإرادة في عالم المادّة والمكان والزمان ..

.. أمَّا المشيئة فهي قدرة الذات على الأخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى خروج موضوع الإرادة إلى عالم الوجود المخلوق المحسوس (عالم المادّة والمكان والزمان) ، وقدرتها على توجيه هذه الأسباب باتّجاه الغاية المُرادة .. فالذات التي تملك مشيئة تملك – إضافة للإرادة – قدرة التفاعل مع الأسباب التي تتعلّق بإيجاد موضوع الإرادة ، في عالم المادّة والمكان والزمان ..

وقوله تعالى .. ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [النحل : ٤٠] ، يؤكّد صحّة ما نذهب إليه .. فالشيء الذي أراد الله تعالى وجودَه في عالم الوجود المخلوق المحسوس ، سبقت وجودَه في هذا العالم إرادةُ الله تعالى بإيجاده .. فهذا الشيء – كوجود مجرّد عن المادّة – موجودٌ في علم الله تعالى وإرادته ، وهذا ما تبيّنه العبارة القرآنيّة ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ** ﴾ ، ولكنّ وجوده في عالم المادّة والمكان والزمان كشيء محسوس ، يحتاج إلى تفاعل أسباب وجوده في عالم الحس ، بعد الأمر الإلهي ﴿ **أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ ..

.. ولمّا كان الرزق – في الحياة الدنيا – يكون عبر أسبابٍ تُوضَع بين أيدي المخلوقات ، فإنّنا نرى أنَّ الرزق في القرآن الكريم يتعلّق دائماً بمشيئة الله تعالى ، أي بتسخير الله تعالى لأسبابه ..

﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [آل عمران : ٣٧]

﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ [سبأ : ٣٦]

﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ [الزمر : ٥٢]

.. لقد رأينا في الفصل الأوّل أنَّ عالم الوجود المخلوق المحسوس (عالم المادّة والمكان والزمان) يستمدّ في كلّ لحظة حيثيّات وجوده من الخالق سبحانه وتعالى ، وهذا ما يميّز عالم المشيئة عن عالم الوجود المخلوق غير المحسوس .. هذه الحقيقة نراها — في القرآن الكريم — عبر تعلّق الفعل المضارع (يخلق) بالفعل المضارع (يشاء) ، فاستمراريّة الخلق في إطار المادّة والمكان والزمان ، هي ضمن إطار ساحة المشيئة (ساحة الجزئيّات الماديّة التي تستمدّ حيثيّات وجودها في كلِّ لحظة من الخالق سبحانه وتعالى) ..

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ [آل عمران : ٤٧]

﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة : ١٧]

﴿ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [النور : ٤٥]

﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ [القصص : ٦٨]

﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤]

﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ [الزمر : ٤]

﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ [الشورى : ٤٩]

.. فالمشيئة بشكل عام ، سواء المشيئة الإلهيّة ، أم المشيئة الإنسانيّة ، تسبقها الإرادة ، وترافق الأخذ بالأسباب التي تُخرج هذه الإرادة إلى عالم الحسّ والوجود ..

لننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣]

نرى في هذه الصورة القرآنيّة ، أنّه لو دفع الله تعالى الأسباب التي أدّت إلى اقتتالهم ، في جهةٍ تحول دون ذلك لما اقتتلوا ، ولكنَّ الله تعالى ترك غاياتهم — بغية امتحانهم —

تتفاعل مع الأسباب الموجودة بين أيديهم باتّجاه إراداهم المختلفة ، فكانت النتيجة هي اقتتالهم ..

.. ولنقف عند هذه الصورة القرآنيّة ، التي تُلقي الضوء على الحدّ الفاصل بين الإرادة والمشيئة ..

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء : ١٨ – ٢١]

نرى في هذه الصورة القرآنيّة ، أنَّ حقيقة تطلّع الإنسان لامتلاك أسباب الدنيا ، لا تتعدّى إرادته ، لأنّ جميع الأسباب التي تؤدّي إلى تحقيق هذه الإرادة أو جزء منها ، هي مخلوقة لله تعالى ، وتستمدّ قوّة فعلها من الله سبحانه وتعالى ، وليست من ذات الإنسان وصنعه ، فلو كانت من ذاتِ الإنسان لَمَا حسَّ بالنقص نتيجة افتقاره لهذه الأسباب ، ولكانت غايته محقّقة متى شاء ، وعند ذلك لا داعي لتمنّي هذه الغاية .. لذلك جاء النصّ القرآني **﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾** ، ولم يأت (من كان يشاء العاجلة) ..

.. ونرى أيضاً أنَّ كلمة **﴿ يُرِيدُ ﴾** تأتي بصيغة المضارع **﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾** ، فالمعني هنا تتّجه إرادته دائماً وبشكلٍ مستمرٍّ نحو العاجلة ، فالقصد من حركات حياته والهدف منها هو العاجلة ..

ونرى أيضاً أنّ جزءاً من اللاهثين وراء الدنيا ، وممّن جعلوا الدنيا غايتهم ، تتحقّق إرادهم بالوصول إلى غايتهم أو جزءٍ منها ، وهؤلاء هم الذين اختارهم الله تعالى من بين

مجموع اللاهثين وراء الدنيا ، وقد اختارهم جلّ وعلا حسب إرادته ، والحكمة تتعلّق بامتحانهم ، لذلك جاء النصّ القرآني ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ..

وهؤلاء الذين حصلوا على الغاية التي يسعون إليها ، وصلوا إلى غايتهم عبر الأسباب التي خلقها الله تعالى ووضعها بين أيديهم ، ولخدمة غاياهم ، ولذلك جاء النصّ القرآني ﴿ مَا نَشَآءُ ﴾ ، أي بما يُيَسِّره الله تعالى من أسباب يضعها بين أيديهم بقدرٍ معيّن ، تؤدّي إلى تحقيق غاياهم ، بالقدر الذي يشاؤه الله تعالى لهم ..

.. أمَّا من كانت الآخرة غايته ، فيكون قد ملك إرادةً تجاه هذه الغاية ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ .. وما نراه هو ورود إرادة المعني هنا بصيغة الماضي ﴿ أَرَادَ ﴾ ، بمعنى أنَّ السمت العام لتوجّهه في حركة حياته وقصده وغايته هو باتّجاه الآخرة ..

.. ولكنَّ هذه الإرادة لا تصل إلى غايتها المطلوبة إلاَّ بالمباشرة بأخذ أسباب الوصول إلى هذه الغاية ، وهي السعي والإيمان والعمل بمنهج الله تعالى الذي أراده للبشر ، والذي يؤدّي السير فيه إلى تحقيق إرادة الإنسان في الآخرة ، ولذلك جاء النصّ القرآني ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ ..

.. فالإرادة تتحوّل إلى مشيئة من خلال العمل بالأسباب التي تؤدّي إلى تحقيق غاية هذه الإرادة .. ولا بدّ لامتحان البشر من توفير الأسباب التي تفصل إرادهم عن مشيئتهم ، حتّى يباشروا العمل في هذه الأسباب ، كلٌّ باتّجاه غايته التي يريد ، ولذلك كانت هذه الأسباب جميعها من عطاء الربوبيّة لجميع البشر مؤمنين وكافرين ﴿ عَطَآءِ رَبِّكَۚ ﴾ ..

﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾

وإنّ التفاضل في السيطرة على توجيه الأسباب في الحياة الدنيا ، هو لحكمة إلهيّة غايتها اختبار نفوس البشر ، من خلال إحاطتها بأسباب الاختبار التي اختارها الله تعالى بناءً على علمه بهذه النفوس ..

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

.. ولننظر إلى هذه الصورة القرآنيّة ..

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدّثّر : ٣٦ – ٣٧]

إنَّ تقدّم الإنسان وتأخّره في مسألة الإيمان ، لا يكون بالإرادة وحدها ، وإنّما يكون من خلال المشيئة ، لأنّ ذلك يحتاج إلى الأخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى ذلك ، ويكون ذلك باتّباع منهج الله تعالى والالتزام به .. ولذلك جاء النصّ القرآني ﴿ **لِمَن شَآءَ مِنكُمْ** ﴾ ، ولم يأت (لمن أراد منكم) ..

ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال : ٣١]

لقد جاء النصّ القرآني ﴿ **لَوْ نَشَآءُ** ﴾ ، ولم يأت (لو نريد) ، لأنَّ القول يحتاج – بالإضافة إلى الإرادة – إلى أسبابٍ لصياغة الكلام الذي في نفوسهم في قالب لغوي ، وبعد ذلك إخراج هذه القول (الذي تمّت صياغته في قالب لغوي داخل النفس) إلى عالم الحسّ ليسمعه الناس .. فالذي يقوله هؤلاء هو أنّ هذا الكلام (المعنى) يُوجد بداخلنا مثله ، ولو نشاء لصغناه بقالبٍ لغويٍّ وأخرجناه إلى عالم الحسّ عبر الذبذبات الصوتيّة ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٤٩ – ٥٠]

.. إنَّ تحديد جنس المولود (ذكراً كان أم أنثى) يتعلّق بأسباب خلقها الله تعالى ، وحدَّد لها قوانينها الخاصّة بها ، فنوع النطفة التي تصل أوّلاً إلى البويضة وتُلَقِّحُها هو ما يحدّد جنس المولود .. وهذه المسألة وأسبابها هي داخل إطار مشيئة الله تعالى ، فالنطفة وحركتها وكلّ ما هو مُودع فيها ، وكذلك البويضة وجميع أسباب حصول هذه المسألة ، كلُّ ذلك مخلوقٌ لله تعالى ، ويعمل بقدرته وحسب قوانينه التي حدَّدها في هذا العالم المادّي .. وقد شاء الله تعالى لهذا الجيل أن يطّلع على بعض جوانب هذه المسألة ، وأن يقوم بدراسة الجوانب المادّيّة لهذه الأسباب ..

لذلك نرى أنَّ هذه المسألة أتت مرتبطة بالمشيئة ، ولم تأت مرتبطة بالإرادة .. فلو جاء النصّ القرآني (يَهب لمن يريد إناثاً ويَهب لمن يريد الذكور .... ويجعل من يريد عقيماً) ، لما كان للأسباب دورٌ في تحديد جنس المولود ، ولما كان لها دورٌ في مسألة العقم ، وعندها لا يمكن للبشر طرق أيّ باب من أبواب هذه المسألة ، لأنّه – في هذه الحالة المفترضة – لا تُوجَد أسباب يمكن للبشر دراستها وإجراء التجارب عليها ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ [الزمر : ٤]

إنَّ مسألة عدم اتّخاذ الولد التي يريدها الله تعالى ، هي مسألة تتعلّق بالغاية الإلهيّة ، لذلك جاء النصّ القرآني ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ ﴾ ، ولم يأت (لو شاء الله) .. أمّا مسألة الاصطفاء من خلقه ، فهي مسألة حسيّة مادّيّة في عالم المادّة والمكان والزمان ، تنتمي إلى ساحة المشيئة ، ولذلك أتى النصّ القرآني ﴿ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ ، ولم يأت (ما يريد) ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا ﴾ [الكهف : ٨٢]

نرى أنَّ الغاية — وهي بلوغ الغلامين أشدّهما — لم تتحقّق بعد ، ولم يأت وقت نزول هذه الغاية إلى عالم الوجود .. فالغاية ما زالت في مرحلة الإرادة ، ولم تتفاعل بعد مع أسباب تحقيقها ، لذلك أتى النصّ القرآني ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ولم يأت (فشاء ربّك) ..

.. وهذه صورة أُخرى ..

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢]

إنَّ إطار التذكّر والشكر لا يتعدّى ساحة إرادة الذات ، ولا يحتاج لأسباب ماديّة تخرجه إلى ساحة الحس ، فهو لا يخرج من النفس .. ولذلك أتى النصّ القرآني ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ولم يأت (لمن شاء أن يذكّر أو شاء شكوراً) ..

.. ولنقف عند النقاط التالية ، حيث يبيّن لنا كتاب الله تعالى أهم الفوارق بين مسألتي الإرادة والمشيئة ..

١ — بما أنّ الإرادة هي غاية النفس وقصدها وهدفها ، وهي دون الأسباب ، فهي ترتبط بالنفس المجرّدة مباشرةً ، وبالتالي فساحة الإرادة هي ما فوق المادّة والمكان والزمان .. ولمّا كانت الساحة التي تنتمي إليها النفس المجرّدة لا تحمل المتناقضات للمسألة الواحدة (كما رأينا في عدم تصوّر العقل لأن يكون الواحد — كقيمة مجرّدة — أكبر من الاثنين) ، فإنّ الإرادة أيضاً لا تحمل المتناقضات للمسألة الواحدة في الوقت ذاته ..

هذه الحقيقة نراها واضحةً جليّةً في القرآن الكريم عبر عدم تعلّق الإرادة الواحدة بمسألتين متناقضتين ..

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢]

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦]

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥]

﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩]

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب : ١٧]

﴿ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الزمر : ٣٨]

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠]

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح : ١١]

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠]

.. نرى من خلال هذه النصوص القرآنيّة أنَّ المسألتين المتناقضتين لا يمكن أن ترتبطا بمسألة واحدة ، وأنَّ لكلٍّ منهما إرادة خاصّة ترتبط بها .. ففي المثال الأوّل نرى أنّ اليسر والعسر مسألتان متناقضتان ، لذلك ارتبطت كلٌّ منهما بإرادة مستقلّة ، بمعنى وردت إرادة لليسر وإرادة للعسر ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ ، و لم يأت النصّ القرآني على الشكل (يريد الله بكم اليسر ولا العسر) .. وكذلك نرى أنَّ الشرّ والرشد في الآية الأخيرة مسألتان متناقضتان ، لذلك نرى أنَّ كلاً منهما ارتبطت بإرادة مستقلّة .. ومردّ ذلك أنّ الإرادة تنتمي لعالم ما فوق المادّة والمكان والزمان الذي لا تجتمع فيه المتناقضات ..

لقد رأينا في بحث الروح والنفس كيف أنّ الفكر النظري المجرّد المرتبط مباشرة بالعقل ، المرتبط بدوره بالنفس المجرّدة ، لا يمكنه تصوّر مسألتين متناقضتين للأمر ذاته .. ومردّ ذلك (سواء العقل النظري المجرّد أم الإرادة) هو الانتماء إلى عالم النفس المجرّدة الذي لا تجتمع فيه المتناقضات ..

.. أمّا إذا كانت المسألتان غير متناقضتين ، فيمكن أن ترتبطا بإرادة واحدة ..

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦]

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ [النساء : ٩١]

﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٦]

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١]

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٧]

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥]

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٨٥]

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩]

.. نرى في خلال هذه النصوص القرآنيّة أنّ الإرادة ترتبط في كلّ مرّة بمسألتين ليستا متناقضتين ..

أمّا المشيئة التي لها علائقها في عالم المادّة والمكان والزمان (ذلك العالم الذي يحوي المتناقضات) عبر تفاعلها مع الأسباب ، فمن الممكن أن تتعلّق بمسألتين متناقضتين ..

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : ٢٦]

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩]

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٣٩]

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدّثّر : ٣٦ – ٣٧]

وهكذا نرى أنّ المشيئة التي ساحتها عالم المادّة والمكان والزمان ، يمكنها أن تتعلّق في الوقت ذاته بالمسائل المتناقضة ، وذلك على نقيض من الإرادة التي لا تحمل إلاّ وجهاً واحداً ..

وقد رأينا في بحث الروح والنفس ، كيف أنّنا نستطيع تصوّر ارتفاع درجة الحرارة يؤدّي إلى انكماش أقطار الجسم ، في الوقت الذي نستطيع أن نتصوّر فيه أنّ هذا الارتفاع يؤدّي إلى تمدّد أقطار هذا الجسم ، ومرجع ذلك – سواء تصوّراتنا المادّيّة أم المشيئة – هو التعلّق بعالم المادّة والمكان والزمان ، الذي يحوي المتناقضات ..

٢ – إنّ الإرادة التي لا تحمل إلاّ وجهاً واحداً هي مسألة لا تحتمل المسألة المناقضة للمسألة المُرادة ، فعندما تتعلّق الإرادة بمسألة فهذا يعني أنَّ المسألة المناقضة لها غير واردة ، ومرجع ذلك – كما قلنا – هو انتماء الإرادة لعالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ..

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾ [المائدة : ٤١]

﴿ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ ﴾ [يونس : ١٠٧]

﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ [الرعد : ١١]

﴿ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ ﴾ [الأحزاب : ١٧]

﴿ إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس : ٢٣]

﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا ﴾ [الفتح : ١١]

لذلك نرى أنَّ من كانت إرادته متعلّقةً بحرث الدنيا ، لا يمكن أن تتعلّق بحرث الآخرة ، لأنَّ الدنيا نقيض الآخرة ، وبالتالي ما له في الآخرة من نصيب ..

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠]

.. أمّا المشيئة التي يمكنها أن تحمل المسائل المتناقضة ، فإذا تعلّقت بمسألة فهذا يعني أنَّ احتمال وقوع نقيضها وارد ..

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [المائدة : ٤٨]

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ ﴾ [الأنعام : ١٠٧]

﴿ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩]

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ [يونس : ٩٩]

نرى من خلال هذه النصوص القرآنيّة أنَّ المشيئة المتعلّقة بمسألة ما ، يمكنها أن تحمل إمكانيّة وقوع المسألة المناقضة لها ، وذلك على نقيض من الإرادة .. فمثلاً في الآية الأخيرة نرى أنَّ مشيئة الله تعالى المتعلّقة بهذه المسألة بإمكانها حمل المسألتين المتناقضتين في الوقت نفسه ، فأهل الأرض يمكنهم أن يؤمنوا ويمكنهم أن يكفروا ، وبورود صيغة المشيئة نرى أنَّ إمكانيّة حصول الاحتمالين المتناقضتين (الإيمان والكفر) واردة ، ولو اُستبدلت صيغة المشيئة بصيغة الإرادة لأصبح لدينا احتمال واحد دون الآخر ..

.. لننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

[الشورى : ٤٩ — ٥٠]

نحن نعلم أنَّ تحديد جنس المولود يتعلّق بأسباب ماديّة ، وبالتالي بساحة المشيئة ، وبالتالي فمن الممكن للبشر أن يقوموا بتحديد جنس المولود ، حينما يتمكّنون من توجيه أسباب حدوث هذه المسألة باتّجاه مُرادهم .. وقد حصل ذلك ..

ولو كانت هذه المسألة متعلّقةً بالإرادة دون المشيئة ، لكانت ساحة تفاعلها فوق عالم الخلق والتشيّؤ (عالم المادّة والمكان والزمان) ، وَلَمَا استطاع البشر تحديد جنس المولود ..

فلو قال الله تعالى (ويجعل من يريد عقيماً) بدلاً من قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ لاستحال شفاء العقيم ، وذلك لسببين اثنين :

أ – رأينا أنَّ تعلّق إرادة الله تعالى بشيء ، يعني أنَّ احتمال وقوع نقيضه مستحيل ، فإرادة الله تعالى حينما تتعلّق بعقم فلان من الناس فهذا يعني أنّه من المستحيل أن يُنجب ..

ب – الإرادة هي دون الأخذ بالأسباب ، ولو تعلّقت مسألة العقم هذه بالإرادة فهذا يعني أنّه لا أسباب لهذه المسألة يسخّرها الله تعالى بين أيدي البشر ، وعند ذلك من أين للأطباء أن يقوموا باستخدام أسباب شفاء العقيم ..

ولكن بورود هذه المسألة بصيغة المشيئة ، نرى أنَّ احتمال وقوع نقيضها وارد ، فالعقيم أحياناً يشفى وينجب .. وكذلك الأمر لكلِّ المسائل المتعلّقة بالمشيئة ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [آل عمران : ٦]

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم : ٤٨]

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٧ – ٨]

لذلك نرى أنَّ إمكانيّة الاستنساخ البشري واردة ، وأنَّ إمكانيّة التأثير على صورة المولود واردة بعد اكتشاف الخريطة الجينيّة للإنسان ، وأنّ إمكانيّة الاستمطار واردة .. فكلّها مسائل تحدث عبر أسباب ماديّة ، ولذلك نراها في كتاب الله تعالى متعلّقةً بالمشيئة الإلهيّة ، وليس بالإرادة ..

٣ – في الآخرة يملك أهل النار إرادة ، ولا يملكون مشيئة .. وأهل الجنّة إرادتهم هي دائماً مشيئة ..

ففي الدنيا دار العمل والاختبار ، لا بدّ من تسخير أسباب العمل والاختبار للجميع .. ولكن في الآخرة دار الثواب والعقاب ، ما هو مصير الأسباب ؟ .. وكيف تتفاعل معها النفس ؟ .. وهل تعمل للجميع مؤمنين وكافرين كما كانت في الحياة الدنيا ؟ ..

إنّ الأسباب في الآخرة يجعلها الله تعالى لا تستجيب أبداً لأهل النار ، فتكون ضدّهم وليست لهم ، لأنّهم عندما اُختبروا في الحياة الدنيا ، وائتمنوا عليها ، أخذوا بها باتّجاه الشرّ ، وبنقيض ما أراده الله تعالى ، ولذلك فإرادتهم لا يمكنها الوصول أبداً إلى ساحة المشيئة ، لأنَّ الأسباب لا تستجيب لهم .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم ، الذي يبيّن أنَّ غاياتهم لا تتعدّى إطار المشيئة .. فجميع النصوص القرآنيّة المصوّرة لغاياتهم ، تأت متعلّقة بالإرادة ، و لم يأت نصٌّ واحدٌ منها متعلّقاً بالمشيئة ..

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة : ٣٧]

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢]

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة : ٢٠]

فلو أتى نصٌّ قرآنيٌّ يشير إلى امتلاكهم للمشيئة ، لكان من الممكن أن يخرجوا من النار ، ولكانت الأسباب تعمل بين أيديهم ..

أمّا أهل الجنّة الذين أدّوا الأمانة — في حياتهم الدنيا — في أخذهم بالأسباب وفق منهج الله تعالى ، فإنَّ الله تعالى يجعل هذه الأسباب تعمل وفق مُرادِهم ، دون أن يبذلوا أيَّ جهدٍ للأخذ بها ، فبمجرّد ما يخطر ببالهم شيء ويريدونه ، يجدونه أمامهم دون بذل أيِّ جهد بالأسباب التي تُخرج إرادتهم إلى عالم المشيئة .. وهكذا نرى أنَّ إرادة أهل الجنّة هي دائماً مشيئة .. وهذه الحقيقة يبيّنها لنا كتاب الله تعالى ، فجميع النصوص القرآنيّة المصوّرة لغاياتهم تأتي متعلّقة بالمشيئة ، و لم يأت نصّ منها متعلّقاً بالإرادة ..

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ [النحل : ٣١]

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾ [الفرقان : ١٦]

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٣٤]

﴿ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ ﴾ [الزمر : ٧٤]

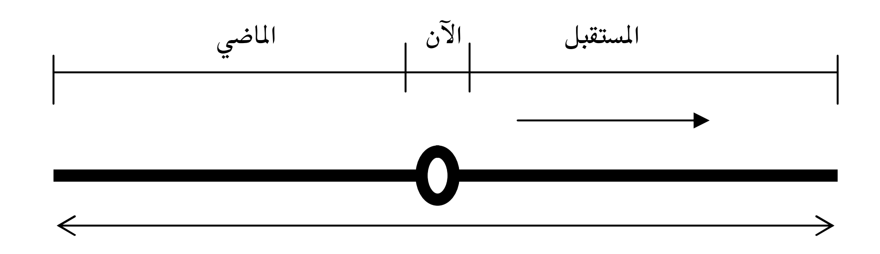
﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [الشورى : ٢٢]

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾ [ق : ٣٥]

فلو أتى نصٌّ يشير إلى تفاعلهم مع نعيم الجنّة بالإرادة ، لكان بينهم وبين تحقيق مُرادهم فاصلٌ من الأسباب ، ولكانوا بحاجة للعمل ، ولتنافى ذلك مع نعيم الجنّة ..

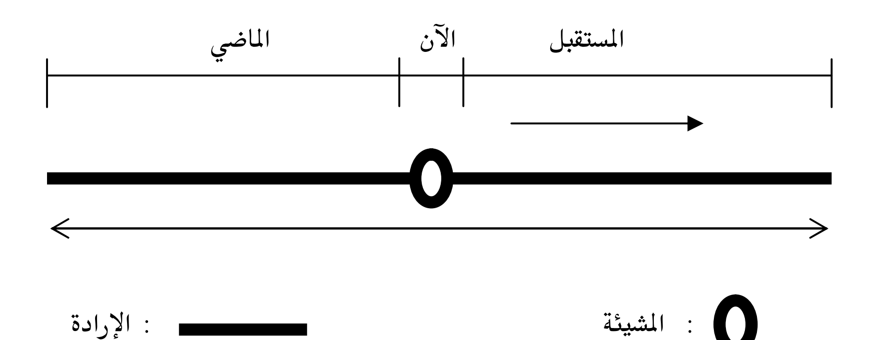
ممّا سبق نستنتج المعادلة التالية ..



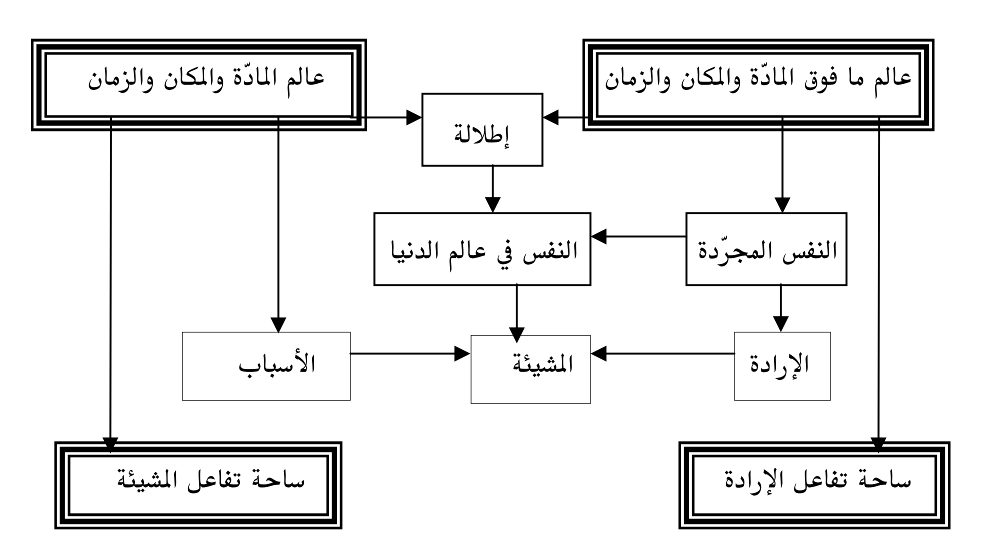


: إطلالة النفس الآنيّة على عالم المادّة

: النفس المجرّدة



وكما رأينا في بحث الروح والنفس أنَّ النفس المجرّدة تمتدّ على محور الزمن بشكلٍ ثابت ، كونها خارج إطار قوانين عالم المادّة والمكان والزمان ، وأنَّ إطلالتها على هذا العالم تتحرّك على محور الزمن ، من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ، بسبب الجسد المادّي .. نرى أيضاً أنَّ الإرادة تمتدّ على محور الزمن بشكلٍ ثابت ، كونها خارج إطار قوانين عالم المادّة والمكان والزمان ، وأنَّ المشيئة تتحرّك على محور الزمن بسبب تعلّقها بالجزئيّات الماديّة (الأسباب) المحكومة بقوانين الزمان والمكان ..



وبما أنّنا لا نخلق الأسباب التي تفصل إرادتنا عن مشيئتنا ، ولا نملكها ، وأنَّ هذه الأسباب تأخذ حيثيّات وجودها في كلّ لحظة من الخالق جلّ وعلا ، وأنّ كلّ ما نستطيعه هو دفْع هذه الأسباب باتّجاه إرادتنا ، فإنَّ مشيئتنا تتعلّق بمشيئة من يملك هذه الأسباب ويسخّرها بين أيدينا ، وهو الله تعالى ..

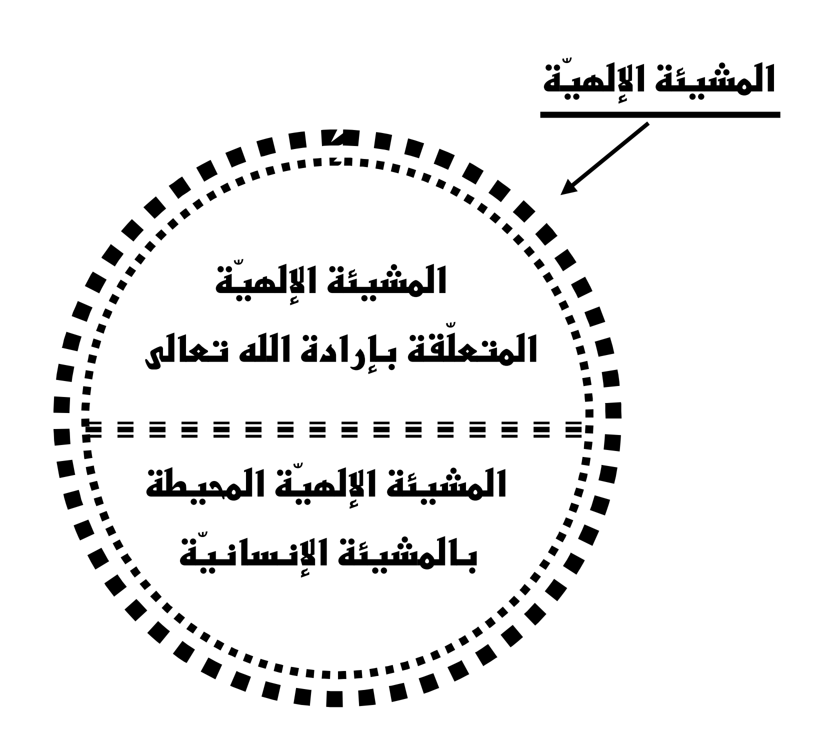
﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠]

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩]

.. إذاً .. لا مشيئة للإنسان إلاّ ضمن إطار مشيئة الله تعالى ... فالمشيئة الإلهيّة تتكوّن من شقّين :

أ – المشيئة الإلهيّة المتعلّقة بإرادة الله تعالى ، عبر تفاعل الأسباب لتحقيق المُراد الإلهي ..

ب – المشيئة الإلهيّة المحيطة بالمشيئة الإنسانيّة ، عبر تسخير الله تعالى للأسباب بين يدي الإنسان لتحقيق مراده ..



.. وهكذا .. فالإنسان لا يستطيع أن يشاء شيئاً إلاّ ضمن إطار مشيئة الله تعالى ، لأنَّ الأسباب التي يستخدمها لتحقيق مراده ، مخلوقة لله تعالى ، وتستمدّ حيثيّات

وجودها في كلّ لحظة من الخالق جلّ وعلا .. ولكنّ إرادة الإنسان مستقلّة تماماً عن إرادة الله تعالى ..

إنَّ حريّة الاختيار التي يقتضيها امتحان الإنسان تقتضي امتلاك الإنسان لإرادة حرّة مستقلّة تنبع من ذاته .. ولذلك قد يريد الإنسان نقيض ما يريده الله تعالى ..

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

وقولنا هذا لا يعني — كما يلبّس بعضهم على الحقيقة — أنَّ إرادة الإنسان الضالّة قد حلّت مكان الإرادة الإلهيّة ، وأنَّ الله تعالى عاجزٌ عن ردع هذه الإرادة الضالّة ، تعالى الله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ..

لقد أمر الله تعالى بتنفيذ أحكام منهجه .. فهل عدم استجابة العصاة لهذا الأمر الإلهي ، ناتجٌ عن عجز الله تعالى وعدم قدرته على هؤلاء البشر ؟!!! .. إنَّ المسألة مسألة امتحان عادل حكيم ، وبالتالي فلا بُدَّ للمُمتَحَن من أن يملك إرادة حرّة مستقلّة في توجّهه نحو الخير والشر ..

إنَّ العسر مسألةٌ موجودةٌ بين البشر ، فكثيرٌ من البشر يفعلون العسر مع بعضهم بعضاً ، عن إرادة مسبقة .. مع أنَّ الله تعالى لا يريد العسر ، ويريد نقيضه (اليسر) ..

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

والظلم مسألة موجودة بين البشر ، يفعلونه بين بعضهم بعضاً ، عن إرادة مسبقة ، مع أنَّ الله تعالى لا يريد ظلماً لهؤلاء البشر ..

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٨]

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣١]

ومعظم البشر يلهثون خلف عرض الدنيا الزائل ، عن إرادة مسبقة ، مع أنَّ الله تعالى يريد لهم نقيض ذلك وهو الآخرة ..

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

واستدلال بعضهم بالآية التالية ، على أنَّ كلَّ ما يحصل في هذا الكون يريده الله تعالى ، هو استدلالٌ باطل ..

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إنَّ هذه الآية الكريمة تبيّن لنا أنَّ كلَّ شيء يريده الله تعالى أن يكون ، سيكون ، ولا تقول هذه الآية الكريمة إنَّ كلَّ ما يكون يريده الله تعالى .. فقد رأينا كيف أنَّ العسر والظلم والركض وراء عرض الدنيا الزائل مسائل كائنة بين البشر ، مع العلم أنَّ الله تعالى لا يريدها ، ويريد نقيضها ..

وفي الإرادة الإلهيّة ، يجب أن نميّز بين وجهين متمايزين لهذه الإرادة ..

١ – الإرادة الكونيّة : ويتعلّق بها إيجاد الأشياء التي يريدها الله تعالى أن تكون في هذا الكون ..

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠]

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

فالله تعالى يقول ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ﴾ ويقول ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا ﴾ ، وبالتالي فالساحة التي تتعلّق بهذه الإرادة هي ساحة الأشياء ، التي تخرج على الوجود عبر تفاعل هذه الإرادة مع الأسباب الماديّة .. والله تعالى لم يقل (إنّما قولنا لأمر) ولم يقل (إذا أراد أمراً) .. وفي هذا دليل الإرادة الكونيّة التي يتعلّق بها إيجاد الأشياء ..

٢ – الإرادة الشرعيّة : ويتعلّق بها منهج الله تعالى ، وأمرهُ الشرعي للعباد باتّباع أحكامه .. وإرادة الإنسان في حياته الدنيا قد توافق هذه الإرادة إذا التزم الإنسان بمنهج الله تعالى ، وقد تختلف إرادة الإنسان عن هذه الإرادة إذا خرج الإنسان بقصده وعمله عن منهج الله تعالى ..

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٢٦ – ٢٧]

إرادة الله تعالى الشرعيّة غايتها – كما نرى – التبيان لنا ، وهدايتنا ، والتوبة علينا .. فهل جميع البشر اتّبعوا هذا التبيان وهذه الهداية ؟ .. وهل جميعهم فازوا بتوبة الله تعالى عليهم ؟ ..

.. وهكذا نرى أنّ المشيئة الإلهيّة قد تحمل الشر ، وذلك في شقّها المتعلّق بتنفيذ مُراد الإنسان عبر تسخير الأسباب بين يديه ، أي بشقّها المحيط بالمشيئة الإنسانيّة .. بينما الإرادة الإلهيّة لا تحمل الشرّ أبداً ، فالإرادة – كما رأينا – لا تحمل المتناقضات ، ولذلك فالله تعالى الذي يريد الخير لا يريد الشرّ أبداً ..

لذلك نرى في الآية الكريمة ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ، أنَّ إرادة الشرّ تأتي بصيغة المبني للمجهول ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، بينما إرادة الرشد نراها ترتبط بالذات الإلهيّة ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ..

وقد يتيه بعض الناس في إدراك عمق النصوص القرآنيّة التي ترتبط فيها إرادة الله تعالى بمسائل يكون ظاهرها (من المنظار الدنيوي المحكوم للغيب الذي ينظر منه بعض البشر) حاملاً الظلم للإنسان ، وقد يحسب بعض الناس أنّ مسائل الضلال والسوء والهلاك والفتنة والعذاب وعدم تطهير قلوب بعض البشر وعدم جعل حظّ لهم في الآخرة ، تنبع من الإرادة الإلهيّة وغايتها ، وأنّه لا علاقة لغاية الإنسان وإرادته بهذه المسائل ..

لقد رأينا في هذا البحث أنَّ إرادة البشر توجّه غاياتهم ، وأنّها تنبع من أنفسهم المجرّدة التي تنتمي لعالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، ولا يمكنها أن تحمل في الوقت نفسه المسائل المتناقضة .. لذلك فإرادة الكفر والشرّ المتعلّقة بأنفس بعض البشر ، يستطيع أصحابها ترجمة جزء منها – حسب ما يستطيعون من خلال أخذهم بالأسباب – إلى أفعال الكفر والشر ، ولا يمكن أن يترجموها إلى أفعال الإيمان والخير ، لأنَّ الإرادة التي تعلّقت بمسائل الكفر والشرّ ، لا تحمل المسائل المناقضة لها كالإيمان والخير ..

والله تعالى العالم علماً مطلقاً بهذه الإرادة وبحقيقة غايتها – سواءٌ المترجمة إلى أعمال في عالم الحسّ والوجود أم التي بقيت في نفوسهم دون ترجمة – والذي يملك جميع الأسباب التي من الممكن أن يستخدمها أصحاب هذه الإرادة ، قد تتجّه إرادته جلّ وعلا باتّجاه ترك الإرادة الإنسانيّة – التي لا يمكنها إلاّ حمل الكفر والشرّ والضلال – بأن تتفاعل مع الأسباب التي سخّرها لها ، من أجل ترجمة كفرها وضلالها وسوئها إلى شواهد حسيّة ، تكون شاهداً على الإنسان يوم القيامة ..

لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٦]

إنّنا نرى أنّ الإرادة الإلهيّة التي تعلّقت بعدم جعل حظٍّ لهؤلاء في الآخرة ، هي نتيجة لارتباط إرادتهم بالكفر .. فإرادتهم التي ارتبطت بالكفر ، والتي يترجمون جزءاً منها إلى عالم الحسّ **﴿ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ ﴾** ، لا يُمكن أن تتعلّق بالإيمان ، وبالتالي لا يمكن أن يكون لهم حظٌّ في الآخرة ..

إنّ إرادتهم هذه التي يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً ، بعيداً عن قوانين المكان والزمان ، تركها الله تعالى تتفاعل مع الأسباب التي خلقها ، لكي تخرج إلى عالم الحسّ ، عبر أفعال

وأعمال ستكون شاهداً على حقيقة هذه الإرادة يوم القيامة ، وبالتالي لا يكون لهم حظٌ في الآخرة ، نتيجةً لهذه الأعمال التي قاموا بها بحرّيّة تامّة ..

وهكذا نرى أنَّ اتّجاه إرادة الله تعالى بترك إرادهم تُترجم — عبر الأسباب — إلى شواهد حسيّة على كفرهم ، وما يترتّب على ذلك من خسرانهم للآخرة ، لا يعني أنّ الإرادة الإلهيّة هدفها وغايتها عدم جعل حظٍّ لهم في الآخرة ، ولا يعني أنّ الإرادة هي التي دفعتهم باتّجاه الكفر الذي يترتّب عليه خسران الآخرة ..

.. ولننظر إلى الآية الكريمة ..

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٤١]

إنّنا نرى أنَّ إرادة الله تعالى التي ارتبطت بفتنتهم واختبارهم **﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ ﴾** عبر وضعهم بين أسباب الفتنة والاختبار ، هي ترك إرادهم الكافرة تترجم إلى أفعال وأعمال ، كما نرى في هذه الآية الكريمة من أقوال وأفعال قاموا بها بحرّيّة تامّة ، مخالفين فيها منهج الله تعالى الذي أنزله وأراده للناس جميعاً ..

وهذه الأقوال والأفعال التي قاموا بها حسب غاية إرادهم ، تؤدّي بقلوبهم إلى الابتعاد عن الطهارة ، والله تعالى الذي يريد امتحانهم عبر أسبابٍ سخّرها لذلك ، اتّجهت إرادته باتّجاه تركهم القيام بهذه العمال بحرّيّة تامّة **﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن**

﴿ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ ، وبالتالي ابتعاد قلوبهم عن الطهارة .. وهذا لا يعني أنَّ الإرادة الإلهيّة اتّجهت باتّجاه دفْع قلوبهم باتّجاه نقيض الطهارة ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ۝ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٤ — ٥٥]

نرى أيضاً أنَّ الإرادة الإلهيّة التي ارتبطت بعذابهم في الحياة الدنيا ، وأن تزهق أنفسهم وهم كافرون ، هي ترك إرادتهم الكافرة تتفاعل مع أسباب الامتحان المحيطة بهم ، وتُترجَم إلى أعمال — نراها في الآية الأولى — تؤدّي بهم إلى العذاب والكفر ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۝ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٥ — ١٦]

إنَّ إرادة الله تعالى التي ارتبطت بهلاك القرية الفاسدة كما نرى ، لا تحمل الظلم والشرّ لأهل هذه القرية ، وذلك من زاوية الغيب الذي يعلمه الله تعالى ، وفي ميزان الآخرة ..

فالله تعالى يعلم بعلمه المطلق الفسقَ الذي تتعلّق به إرادة أهل هذه القرية ، والذي سيترجمونه إلى عالم الوجود الحسّي عندما تُتاح لهم الأسباب التي تمكنهم من ذلك ، وهذه الإرادة التي ارتبطت بالفسق والعصيان لا يمكنها أن ترتبط بنقيض ذلك ، لذلك مهما عاش أهل هذه القرية ، فلا يمكن أن تصدر عنهم إلاّ أفعالٌ سيئة فاسقة ، فإرادتهم لا تحمل غير ذلك ..

لذلك فإنَّ وضْع حدٍّ لفسقهم وعصيانهم ، وبالتالي وضْع حدٍّ للآثام التي المترتّبة على هذا الفسق والعصيان ، هو في حقيقته ومن الزاوية التي يُرى منها الغيب — كما رأينا في قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح — لا يحمل الشرَّ لهم ، بل يجنّبهم التمادي في الفسق والعصيان وازدياد ذنوبهم ، وما يترتّب على ذلك من عقاب في الآخرة .. فهل هناك من شرٍّ أكبر من بقائهم على فسقهم وعصيانهم وما يترتّب عليه من آثام ؟ ..

لذلك نرى أنَّ إرادة الله تعالى بهلاكهم ، لا تحمل الظلم ، بل هي إنقاذٌ لهم من آثامٍ كانوا سيرتكبونها لو لم يهلكوا .. فالله تعالى يريد نتيجة الأمور ، من منظار الحياة الحقيقيّة ، ونحن نريدها من منظار الدنيا الزائلة ..

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

وحتّى من الزاوية التي ينظر منها البشر ، فإنّ هلاك هذه القرية الفاسقة ليس ظلماً ، لأنّه كان جزاءً على فسقهم ومعصيتهم ، بعد أن أبلغهم الله تعالى منهجه وحذّرهم من الفسق والعصيان .. إنّ حقيقة الظلم تنبع من إرادة أهل هذه القرية ..

لقد قال الله تعالى في بداية هذه الصورة القرآنيّة **﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾** ، وقال في موضع آخر .. **﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾** [القصص : ٥٩] ..

لقد أخبر الله تعالى أهل هذه القرية ، فالعبارة **﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾** تنقل لنا صورة إعلامهم .. فهذه القرية الهالكة أفرادها ظالمون مترفون ، وإلاَّ لما استحقّوا الهلاك ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ لفظ **﴿ قَرْيَة ﴾** في القرآن الكريم يصوّر لنا الجانب الفكري

العقائدي المعنوي من التجمعات البشريّة ، كما بيّنا في النظريّة الثالثة (الحق المطلق) ..

إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ تصوّر لنا صورة إعلام أهل هذه القرية ..

ولكن بماذا أمرهم ؟ .. لقد أمرهم باتّباع منهجه وعدم مخالفة رسله ..

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠]

ثمّ إنَّ العبارة ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ تبيّن لنا أنَّ الأمر كان أمراً بطاعة الرسل واتّباع منهج الله تعالى ، فالفسق هو الخروج على الأمر ، وبالتالي فالأمر كان بالطاعة ..

وبعد إتمام جميع شروط الامتحان نرى أنَّ أهل هذه القرية قد فسقوا وظلموا ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ ، وبذلك حقّ على هذه القرية القول والنتيجة العادلة التي بيّنها الله تعالى لهم وحذّرهم منها ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ ..

ولننظر إلى باقي النصوص القرآنيّة التي ترد فيها كلمة أراد ومشتقّاتها بشكلٍ قد يتوهّم من خلاله ضعيفو الإدراك بتعلّق الإرادة الإلهيّة بالشر ، لنرى كيف أنَّ سياق الحديث السابق واللاحق للعبارات القرآنيّة التي تحوي الإرادة الإلهيّة يبيّن لنا تولّي من تعنيهم هذه الإرادة الإلهيّة ، وفسقَهم ، وعدمَ إيمانهم ، وكفرَهم ، وعدمَ اتّباعهم لمنهج الله تعالى ، والتغييرَ في نفوسهم والذي يؤدّي إلى انتمائهم لساحة من يستحقّون متعلّقات هذه الإرادة ، وإتيانهم الفتنة ..

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٩]

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥]

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤ – ٨٥]

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٢ – ٣٤]

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١]

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٣ – ١٧]

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس : ٢٣]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨]

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [الفتح : ١١]

وهكذا نرى أنَّ الإرادة الإلهيّة لا تحمل الظلم للإنسان ، وبالتالي تحمل له العدل والخير ، وإنّ ارتباط هذه الإرادة أحياناً بمسائل كالضلال والفتنة والسوء ، كان نتيجة

اتّجاه إرادة الإنسان نحو غايات تؤدّي إلى هذه المسائل ، حيث ارتبطت إرادة الله تعالى بترك الإرادة السيّئة الضالّة للإنسان تُترجم – عبر الأسباب المخلوقة لله تعالى – إلى عالم الوجود الحسّي ..

ومرجعيّة ارتباط الإرادة الإلهيّة بهذه المسائل ، هي تسخير الله تعالى للأسباب التي يأخذ بها الإنسان ، من أجل إخراج إرادته السيّئة من جهة ، والحكمة الإلهيّة المطلقة الهادفة لامتحان هذا الإنسان في حياته الدنيا من جهة أُخرى .. وهذا لا يحمل الظلم للإنسان المُمتَحَن في هذه الدنيا ، والذي تعهّد بحمل الأمانة في اختيار منهج الله تعالى واتّباع رسله عليهم السلام ..

ولنقف عند مسألة الأسباب التي يتيه فيها الكثيرون ، فينسون المُسَبِّب جلّ وعلا ، ويخلطون بين هذه الأسباب المجرّدة عن قِيَم الخير والشر ، وبين الإرادة الإنسانيّة التي تقف وراء دفْع هذه الأسباب باتّجاه الخير والشر ..

إنَّ خواصّ المادّة وقوانينها المودعة فيها ، تعمل بقدرة الله تعالى ومشيئته ، والله تعالى الذي وضع هذه القوانين وهذه الخواص ، يستطيع سحبها متى شاء .. وقد حصل ذلك في قصّتي إبراهيم وموسى عليهما السلام ، لقد سحب الله تعالى خاصّة الإحراق من النار بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ، عندما حاول الكفّار حرقه ، وسحب خاصّة الاستطراق من الماء بالنسبة للبحر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه ..

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨ – ٦٩]

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣]

وإنّ حكمة الامتحان في الحياة الدنيا تقتضي حدوث الأشياء عن طريق الأسباب المؤدّية إليها ، فالأمانة التي عُرضَت على المخلوقات وتعهّد الإنسان بحملها ، هي الائتمان على الأسباب (كما بيّنا في كتاب قصّة الوجود) ، ودفْعُها باتّجاه مراد الله تعالى .. وقد حثّ الله تعالى الإنسان على الأخذ بالأسباب ، وسيحاسبه إن هو تخاذل في الأخذ بالأسباب باتّجاه الخير وباتّجاه السير في منهج الله تعالى ..

ولذلك نرى أنَّ الله تعالى عندما يريد مساعدة أنبيائه ورسله يأمرهم الأخذ بالأسباب .. والله تعالى ليس عاجزاً عن نُصرة أنبيائه دون الأخذ بالأسباب ، ولكنَّ الأخذ بالأسباب هو سنّة إلهيّة في هذه الدنيا ، وهذا درسٌ لنا بأنّ الأخذ بالأسباب من متطلّبات خلافة الإنسان للأرض ، ومن متطلّبات امتحان البشر ..

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥]

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣]

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤١ – ٤٢]

ومسألة الأسباب وحقيقتها ، والإيمان بالمسبّب الذي يقف وراء هذه الأسباب ، هي مسألة ينظر إليها المؤمنون والكافرون من زاويتين مختلفتين ..

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٢ – ٣٦]

ما كان (الرجل الكافر) ليقول ذلك لولا كفره بمن سخّر له أسباب وجود جنّته ، التي امتحنه الله تعالى بها ، فغرّته الأسباب وحسب أنّها تعمل بعيداً عن قدرة الله تعالى ومشيئته ..

وتأتي إجابة المؤمن الذي يعلم حقيقة هذه الأسباب بأنّها مخلوقة لله تعالى ، بغية امتحان الإنسان ، وأنَّ قدرة الإنسان على توجيه بعض الأسباب أحياناً حسب غايته لا يعني أنّه خالقها ، أو أنّها بعيدة عن قدرة الله تعالى ومشيئته ..

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٧ – ٤١]

لقد ذكّره المؤمن بأسباب قيام جنّته ، وبأنّها ليست من خلقه هو ، فالهواء والماء وكلّ الأسباب التي أخرجت هذه الجنّة إلى عالم الوجود الحسّي ، هي مخلوقة لله تعالى ، وتعمل بمشيئته ، وما يفعله الإنسان هو توجيه هذه الأسباب والتوليف بينها باتّجاه غايته ، ولذلك قال له ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، ولم يقل (ما أراد الله) ، لأنَّ هذه الجنّة واقعٌ محسوسٌ يتفاعل بشكلٍ مستمرٍّ مع أسباب وجوده ..

ويبيّن الله تعالى في كتابه الكريم أنَّ توجيه الإنسان للأسباب باتّجاه إرادته لإخراج هذه الإرادة إلى ساحة المشيئة والوجود الحسّي ، لا يكون لولا تسخير الله تعالى للأسباب بين يدي الإنسان ..

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧]

فمن يدّعي من البشر أنّه أوجد الأسباب الفاعلة التي نراها في الحياة الدنيا ، عليه — على الأقل — أن يُثبت خلقها ووجودها بعد مجيئه إلى هذه الدنيا .. ومن يدّعي من البشر أنَّ الطاقة التي تفعل بها هذه الأسباب ، من اختراعه ومن عنده ، عليه القيام بسلب خواصّ هذه الأشياء حين يُطلب منه ذلك ، بعيداً عن قوانين المادّة وخواصّها .. فمن يملك الشيء ويعطيه يستطيع سحبه متى شاء ..

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٥٧ — ٧٤]

لقد صنع الإنسان واخترع وطوّر حضارته ، وكلّ ذلك كان نتيجة كشفه لبعض أسرار المادّة وخواصّها المودعة فيها مسبقاً ، ونتيجة كشفه لبعض القوانين والنظم التي تعمل بها هذه الأسباب ، ونتيجة توجيه ذلك وفق تصوّرات وأهداف استنبطها

واستقرأها الإنسان عبر تفكيره في العالم المخلوق الذي نشأ فيه ، واستمدّ منه مادّة تفكيره وتصوّراته ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩]

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢]

فكلّ ما يعمله الإنسان ويكتشفه ويصنعه يستمدّ أسباب وجوده وخواصّه ونظمه الخاصّة به من قدرة الخالق سبحانه وتعالى .. والإنسان الذي يعيش في دنيا الأسباب هذه صُبغت نفسه فيما تعوّد عليه من حتميّة وجدود أسباب تفصل المقدّمات عن النتائج .. فمن الصعب عليه تصوّر وقوع الأحداث دون أسباب تؤدّي إليها ..

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٥ – ٤٧]

ينظر الإنسان إلى مسألة الولادة كأيّ مسألة أُخرى ، لا بدّ لحدوثها من توفّر مجموعة أسباب ، كاجتماع الذكورة والأنوثة والحمل ، وجميع المراحل التي تعوّد الإنسان على رؤيتها لحصول هذه المسألة .. ومريم عليها السلام كإنسانة تعيش في عالم الأسباب ، استفسرت عن كيفيّة حدوث هذه المسألة بعيداً عن أسبابها ..

ويأتي الردّ الإلهي ليس إجابةً على هذا الاستفسار فحسب ، بل إجابة يبيّن الله تعالى بها طلاقة القدرة الإلهيّة في خلقه عزّ وجلّ للأشياء ، دون الحاجة للأسباب التي تعوّدنا عليها نحن البشر ..

﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

وهكذا نرى أنَّ الإرادة الإلهيّة لا يفصلها عن المشيئة الإلهيّة شيء ، لأنَّ الأسباب التي تُخرِج الإرادة إلى ساحة المشيئة مخلوقة لله تعالى ، ولأنَّ الله تعالى لا تحكمه قوانين المادّة والمكان والزمان التي تحكم المخلوقات .. لذلك لا شيء يفصل بين إرادة الله تعالى ومشيئته ..

إنَّ ما يخصّنا من مشيئة الله تعالى تجاهنا نحسّ به عبر تفاعل إرادة الله تعالى مع الأسباب التي سخّرها لإنجاز هذه الإرادة .. لذلك فتصوّرنا للزمن الفاصل بين إرادة الله تعالى ومشيئته ناتجٌ عن انصياعنا لقانون الزمن ، ولأنّنا لا نرى الأسباب التي تُنجز الإرادة إلاّ في وقتها ، ضمن إطار المادّة والمكان والزمان .. ولكن بالنسبة لله تعالى غير المحكوم لقانون الزمان ، فإنّه يرى الأسباب قبل حدوثها في عالم المكان والزمان ، وأثناء ذلك ، وبعده ..

أمّا الإنسان فهو مخلوقٌ تحكمه قوانين المادّة والمكان والزمان ، وإنَّ الأسباب التي تتفاعل معها إرادته باتّجاه مشيئته هي أيضاً مخلوقة ومحكومة لقوانين المادّة والمكان والزمان ، وهي ليست من خلقه هو .. لذلك فإنّ إرادة الإنسان تبعد عن مشيئته مسافة المكان والزمان اللذين تعمل بهما هذه الأسباب ..

وهكذا نرى – بالنسبة للإنسان – أنَّ المشيئة اخصّ من الإرادة ، فكلّ مشيئة سبقتها إرادة ، ولكن ليس كلّ إرادة ستنزل إلى ساحة المشيئة .. ورأينا أنَّ مشيئة الإنسان هي ضمن إطار مشيئة الله تعالى ، لأنّه لا يمكن تحقيقها إلاّ عبر الأسباب المخلوقة لله تعالى .. ولكنَّ إرادة الإنسان ربّما تغاير إرادة الله تعالى الشرعيّة ، وذلك إن أراد الإنسان شيئاً لا يريده الله تعالى ..

وكثيرون هم الذين يُفتنون بالأسباب ، ويحسبون أنفسهم أصيلين في هذا الكون ، وكأنّهم خالقون ومبدعون لهذه الأسباب .. ولو رجع هؤلاء إلى حقيقة الأمر لرأوا أنّهم

عاجزون عن توجيه هذه الأسباب الماديّة ، باتّجاه صنعة تعمل بذاتها وتتوالد وتتكاثر ، كأن يوجّهوا هذه الأسباب باتّجاه خلق ذبابة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣]

ولو كان الوصول إلى الأشياء – في هذه الحياة الدنيا – بعيداً عن الأخذ بالأسباب ، لما كان هناك اختيار في المعصية والطاعة في ساحة المادّة والمكان والزمان (ساحة امتحان الإنسان وهي ساحة الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال) ، لأنَّ الإرادة – في هذه الحالة المفترضة – لن تصل إلى مشيئة .. لذلك يُعَدُّ العمل والجد والأخذ بالأسباب من أهم مقوّمات الخلافة التي عهدها الله تعالى للإنسان ، ومن الأوامر التي جاء بها المنهج الإلهي .. فأسباب الدنيا تعمل للجميع مؤمنين وكافرين ، وتستجيب أكثر لمن يتعامل معها بإتقان أكثر ..

ولكنَّ الفارق بين المؤمنين والكافرين ، أنَّ المؤمنين يأخذون بالأسباب ويعملون بها بما أمر الله تعالى به ، وهم يعلمون أنَّ مرجعها إلى الله تعالى ، وأنّها تعمل بقوّته وبمشيئته .. أمّا غير المؤمنين فيأخذون بالأسباب ويعملون بها ، معتقدين أنّها مستقلّة عن قوّة الله تعالى ومشيئته ..

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨]

إنّ عدم إدراكهم لمسألة الأسباب وبأنّها جميعها تعمل بقوّة الله تعالى ومشيئته ، جعلهم يرجعون أسباب ما يصيبهم من سيئات إلى غيرهم ، ولذلك يقولون ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ** ﴾ ، أي بسببك ، ونتيجة للأسباب التي جلبتها علينا ، ومردّ ذلك هو عدم إدراكهم أنَّ مرجعيّة الأسباب وماهيّتها هي لله تعالى ، ولذلك جاء الردّ الإلهي ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ .. فهذه الآية الكريمة تصوّر لنا مرجعيّة الأسباب ، وبأنّها في خلقها وإيجادها وتسخيرها ، تعود إلى الله تعالى ، وهذا عين ما تنطق به العبارة القرآنيّة ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ ..

وتأتي الآية التالية لها مباشرة لتصوّر لنا حقيقة ، هي أنَّ الحسنات والسيئات في تفاعلنا مع الأسباب ، لا تعود للأسباب ذاتها ، إنّما تعود لغاية البشر وإرادتهم في توجيه هذه الأسباب ، وإلى التفاعل معها وفق القصد الذي تريده النفس .. فالأسباب التي يستخدمها بعض البشر باتّجاه الخير ، هي ذاتها يستخدمها بعضهم الآخر باتّجاه الشر ، وما يحدّد ذلك هو غاية البشر في توجيه هذه الأسباب باتّجاه الخير ، أو الشر ، وبالتالي الحصول على الحسنات أو السيئآت ..

﴿ **مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ٧٩]

إنَّ إرادة اختيار الأخذ بالأسباب والتفاعل معها باتّجاه الخير والحسنات ، مردّه التزام الإرادة بمنهج الله تعالى الذي اختاره للبشر وأمرهم الالتزام به ، والهادف إلى الخير وكلّ ما يؤدّي إلى الحسنات .. فإرادة الخير المؤدّية للحسنات تنبع من الذات الملتزمة بتنفيذ منهج الله تعالى وحكمه ، وبالتالي فمردّ ذلك هو الله تعالى مترل هذا المنهج .. وهذا ما نقرؤه من العبارة ﴿ **مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ ..

.. أمّا إرادة اختيار الأخذ بالأسباب والتفاعل معها باتّجاه الشرّ والحسنات ، فمردّه خضوع الإرادة لهوى النفس ، بعيداً عن منهج الله تعالى ، وبالتالي فمردّ اختيار هذه الذات هو نفس الإنسان ، وهذا ما نقرؤه من العبارة ﴿ **وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ ..

وهكذا .. فالإرادة الإنسانيّة الشريرة تعود للنفس البشريّة ، وتناقض إرادة الله تعالى الشرعيّة .. فالله تعالى لا يريد للبشر إلاّ الخير ، ولا يريد لهم الشرّ أبداً ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

القضاء

القضاء مسألةٌ ينظر إليها معظم الناس ويتصوَّرونها بشكلٍ مغايرٍ للصور التي ترسمها مشتقّات هذه الكلمة في القرآن الكريم ، ويعود ذلك إلى المرحلة التاريخيّة التي تفاعل فيها بعض المسلمين مع الفلسفات الأُخرى .. ونتيجة لهذا التفاعل تمّ وضع أُطر هذه المسألة ، وتمّ تأويل النصوص القرآنيّة التي تخصّها ، ضمن أُطر منسوجة من مادّة تلك الفلسفات ، وعلى منوالها ..

لقد تمّ الربط بين مسألتي القضاء والقدر ربطاً تامّاً ، على الرغم من أنَّ الكلمتين ومشتقاتهما لم تردا مجتمعتين في القرآن الكريم ..

ذهب بعضهم إلى أنَّ القضاء هو علم الله تعالى بالأشياء كلّها على ما ستكون عليه في المستقبل ، وأنّ القدر هو إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلم الله تعالى الأزلي المتعلّق بها .. وذهب بعضهم الآخر إلى عكس هذين التعريفين ، فجعلوا تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء .. ولذرّ الرماد في الأعين ، قال بعضهم عن عكس هذين التعريفين : إنَّ الأمر محتملٌ والخطبَ فيه يسير ..

فما دامت هذه التعريفات ليست مستنبطة من كتاب الله تعالى ، ولا علاقة لها بمنهج الله تعالى ، وليس من المهم – عندهم – إذا كانت تناقض دلالات كتاب الله تعالى ، فمن الطبيعي – عندهم – أن يكونَ الأمر مُحتملاً والخطب فيه يسيراً ..

وكلمة القضاء لم ترد في القرآن الكريم ، وإنّما وردت مشتقّاتها .. وحتّى يكون تصوّرنا لهذه المسألة ضمن إطارها الحقيقي ، علينا أن ننظر في جميع الصور التي ترسمها مشتقّات هذه الكلمة في القرآن الكريم ..

إنَّ مشتقّات الجذر (ق ، ض ، ي) في القرآن الكريم تعني الحكمَ والفصلَ والإنهاءَ والإتمامَ والإعلام والإبلاغ والتوصية .. فكلّ ما تمّ الحكم والفصل فيه ، وتمّ الفراغ والانتهاء منه ، وتمّ إعلامه وإبلاغه ، فقد قُضي .. فالقضاء المتعلّق بمسألة ما ، يعني إعطاء الحكم والفصل بهذه المسألة بشكلٍ تامٍّ ومنهيٍّ فيه وإبلاغ ذلك وإعلامه والتوصية به ..

وكلّ كلمة من مشتقّات الجذر (ق ، ض ، ي) في القرآن الكريم ، تضيء جانباً من جوانب هذه المسالة بشكلٍ جلي ، في الوقت الذي تحمل فيه دلالات الجوانب الأخرى .. إذاً .. علينا أن ننظر في جميع النصوص القرآنيّة التي تحوي مشتقّات هذا الجذر ..

.. إنَّ صفة الحكم والفصل تظهر واضحةً جليّة في مشتقّات الجذر (ق ، ض ، ي) الواردة في النصوص القرآنيّة التالية ..

﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧]

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧]

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ ﴾ [الأنعام : ٢]

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ١٩]

﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٤٧]

﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٤]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ٩٣]

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [هود : ١١]

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء : ٢٣]

﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : ٣٥]

﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه : ٧٢]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [النمل : ٧٨]

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٣٦]

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ ﴾ [سبأ : ١٤]

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩]

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥]

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ ﴾ [غافر : ٢٠]

﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر : ٦٨]

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : ٧٨]

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [فصّلت : ٤٥]

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الشورى : ١٤]

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ ﴾ [الشورى : ٢١]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية : ١٧]

.. وإنَّ صفة الإتمام والإنهاء تظهر واضحة في الآيات الكريمة التالية :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة : ٢٠٠]

﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠]

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾ [النساء : ١٠٣]

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨]

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام : ٥٨]

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [الأنعام : ٦٠]

﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال : ٤٢]

﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ۗ ﴾ [الأنفال : ٤٤]

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ ﴾ [يونس : ١١]

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١]

﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود : ٤٤]

﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٤١]

﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ ﴾ [يوسف : ٦٨]

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٢١]

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [مريم : ٣٩]

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١]

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ ﴾ [طه : ١١٤]

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٩]

﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ ﴾ [القصص : ١٥]

﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ ﴾ [القصص : ٢٨]

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ [القصص : ٢٩]

﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ ﴾ [الأحزاب : ٢٣]

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧]

﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ ﴾ [فاطر : ٣٦]

﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ [الزمر : ٤٢]

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصّلت : ١٢]

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧]

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ ﴾ [الأحقاف : ٢٩]

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة : ١٠]

﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة : ٢٧]

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس : ٨٣]

.. أمّا صفة الإعلام والإخبار والإيحاء والتوصية ، فتظهر واضحةً جليّة في الآيات الكريمة ..

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : ٦٦]

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء : ٤]

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص : ٤٤]

هذه هي جميع النصوص القرآنيّة التي وردت فيها مشتقّات الجذر (ق ، ض ، ي) ، ونرى من خلال هذه النصوص القرآنيّة أنَّ القضاء الإلهي هو الحكم والفصل ، والمنهج الذي أتمّه الله تعالى واختاره لعباده وأعلمهم وأوصاهم به ..

.. وما يجب أن نعلمه أنَّ فرزنا لمشتقّات الجذر (ق ، ض ، ي) بين دلالات الحكم والفصل ، والإنهاء والإتمام ، والإعلام والإيحاء ، لا يعني أنَّ الكلمة التي وضعناها في صفٍّ إحدى هذه الدلالات لا تحمل الدلالات الأخرى .. إنّما يعني ذلك أنّنا وضعناها في صفّ الدلالات الأكثر ظهوراً ، التي تحملها هذه الكلمة ..

فالكلمة التي تطفو فيها دلالات الحكم والفصل ، تحمل في الوقت ذاته دلالات الإنهاء والإتمام والإعلام والإيحاء .. والكلمة التي تطفو فيها دلالات الإنهاء والإتمام ، تحمل في الوقت ذاته الدلالات الأُخرى .. وكذلك الكلمة التي تطفو فيها دلالات الإعلام والإيحاء .. فجميع مشتقّات هذا الجذر اللغوي تدور داخل إطارٍ واحدٍ من المعنى هو الحكم والإنهاء والإعلام ..

والقضاء مسألة تتعلّق بالإرادة والحريّة والقدرة .. وقد أعطى الله تعالى جزءاً من هذه الصفات للبشر ، حتّى يختبرهم من خلالها ، لذلك نرى – من خلال ما يصوّره القرآن الكريم – أنَّ مسألة القضاء جاءت مقترنةً بالله تعالى وبالبشر فقط .. فالاختيار بين

البدائل والحكم بينها امتاز به البشر ، وهذا يعود إلى تعهّد الإنسان (وهو بحالة النفس المجرّدة) باختيار حكم الله تعالى ومنهجه ، في حال توفّر الإرادة والحريّة والقدرة ، وإلى التزامه بالميثاق الذي أخذه الله تعالى منه ..

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الحديد : ٨]

.. وتتكوّن مسألة القضاء (قضاء الله تعالى) من عنصرين أساسيّين ، لكلٍّ منهما حدوده التي تميّزه ..

١ – القضاء الكوني (**القضاء الجبري**) : وهو ما اختاره الله تعالى لمخلوقاته خارج إطار التكليف ، وخارج حدود الاختيار ، وهذا القضاء يحكم جميع المخلوقات دون استثناء ، فلا تُوجَد في ساحة هذا القضاء بدائل وخيارات أمام المخلوق ..

إنَّ الأرض التي قضى الله تعالى عليها بالدوران حول نفسها وحول الشمس ، ضمن أنظمة مرسومة لها بدقّة مطلقة ، لا خيار لها في معارضة هذا الحكم الإلهي عليها .. لذلك لم نرَ أنَّ الأرض اختارت في يومٍ من الأيام عدم الانصياع لهذا القضاء ، والاستراحة من هذه الحركة ..

والإنسان الذي وُلِدَ في بيئةٍ محدَّدة ، وضمن أسرة محدّدة ، وفي وقت محدَّد ، وفي جيل ومجتمع لهما صفاهما وميّزاهما وحضارهما المحدّدة ، لم يختر ذلك بنفسه .. لذلك فهو محكوم لهذا النوع من القضاء ..

وهذا القضاء الكوني الجبري ، مُختارٌ من الله تعالى بحكمة عظيمة تتناسب مع علمه وحكمته جلّ وعلا ، حيث اختار الله تعالى بناءً على ذلك معايش المخلوقات وأمكنتها وأزمنتها وكلّ ما يصيبها خارج حدود الاختيار ..

والرؤية التي لا تتجاوز ظواهر الدنيا السطحيّة ، والمحدودة بمكان وزمان محدَّدين ، والتي لا تنفذ إلى ركن الحياة الآخر (عالم الآخرة الذي خُلقَت الدنيا من أجله) ، تجعل

أولئك الذين لا يقيمون للدنيا وزناً ، ينظرون أحياناً إلى هذا القضاء الكوني ، على أنّه يحمل شيئاً من الظلم لبعض البشر ، وشيئاً من حسن الحظ والإكرام لبعضهم الآخر ..

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴾ [الفجر : ١٥ – ١٦]

فالحسابات عند هؤلاء تُقاس كلّها في ميزان الدنيا ، بعيداً عن ميزان الآخرة ، لذلك فالسعيد في تصوّرهم هو من أقبلت الدنيا إليه ، والشقيّ هو من أدبرت عنه ... والله تعالى يضيء الطريق أمام عباده المؤمنين ، كاشفاً لهم حقيقة القضاء الكوني وجوهره ..

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١]

فينظر المؤمن إلى قضاء الله تعالى نظرةً تتناسب مع إيمانه بعدل الخالق عزّ وجل وصدقه وحكمته ، نظرةً لا تقف عند حدود الظواهر السطحيّة لأحداث هذه الدنيا .. لذلك نجد المؤمن يتفاعل مع كلّ ما يصيبه من هذا القضاء الكوني الجبري ، على أنّه لصالحه ، وأنّ الله تعالى قد اختار هذا القضاء له وليس عليه ، وهذا ما تبيّنه الصورة القرآنيّة ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التي جاءت بالصيغة ﴿ لَنَا ﴾ وليس بالصيغة (علينا) .. ولذلك لا يُفتَن المؤمن بما أُتي هو أو غيره من حطام الدنيا ، ولا يحرف ذلك نظره عن الحقيقة التي خُلقَت الدنيا من أجلها ، وهي الحياة الآخرة ..

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥]

إنَّ القضاء الكوني الجبري الذي يصيب المخلوقات دون سابق اختيار ، هو قضاء عادل حكيم ، إذا ما قيس في ميزان الحياة الحقيقيّة الكاملة (الدنيا والآخرة معاً) ،

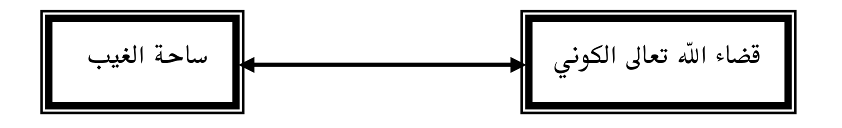
وليس في ميزان الدنيا وحدها .. ولو أُتيح للإنسان الاطّلاع على الغيب لعلم هذه الحقيقة ، ولاختار الواقع الذي أصابه .. وقد رأينا ذلك – في بحث الغيب والشهادة – في رحلة موسى عليه السلام مع العبد الصالح .. فالأعمال التي قام بها العبد الصالح بأمرٍ من الله تعالى ، هي بالنسبة لمن وقعت فيهم هذه الأعمال تُعَدُّ قضاءً كونيّاً جبريّاً .. وهذا القضاء كان ظاهره – كما رأينا – بعيداً عن العدل والحق ، وذلك عند النظر إليه من الزاوية الظاهريّة المحدودة بمقاييس الدنيا ، والمحجوبة عن رؤية الغيب .. ولكنَّ حقيقة هذا القضاء هو حق وعدل ، وهو لصالح الذين وقع عليهم هذا القضاء .. ومعرفة هذه الحقيقة تحتاج إلى رؤية الغيب ، وإلى قياس الأحداث في ميزان الحياة الحقيقية التي تشمل الحياة الآخرة ..

فأصحاب السفينة أنقذهم هذا القضاء من فقدانهم لسفينتهم ، والغلام الذي قُتل أُنقذ من قيامه بأعمال – سيقوم بها لو بقي على قيد الحياة – تؤدّي به إلى جهنّم ، وأبواه أُنقذوا من انقيادهم إلى الطغيان وراء هذا الغلام ، فيما لو بقي على قيد الحياة ، واستبدلوا خيراً منه بغلامٍ أقرب إلى الحقّ ، وإلى دفْعِهم باتّجاه مرضاة الله تعالى .. والجدار الذي أُقيم فوق الكنز ، حفظ هذا الكنز للغلامين اليتيمين ..

وهكذا نرى أنَّ قضاء الله تعالى الكوني هو دائماً لصالح المخلوق لأنَّ هذا القضاء يحكم المخلوق دون سابق علم واختيار ، والله سبحانه وتعالى لا يُريد لمخلوقاته إلاَّ الخير ..

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٨]

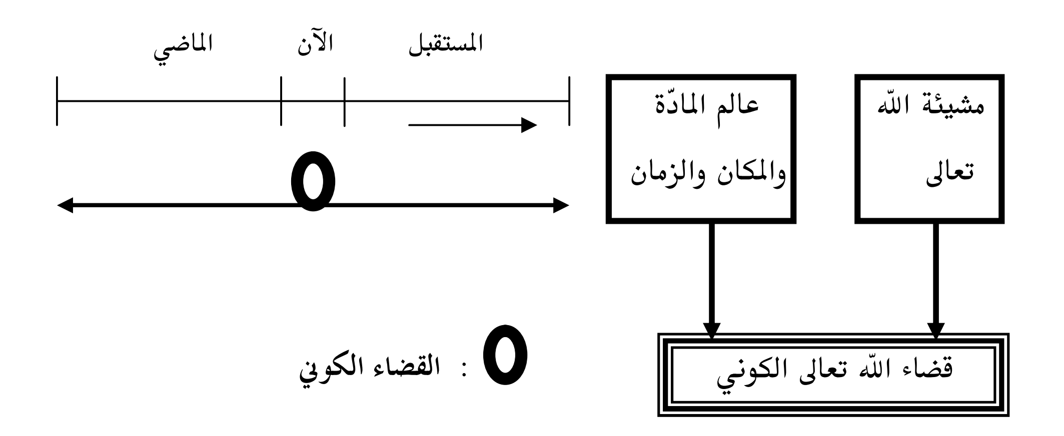
وقضاء الله تعالى الكوني (الجبري) حاصل لا محال ، وهو يحكم المخلوق عبر ساحة الغيب دون سابق علم واختيار ..



﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [سبأ : ١٤]

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصّلت : ١٢]

.. وقضاء الله تعالى الكوني (الجبري) يتعلّق بمشيئة الله تعالى ، المتعلّقة بدورها مع إخراج إرادة الله تعالى – عبر الأسباب – إلى عالم المادّة والمكان والزمان .. وبالتالي فالقضاء الكوني يسير على محور الزمن من الماضي إلى المستقبل ، ويحيط بالآن ..



٢ – القضاء المنهجي (قضاء الاختيار) : وهو ما حكم به الله تعالى واختاره لعباده منهجاً ، وأعلمهم به ، وأمرهم باتّباعه ، ضمن إطار التكليف وداخل حدود الاختيار ..

وما الالتزام بهذا القضاء المنهجي واختياره ، إلاَّ الأمانة التي تعهّد الإنسان بحملها وهو في حالة النفس المجرّدة ، قبل نزوله – عبر الجسد – إلى عالم المادّة والمكان والزمان ..

وهذا القضاء المنهجي الاختياري هو الميزان الذي تُوزَن فيه أعمال المكلَّفين بالعبادة يوم القيامة ، حيث يتفاضل بعضهم على بعض حسب درجات الالتزام بهذا القضاء ..

فالإيمان الكامل هو اختيار هذا القضاء المنهجي الاختياري ، منهجاً كاملاً لجميع حركات الحياة التكليفيّة التعبّديّة ، أي هو اختيار ما اختاره الله تعالى والانصياع له في كلِّ حركات الحياة .. فالقضاء المنهجي (الاختياري) هو خيار المؤمنين الوحيد في حياتهم التعبّديّة ، ولا خيار لهم غير قضاء الله تعالى المنهجي ..

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦]

تبيّن لنا هذه الآية الكريمة أنَّ الالتزام بقضاء الله تعالى المنهجي ، منهجاً حياتيّاً ، هو من اختيار المؤمنين والمؤمنات دون غيرهم .. وبالتالي فغيرهم لا يعملون بهذا القضاء المنهجي الاختياري .. ولذلك نرى أنَّ النصّ القرآني جاء **﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾** ، ولم يأت (وما كان لإنسان .....) ، لأنَّ غير المؤمنين لا يعملون بهذا القضاء ولا يختارونه في أمورهم الاختياريّة .. وقوله تعالى **﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾** يُبيِّن لنا أنَّ قضاء الله تعالى المنهجي الاختياري من الممكن أن يعصيه الإنسان ..

وقد تمّ إبلاغ هذا القضاء المنهجي إلى البشر ، عن طريق الرسل عليهم السلام .. لذلك فمنهج الله تعالى هو من القضاء المنهجي الذي يجب على المؤمنين الانصياع له ..

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

فالقضاء المنهجي الاختياري الذي اختاره الله تعالى لعباده منهجاً ، والذي يشمل جميع الأوامر التي أمرهم بفعلها ، ومن تبيين للحلال والحرام ، هو الجسر الذي يُوصل العباد إلى رحمة الله تعالى وجنّته ، وينقذهم من غضبه وناره ..

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨]

والإعراض عن قضاء الله تعالى المنهجي الاختياري ، وعن حكمه وهداه ، يعني اتّباع الهوى والضلال ..

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٦]

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠]

والإعراض عن قضاء الله تعالى المنهجي وهداه ، يعني اتّباع الشيطان ، الذي يسعى لإبعاد الإنسان عن المنهج الذي اختاره الله تعالى لعباده ..

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢ – ٨٥]

إنّ الالتزام بقضاء الله تعالى المنهجي وحكمه هو الحدّ الذي يفصل الإيمان عن الكفر ..

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤]

.. وهو الحدّ الذي يفصل العدل عن الظلم ..

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥]

.. وهو الحدّ الذي يفصل الإسلام عن الفسق ..

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧]

.. لذلك نرى الظالمين يُعرضون عن حكم الله تعالى وقضائه المنهجي ، إذا دُعوا إلى ذلك .. وذلك على نقيضٍ من المؤمنين الملتزمين بهذا القضاء ..

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور : ٤٨ – ٥٢]

والقضاء المنهجي الاختياري يرسم حدود الله تعالى ، التي إن تعدّاها الإنسان ظلم نفسه ، وحقَّ عليه غضب الله تعالى وسخطه ..

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩]

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ [الطلاق : ١]

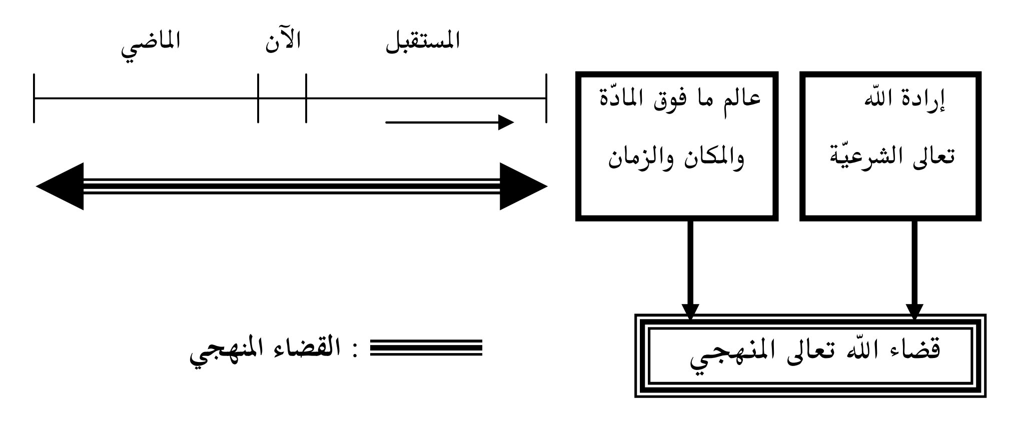
إنّ فساد البشر أكبر دليل على أنَّ عدم الانصياع التامّ للقضاء المنهجي ، يؤدّي إلى الضلال ، فما نراه من فساد هو ناتج عن اختيار الإنسان البعيد عن منهج الله تعالى (قضائه المنهجي) .. فالفارق بين قضاء الله تعالى المنهجي الذي اختاره لعباده وبين مناهج البشر ، يوازي الفارق في القدرة والحكمة بين الله تعالى وبين البشر ..

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠]

وقضاء الله تعالى المنهجي هو مسألة بيّنها الله تعالى لعباده ، وأعلمهم بها عن طريق رسله عليهم السلام ، لذلك يتفاعل البشر مع هذا القضاء عبر ساحة الشهادة ، وليس عبر ساحة الغيب كما هو حال تفاعلهم مع القضاء الكوني الجبري ، فلو كان تفاعل الإنسان مع قضاء الله تعالى المنهجي من خلال ساحة الغيب ، لأصبح هذا القضاء جبريّاً ..

قضاء الله تعالى المنهجي ⟷ ساحة الشهادة

وقضاء الله تعالى المنهجي لا يكون إلاّ باتّجاه الخير ، كما هو الحال في مسألة الإرادة الإلهيّة .. فهذا القضاء هو ما أراده الله تعالى (إرادة شرعيّة) ، وبالتالي ما لم يُرد غيره .. فهذا القضاء يتعلّق بإرادة الله تعالى الشرعيّة ، وينتمي (كالإرادة) إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان .. وبالتالي فالقضاء المنهجي يمتدّ على محور الزمن بشكلٍ ثابت لا يتغيّر ..



إنَّ معيار مسألتي الإيمان والكفر يتعلّق باتّباع قضاء الله تعالى المنهجي ، هذا القضاء المتعلّق بإرادة الله تعالى (الشرعيّة) ، عبر ساحة ما فوق المادّة والمكان والزمان .. وفي هذه الساحة – كما رأينا – لا يمكن تعلّق الإرادة بمسألتين متناقضتين كالإيمان والكفر ،

ولذلك فإنَّ الله تعالى الذي قضى لعباده الإيمان ورضي لهم ذلك ، لا يرضى لهم الكفر ، ومرجع ذلك – كما قلنا – تعلّق هذا القضاء بالإرادة الإلهيّة ، عبر عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ..

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر : ٧]

وهكذا نرى أنَّ القضاء الكوني هو مسألة واقعة لا شكّ في ذلك ، فهي خارج حدود علم المخلوق وقدرتِه واختيارِه ، لذلك فهي مسألة جبريّة .. وهذا القضاء هو من عطاء الربوبيّة الذي يشمل جميع الخلق دون استثناء ، حيث يستفيد جميع الخلق من هذا القضاء ..

أمّا القضاء المنهجي فهو مسألة يختارها المؤمنون دون غيرهم ، لأنّها تتعلّق بأمورٍ لها بدائل ، وبإمكان الإنسان عدم اختيارها وعدم الانصياع لها ، لذلك فهي مسألة اختياريّة .. وهذا القضاء هو من عطاء الإلوهيّة ، لأنّه يخصّ المؤمنين الملتزمين بهذا المنهج دون غيرهم ، ويستفيد المؤمنون فقط من هذا القضاء ..

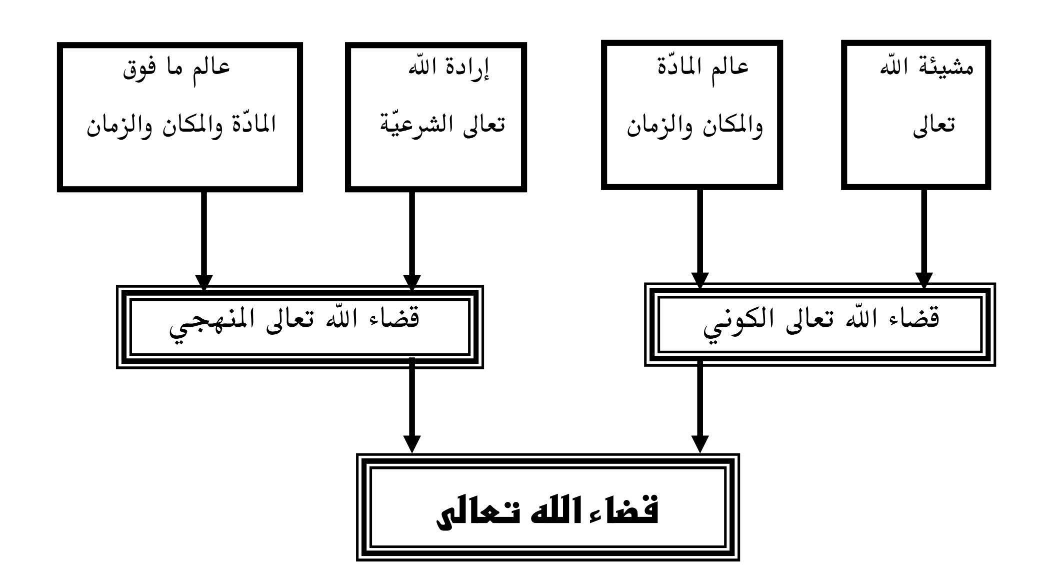
عندما قضى ربُّ العالمين بإخلاص العبادة له ، وبمعاملة الوالدين بالإحسان .. ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء : ٢٣] .. هل التزم جميع الناس بهذا القضاء المنهجي ؟ .. لو كان ذلك لما رأينا الكفّار والمشركين ، ولما رأينا أولئك الذين يعاملون الوالدين بغير إحسان ..

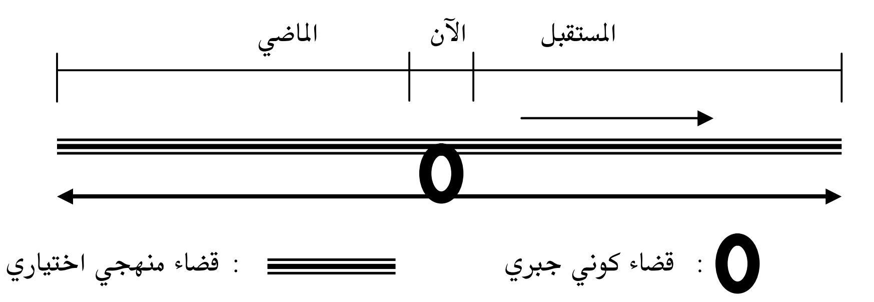
إنّ المسائل الواقعة تحت ظلال القضاء المنهجي ، ليست حتميّة الوقوع بالنسبة لجميع البشر ، وإلاّ لما كان هناك عقاب لمن يعصي هذا القضاء ، وثواب لمن يلتزم به ، ولما وجدنا من يكفر ويشرك بالله تعالى ، ولكان الناس كلّهم مؤمنين .. فالقضاء المنهجي

هو حقيقة موجودة أمام الناس وليس غيباً بالنسبة لهم ، ويملكون القدرة على قبول هذا القضاء وعلى رفضه ..

أمّا المسائل الواقعة تحت ظلال القضاء الكوني ، فهي حتميّة الوقوع بالنسبة لجميع المخلوقات ، وهي غيب ، ولا يملك المخلوق تجاه هذه المسائل أيّ علم أو خيار أو قدرة ..

ويمكن القول إنّ من يعصي الله تعالى ، يبتعد بنفسه عن ساحة قضاء الله تعالى المنهجي ، وبالتالي يبتعد عن الإرادة الإلهيّة الخيّرة ، التي تقف وراء هذا القضاء المنهجي .. ويبقى – كما سنرى إن شاء الله تعالى – في ساحة القدر ، الذي عَلمه الله تعالى وحدّده بعلمه الكاشف ، وفي ساحة المشيئة الإلهيّة التي سخّرت له أسباب الطاعة والعصيان ..





قضاء كوني جبري : قضاء منهجي اختياري

وهكذا نرى أنَّ ربْطَ مسألة القضاء بالقدر الحاصل ، لا يُنافي المسائل الواقعة في ساحة القضاء الكوني ، ولكنّه ينافي أحياناً المسائل الواقعة في ساحة القضاء المنهجي .. فكلّ ما قضاه الله تعالى كونيّاً سيحصل ، ولكن ليس كلّ ما قضاه الله تعالى منهجاً لعباده سيلتزم به هؤلاء العباد ..

إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُحاسب الإنسان على عملٍ فرضه عليه ، إنّما يُحاسبه على عملٍ عمله باختياره ، بعد أن امتحنه بأن هيّأ له كلَّ الخيارات المتناقضة التي تخصّ هذا العمل ، وبعد أن بيّن له السليم من هذه الخيارات المتناقضة ..

والله سبحانه وتعالى يُحاسب الإنسان على الطاعة عندما يطيع الإنسان ويختار قضاء الله تعالى المنهجي ، في وقت يستطيع فيه هذا الإنسان القيام بالمعصية وعدم اتّباع هذا القضاء .. ويحاسبه على المعصية عندما يعصي قضاء الله تعالى المنهجي في وقتٍ يستطيع فيه الطاعة واتّباع هذا القضاء ..

وهكذا نرى أنَّ النفس البشريّة ، تعيش فترة امتحانها في الحياة الدنيا بالنسبة لمسألة القضاء وفق محورين :

١ – محور القضاء الكوني الجبري : وله جهة واحدة ، من الميلاد باتّجاه الموت ، وهذا المحور هو غيب بالنسبة للنفس البشريّة المدفوعة عليه بشكلٍ جبري ، وهو الخطّ الفاصل بين ساحتي بدائل الإيمان والكفر ، فلا ينتمي إلى أيٍّ من هاتين الساحتين ..

٢ – **محور القضاء المنهجي الاختياري** : وله جهتان متعاكستان ، إحداهما جهة الطاعة والالتزام بقضاء الله تعالى المنهجي ، وتسحب النفس باتّجاه الإيمان ، وبالتالي باتّجاه الجنّة .. والأُخرى جهة العصيان وذلك بالابتعاد عن قضاء الله تعالى المنهجي ، وتسحب النفس باتّجاه الكفر ، وبالتالي باتّجاه جهنّم .. ومبدأ هذا المحور هو نقطة (الآن) التي تتحرّك على محور القضاء الكوني الجبري ، ليتمّ تحديد مكان النفس ما بين الإيمان والكفر ، في كلِّ لحظة من حياة الإنسان ..

فإن كانت المحصّلة (محصّلة قوّتي الطاعة والمعصية على محور القضاء المنهجي) باتّجاه ساحة الإيمان والطاعة والالتزام بقضاء الله تعالى المنهجي ، سحبت هذه النفس في تلك اللحظة إلى ساحة الإيمان ، وإن كانت المحصّلة باتّجاه ساحة الكفر والمعصية والابتعاد عن قضاء الله تعالى المنهجي ، سحبت هذه النفس في تلك اللحظة باتّجاه ساحة الكفر ..

باتجاه الجنّة

ساحة بدائل الإيمان

قوّة الطاعة

(محور القضاء الكوني)

النفس البشريّة

+

الميلاد **الموت**

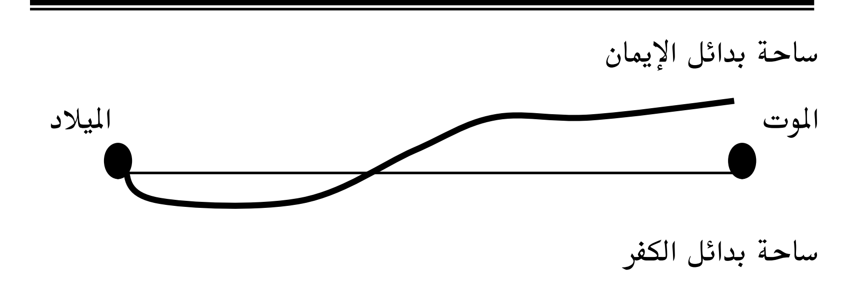
قوّة المعصية

(محور القضاء المنهجي)

باتجاه جهنّم

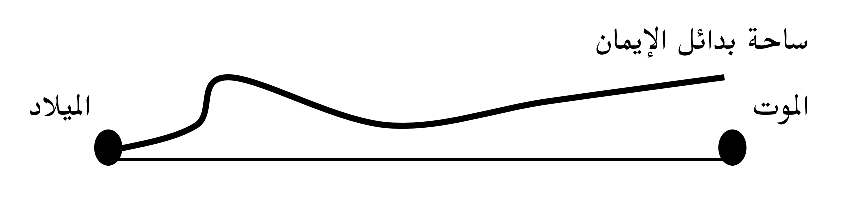
ساحة بدائل الكفر

وهكذا ترسم النفس عبر حياتها خطّاً منحنياً في ساحتي الإيمان والكفر ، وذلك حسب طاعتها ومعصيتها لقضاء الله تعالى المنهجي ..



نفس آمنت بعد كفر

....

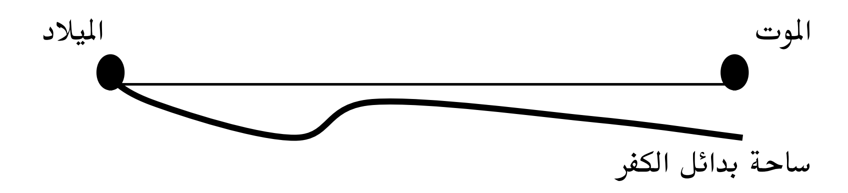


ساحة بدائل الكفر

نفس مؤمنة

....

ساحة بدائل الإيمان



نفس كافرة

....

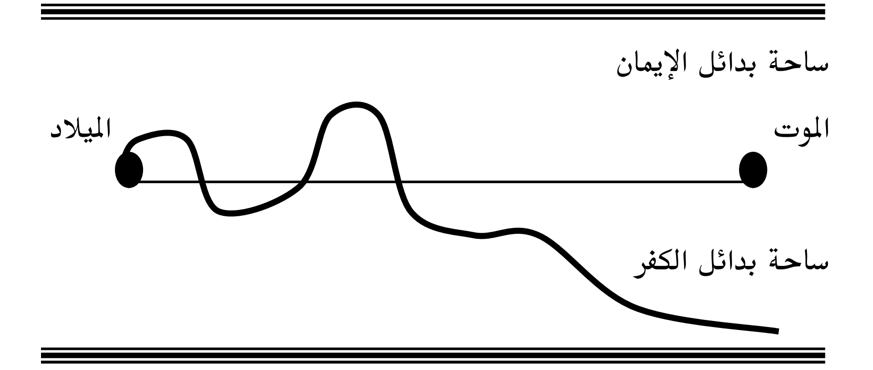
ساحة بدائل الإيمان

الموت الميلاد

ساحة بدائل الكفر

نفس كفرت بعد إيمان

....



نفس تأرجحت بين الإيمان والكفر

وتنطبق عليها الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾ [النساء : ١٣٧]



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

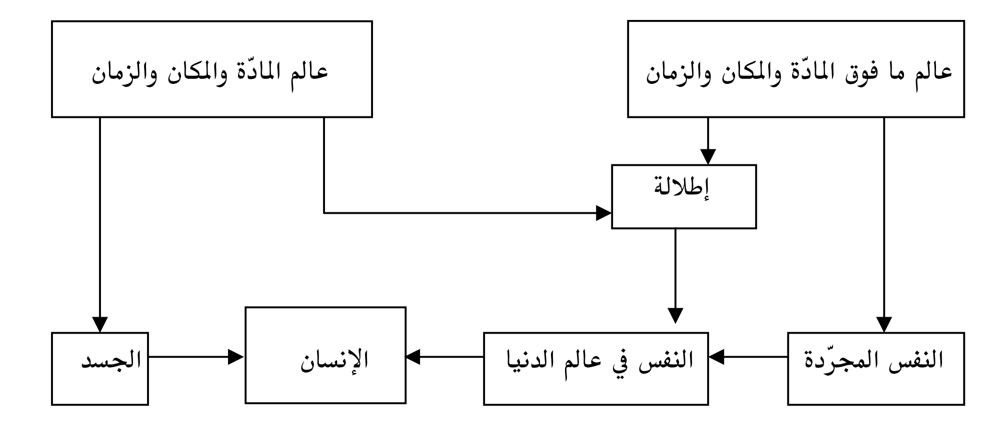
الجبر والاختيار

أين موقع منحني حياة الإنسان من مسألتي الجبر والاختيار ؟ .. وبعبارة أُخرى ، ما هي جهة تأثير قوّة الجبر والاختيار في حياة الإنسان ؟ .. وما هو منبعها ؟ .. أي متى يكون الإنسان مسيَّراً ومتى يكون مخيّراً ؟ ..

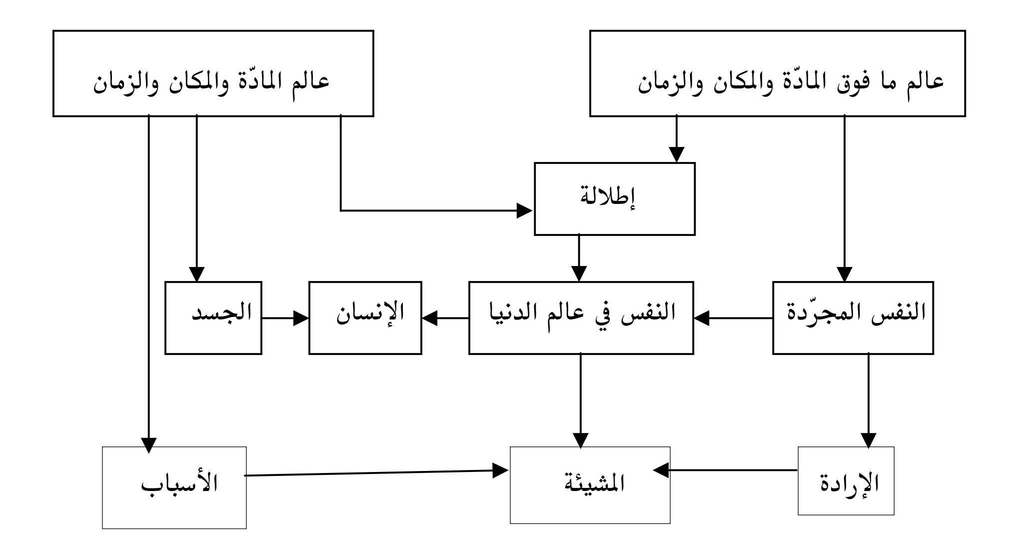
لم تدع هذه الأسئلة نفساً إلاَّ وراودتها .. وكم من نفسٍ تاهت في إجابتها على هذه الأسئلة ؟ .. فمن الناس من ذهب باتّجاه الجبر الكامل ، معيداً جميع تصرّفاته الاختياريّة إلى الجبر الذي لا سبيل إلاّ لوقوعه ، منكراً أيّ حريّة للاختيار .. ومن الناس من ذهب باتّجاه الاختيار الكامل ، معيداً كلّ ما يصيبه إلى الاختيار والمصادفة ، بعيداً عن التقدير المُسبَق ..

وحتّى أولئك الذين أخذوا بالحل الوسط ، لم يضعوا أيديهم على الحقيقة الكاملة لهذه المسألة ، وسبب ذلك أنّهم انطلقوا من مقدّمات هي خارج الإطار الذي يصوّره لنا القرآن الكريم بالنسبة لهذه المسائل ، وكانت غاياتهم الردّ على تصوّرات أُخرى تتعلّق بهذه المسائل ، وذلك بعد التفاعل مع الفلسفات الوضعيّة التي أُلبس الكثير منها لباس الدين .. لقد تاه الكثيرون في هذه المسائل ، فتفرّقوا إلى معتقدات ومذاهب ، ساحبين الأجيال خلفهم إلى ظلام التفرّق الفكري ، ومستنقعات التعصّب المذهبي والطائفي ..

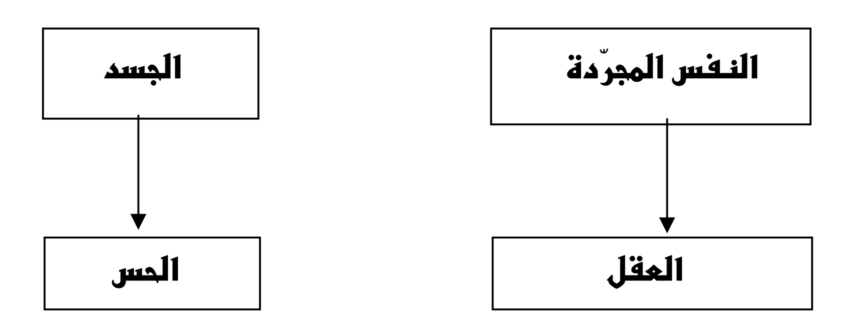
ولشرح هذه المسألة لا بدّ من إلقاء الضوء على الحقائق التي تقف وراء قوى الجبر والاختيار المؤثّرة في حركة حياة الإنسان على منحني حياته .. ولا بدّ أوّلاً من العودة إلى عنصري حياة الإنسان ، النفس من جهة ، والجسد (بحياته وآليّاته الحسيّة) من جهةٍ أُخرى ..



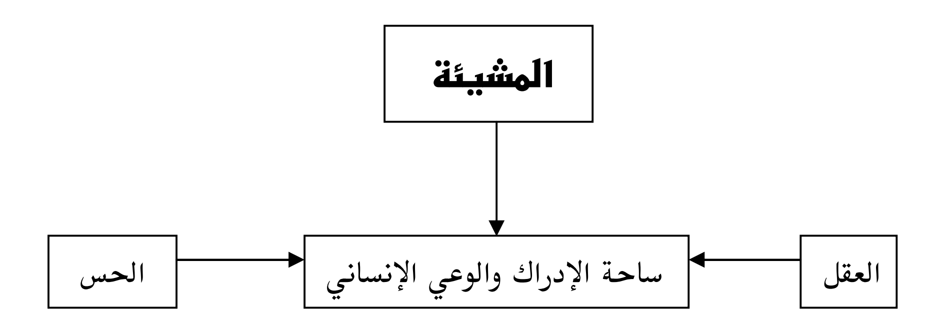
لقد رأينا في بحث الإرادة والمشيئة أنَّ الأسباب الفاعلة في هذا الكون مخلوقة لله عزّ وجل ، عبر عالم المادّة والمكان والزمان ، وأنّ مجال تأثيرها هو هذه الساحة .. ورأينا أيضاً أنّ الإرادة الإنسانيّة مرتبطة بالنفس المجرّدة ، وأنَّ المشيئة الإنسانيّة مرتبطة بالنفس وهي في عالم الدنيا ، وبتفاعل الأسباب المؤدّية لخروج الإرادة إلى عالم الوجود ، أي بتفاعل شقّ معنوي مرتبط بالنفس المجرّدة (الإرادة) مع شقّ مادّي مرتبط بالمادّة (الأسباب) ..



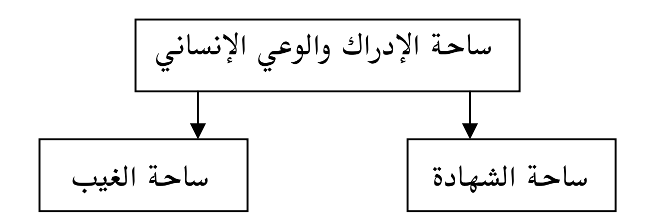
ورأينا أنّ العقل الذي يميّز الإنسان عن غيره مرتبطٌ بالنفس المجرّدة ، فالإنسان المكلّف والمؤتمن على حمل أمانة التكليف ، لا بدّ له من عقل مستقلّ عن المادّة وعالمها ، لكـي يميّز بين البدائل المختلفة .. ورأينا أيضاً أنّ الحسّ ومنافذه إلى عالم المادّة مرتبطٌ بالجسد ، فجميع الحواس مرتبطة بأعضاء حسيّة تنتمي إلى الجسد ، ومرجعها عالم المادّة ..



ورأينا أيضاً أنّ إدراك الإنسان ووعيه لما يحيط به من أحداث هذا العالم ، يكون عبر تفاعل مشيئته (المتضمّنة – كما رأينا – لإرادة نفسه المجرّدة) مـع عنصـري العقـل والحس .. فلدخول الإنسان إلى ساحة الإدراك والوعي ، لا بدّ له من مشيئة تتفاعل مع عقله باتّجاه المحسوسات المحيطة به ، ليتمّ إدراكه ووعيه في هذه الساحة ..



ورأينا – في بحث الغيب والشهادة – أنّ الكون المحيط بالإنسان ، ينقسم (بالنسـبة لساحة إدراك هذا الإنسان) إلى قسمين متباينين ، هما ساحة الغيب وساحة الشهادة ..



ورأينا أيضاً في بحث القضاء أنَّ قضاء الله تعالى ينقسم إلى قسمين :

١ – قضاء منهجي اختياري تكليفي : وهو المنهج الذي أنزله الله تعالى ، سبيلاً للبشر يطلب منهم السير فيه حتّى لا يضلّوا .. ومصدر هذا القضاء هو الله تعالى مباشرة ، بعيداً عن عالم المادّة والمكان والزمان ، أي عبر عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ..

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١]

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦]

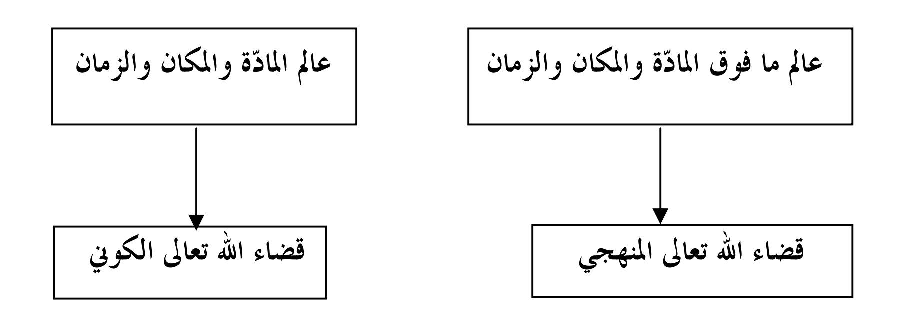
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢]

٢ – قضاء كوني جبري : وهو ما حكم الله تعالى به واختاره ، من قوانين ومنهج تسييري جبري ، يخصّ المسائل غير الواقعة في ساحة التكليف واختيار الإنسان .. لذلك يفعل هذا القضاء بالإنسان عبر عالم المادّة والمكان والزمان .. وينقسم هذا القضاء إلى قسمين :

أ – قضاء لا يؤثّر على الإنسان مباشرة ، كحركة النجوم والأرض والرياح .....

ب – قضاء يؤثّر على الإنسان بشكلٍ مباشر ، دون أن يكون للإنسان وعمله وإرادته أيّة علاقة بذلك ، كولادة الإنسان من أمٍّ وأب محدَّدين ، وفي بيئة محدّدة ،

وتوفير البدائل الخاصّة بالنسبة لكلِّ إنسان وكلّ ما يصيب الإنسان من مصائب دون سابق علم وإرادة ..



والإنسان العاقل المكلّف يخضع في كلِّ نقطة من منحني حياته لعدّة مؤثّرات ، تدفعه باتّجاه النقطة التي تليها ، ويمكن اختزال هذه المؤثّرات وساحات تأثيرها ومصادرها على الشكل التالي :

١ – **ساحة الغيب** : وتشمل كلَّ ما غاب عن حسّ الإنسان ووعيه وعلمه ، مكاناً وزماناً وإدراكاً .. ومن هذه الساحة تخرج القوّة المجهولة بالنسبة للإنسان (القضاء الكوني الجبري) التي تدفع الإنسان على محور القضاء الكوني ..

٢ – **القضاء الكوني الجبري** : وهو القوّة التي تدفع حركة الإنسان جبراً ، من نقطة إلى التي تليها على منحني حياته ..

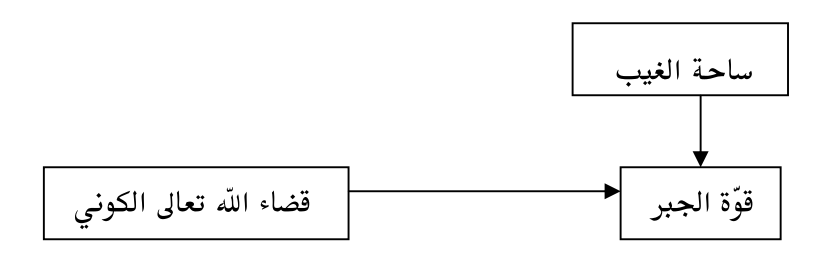
٣ – **ساحة الشهادة** : وتشمل كلّ ما وقع تحت إدراك الإنسان حسّاً وعلماً ووعياً .. ومن هذه الساحة تخرج قوّة تفاعل إرادة الإنسان مع الأسباب ، باتّجاه الغاية المختارة والمرادة من الذات ، والتي تدفع الإنسان على محور القضاء المنهجي ..

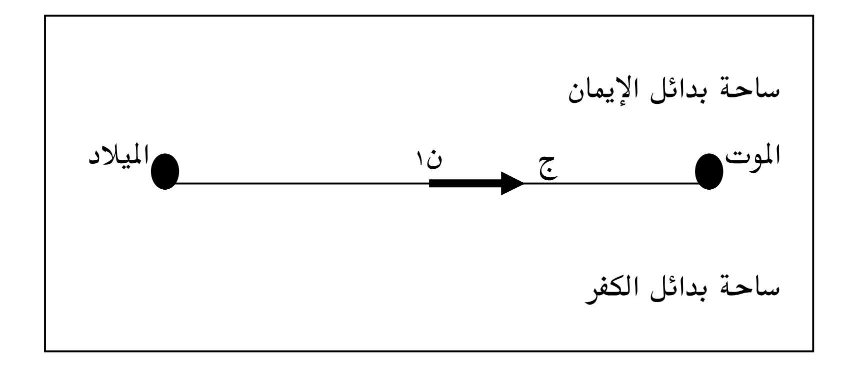
٤ – **القضاء المنهجي التكليفي** : ويشمل المنهج الذي أنزله الله تعالى من أجل اختبار الإنسان ، وهو مجموعة الأوامر والنواهي المحدّدة في هذا المنهج ، حيث يترتّب على الالتزام بهذا القضاء وعصيانه ، الثواب والعقاب ..

٥ – **القضاء الاختياري خارج إطار التكليف المنهجي** : وهو مجموعة الأعمال التي يقوم بها الإنسان غير المحدّدة في المنهج الإلهي بإطار التحليل والتحريم والأوامر والنواهي ، كتناول نوع معيّن من المأكولات المحلّلة دون غيرها ، ولا يترتّب على هذا النوع من القضاء ثواب أو عقاب ..

٦ – **العقل** : وهو طاقة الذات المرتبطة بالنفس المجرّدة ، والتي تملك القدرة على التمييز بين البدائل المختلفة ، واختيار البديل الذي تريده الذات .. فساحة عمل العقل هي ساحة الشهادة ، ومادّة عمله هي القضاء المنهجي الاختياري داخل إطار التكليف وخارجه ، وغاية هذا العقل هو اختيار البديل الذي تريده النفس ..

وهكذا نرى أنَّ قوّة الجبر المؤثِّرة في حياة الإنسان ، مصدرها قضاء الله تعالى الكوني ، عبر ساحة الغيب بالنسبة للإنسان ، وأنَّ هذه القوّة تنطبق على محور القضاء الكوني ، على الخط الفاصل بين ساحتي بدائل الإيمان والكفر ، وتتّجه من الميلاد باتّجاه الموت ..





ج : هي قوّة الجبر التي تدفع بالنفس من النقطة (ن١) إلى التي تليها ..

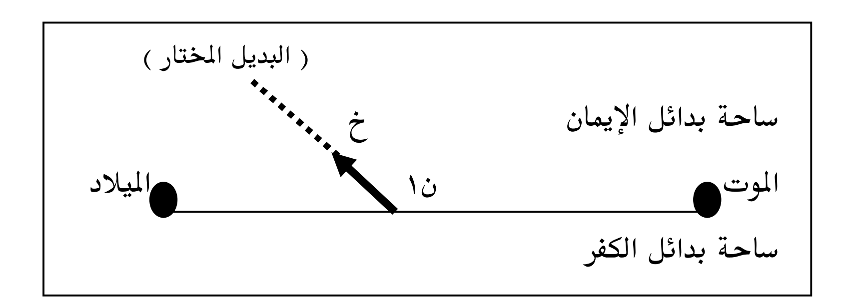
.. إنَّ قوّة الجبر والتسيير التي يتعرّض لها الإنسان عبر ساحة الغيب ، ومن خلال انصياعه لقضاء الله تعالى الكوني ، تظهر واضحةً جليّةً في الآيات الكريمة التالية ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ – ١٦]

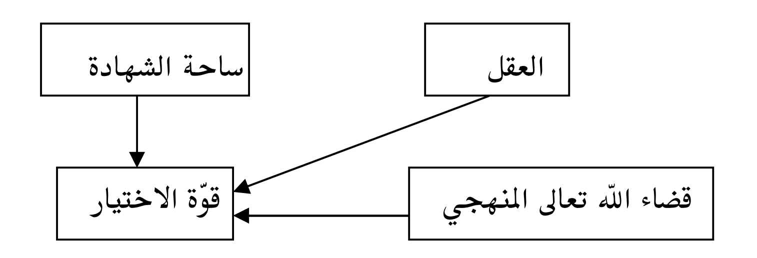
﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤]

لذلك نرى أنَّ الفاعل في جميع هذه القوى الدافعة للإنسان على منحني حياته من مرحلة لأخرى هو الله تعالى ، عبر القضاء الكوني الجبري الذي يحكم الإنسان عبر ساحة الغيب ..

ولو نظرنا إلى المؤثّرات الباقية (ساحة الشهادة ، القضاء المنهجي التكليفي ، القضاء الاختياري غير التكليفي ، العقل) لرأيناها تدفع النفس من النقطة (ن١) إلى التي تليها على منحني الحياة ، حسب الجهة والبديل الذي تختاره الذات ، من بين مجموعة البدائل المتوفّرة أمام الذات ..



خ : قوّة الاختيار التي تدفع بالنفس من النقطة (ن١) إلى التي تليها على محور القضاء المنهجي ، وذلك باتّجاه البديل الذي تريده هذه النفس ..



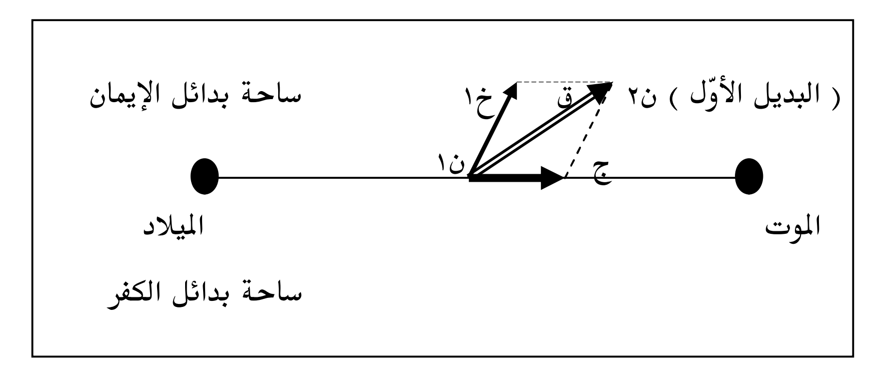
.. وعناصر قوّة الاختيار تظهر بشكلٍ جليٍّ في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف : ٨٦]

إنَّ عناصر اختيار بديل من البديلين المعروضين كلّها موجودة .. فالقضاء المنهجي موجود ، وهو قول الله تعالى لذي القرنين ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ ، وإعطاؤه حريّة الاختيار بين هذين البديلين ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ ، والعقل موجود ، وهذان البديلان موجودان في ساحة الشهادة بالنسبة لذي القرنين (وهما في ساحة بدائل الإيمان) ، وجهة هذه القوّة تتبع للبديل الذي يختاره ذو القرنين ..

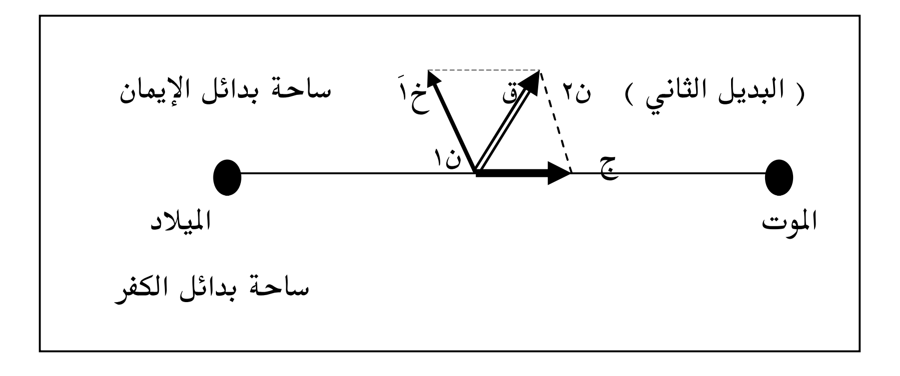
وتكون محصّلة القوّة (ق) التي تدفع النفس من النقطة (ن١) إلى النقطة (ن٢) على منحني حياتها ، هي محصّلة قوّتي الجبر (ج) والاختيار (خ) ..

ففي قصّة ذي القرنين ، وفي حال اختيار ذي القرنين البديل الأوّل ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ ، تكون محصّلة القوى (ق) التي تدفع النفس من النقطة (ن١) إلى النقطة (ن٢) كما في الشكل التالي ..



[[معلوم أنَّ محصّلة قوّتين تنطبق على قطر متوازي الأضلاع المرسوم على هاتين القوّتين]]

.. وفي حال اختار ذو القرنين البديل الثاني ﴿ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾ ، تكون محصلة القوى (ق) التي تدفع النفس من النقطة (ن١) إلى النقطة (ن٢) كما في الشكل التالي ..



.. فانتقال النفس على منحني حياتها ، من النقطة (ن١) إلى النقطة (ن٢) التي تليها ، يتعلّق (بالإضافة إلى قوّة الجبر) ، بالبديل الذي تختاره النفس من بين مجموعة البدائل المتاحة ..

فلو اختارت النفس بديلاً آخر لكانت النقطة (ن٢) في موقع آخر يتعلّق بهذا البديل .. وعندما تصل النفس على النقطة (ن٢) على منحني حياتها ، تخضع لتأثير قوّة جديدة (ج ٢) في هذه النقطة ، وتخضع أيضاً إلى قوّة اختيار جديدة (خ ٢) .. فالبدائل

المتاحة في هذه النقطة تختلف عنها في النقطة السابقة ، وعلى النفس اختيار بديل جديد من بين البدائل المختلفة المتوفّرة أمامها في هذه النقطة الجديدة ، ونتيجة محصلة قوتي الجبر والاختيار الجديدتين (ج ٢ ، خ ٢) تنقل النفس من النقطة (ن٢) إلى النقطة (ن٣) على منحني حياتها ..

ونرى أيضاً أنَّ موقع النقطة (ن٣) يتعلّق – بالإضافة لقوّة الجبر ج ٢ – بالبديل المختار في هذه النقطة ، فلو اختارت النفس بديلاً آخر لكان موقع النقطة (ن٣) مختلفاً ..

وعندما تصل النفس إلى النقطة (ن٣) تخضع أيضاً لمحصّلة قوّتي الجبر والاختيار فيها (ج ٣ ، خ ٣) ، لتصل إلى النقطة (ن٤) .... وهكذا ينتقل الإنسان على منحني حياته من ميلاده إلى موته ، مدفوعاً في كلّ نقطة على هذه المنحني بمحصّلة قوّتي الجبر والاختيار في تلك النقطة ..

وإنَّ ما يختاره الإنسان ويوصله إلى نقطة ما تتعلّق باختياره ، قد يكون – هذا الاختيار – قوّةً جبريّة بالنسبة لإنسانٍ آخر .. فالذي اختار بكامل إرادته الغدر بإنسان ، فإنَّ هذا الاختيار هو قوّة جبريّة بالنسبة للإنسان المغدور به .. فالمغدور لم يختر هذا الموقف ، و لم يعلم به ، ولكن ما يختاره هو طريقة الردّ على هذا الغدر بعد أن علم به .. لذلك فقد تكون قوّة الاختيار بالنسبة لبعض الناس قوّةً جبريّةً بالنسبة لبعضهم الآخر ..

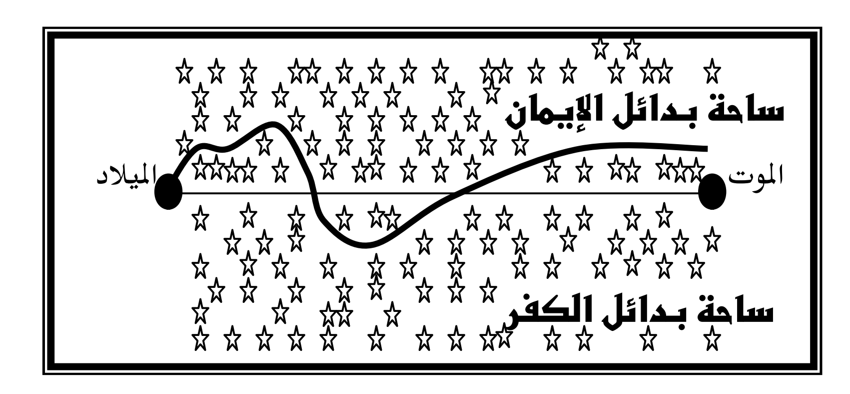
﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٠]

وإنَّ لكلّ نفسٍ في كلّ نقطةٍ على منحني حياتها بدائلَها الخاصّة المتاحة أمامها ، وهذا يعود إلى حكمة الله تعالى في توفير الأسباب والبدائل أمام هذه النفس ، بهدف ابتلائها واختبارها في ذلك ..

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨]

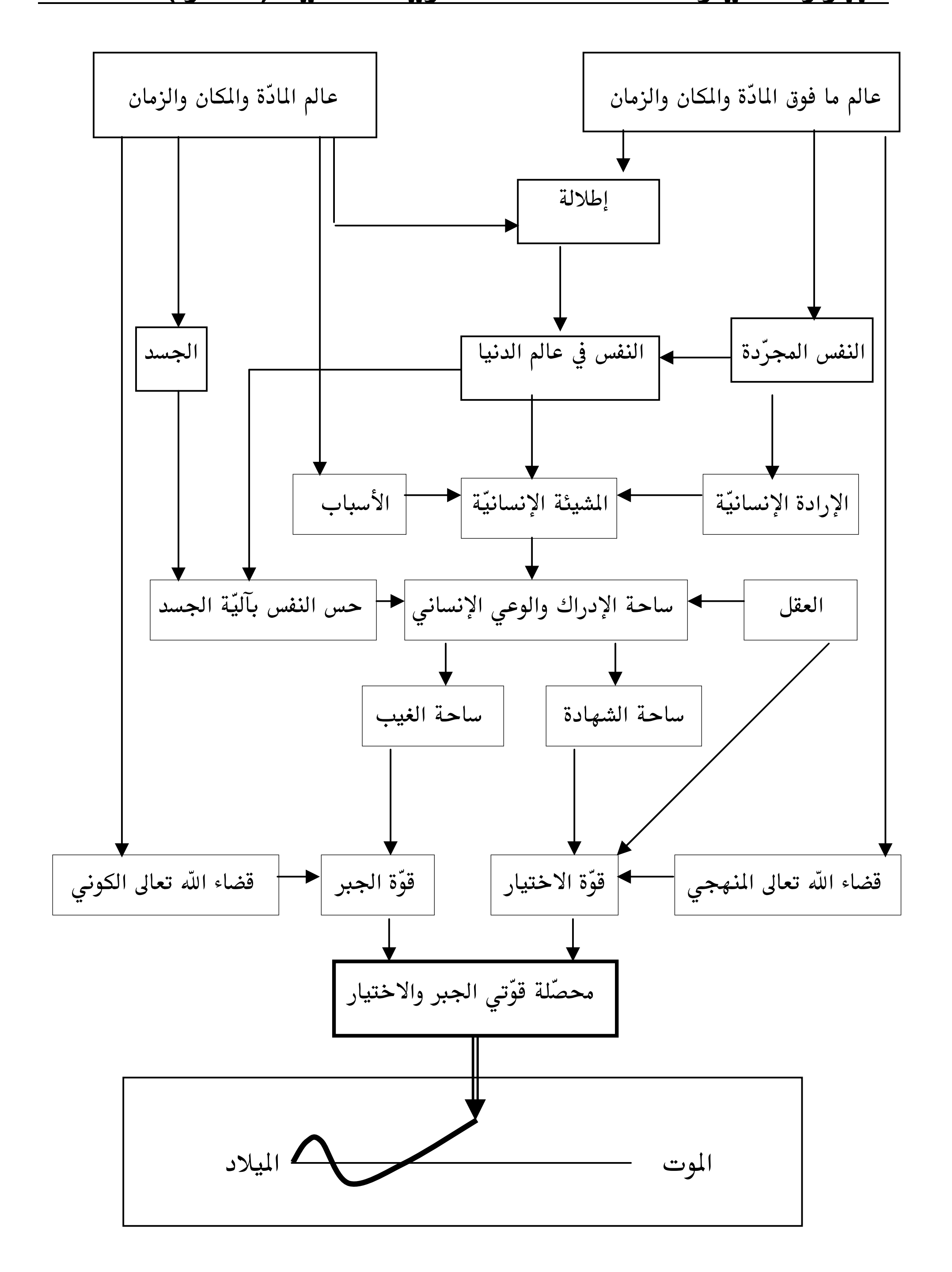
﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

ولو قمنا بوصل النقاط التي تمرّ عبرها النفس في مراحل حياتها من الميلاد إلى الموت (ن١ ، ن٢ ، ن٣ ، ن٤ ، ن٥ ، ....) نتيجة دفعها بمحصّلة قوّتي الجبر والاختيار ، لحصلنا على منحني حياة الإنسان ، هذا المنحني الذي تحيط به مجموعة البدائل التي تركها الإنسان و لم يخترها ، والتي كان بإمكانه اختيارها ، وبالتالي تغيّر شكل هذا المنحني تبعاً لهذا الاختيار .. فهذه البدائل المتاحة حول منحني حياة النفس ، تحوي الكثير الكثير من المنحنيات التي كان بإمكان النفس المرور عبرها ، فيما لو اختارت بدائل أُخرى ..



النجوم☆) تمثّل مجموعة البدائل التي كان بإمكان الإنسان أن يختارها ، ولم يخترها ..

ولو قمنا بترتيب الأفكار السابقة ، ودمج مخطّطاتها في مخطّط متكامل ، لحصلنا على المخطّط التالي ..


عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان
عالم المادّة والمكان والزمان
إطلالة
النفس المجرّدة
النفس في عالم الدنيا
الجسد
الإرادة الإنسانيّة
المشيئة الإنسانيّة
الأسباب
العقل
ساحة الإدراك والوعي الإنساني
حس النفس بآليّة الجسد
ساحة الشهادة
ساحة الغيب
قضاء الله تعالى المنهجي
قوّة الاختيار
قوّة الجبر
قضاء الله تعالى الكوني
محصّلة قوّتي الجبر والاختيار
الموت
الميلاد

إنّ مسائل الجبر والاختيار والقضاء والقدر ، تحتاج إلى حدٍّ من العمق الرياضي الفلسفي اللازم لتصوّر هذه المسائل .. وإنَّ عدم امتلاك (حتّى بعض العلماء) لهذا العمق الرياضي الفلسفي ، جعلهم يتيهون في عرضهم لهذه المسائل .. فالمسألة مبنيّة على مقدّمات جميعها ذات عمق رياضي فلسفي ، ولا يمكن تصوّر البرهان الصحيح والنتيجة النهائيّة لهذه المسائل ، والتي بيّنها القرآن الكريم ، إلاّ عبر هذه المقدّمات .. ولو قام الإنسان بتحليل كلّ حركة من حركات حياته ، لوجدها تخضع لمحصلة قوّتي الجبر والاختيار ، وفق هذا المخطّط ..

لننظر على الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾
سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾
ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا
تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ [المدّثّر : ١١ – ٢٩]

.. إنّ قوّة الجبر والتسيير التي تدفع حركة هذا الإنسان على منحني حياته ، تأتيه من القضاء الكوني وعبر ساحة الغيب .. فخلقه في أسرته المحدَّدة ، وبيئته المحدَّدة ، وظروفه المحدَّدة ، وتسخير الأسباب المؤدّية للمال والبنين ، وتمهيد ذلك كلّه ، ودفعه على هذا الموقف الاختياري الذي يأخذ فيه موقفاً من القرآن الكريم ، عبر بدائل خاصّة تحيط به .. هذا كلّه من قضاء الله تعالى الكوني ، الذي يحكمه عبر ساحة الغيب ، ويدفعه جبراً على منحني حياته .. لذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يعيد كلّ هذه المسائل إلى الله تعالى ،

فالفاعل في هذه المسائل [﴿ خَلَقۡتُ ﴾ ، ﴿ وَجَعَلۡتُ ﴾ ، ﴿ وَمَهَّدتُّ ﴾] ، هو الله سبحانه وتعالى ..

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالًا مَّمۡدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴾ ..

أمّا قوّة الاختيار التي تدفع بنفسه على منحنى حياته ، نراها واضحةً جليّة ، وذلك بتوفّر جميع عناصرها .. إنَّ القضاء المنهجي موجود أمام هذا الإنسان ، فهو يسمع القرآن الكريم ، وقد بُلِّغ ذلك ودُعي لاتّباع هذا المنهج ، وهو يتفاعل مع هذا القضاء المنهجي عبر ساحة الشهادة ، فالقرآن الكريم موجود ويسمعه ويستطيع قراءته ..

وهو يملك العقل الذي يميّز به بين البدائل المختلفة ، ودليل ذلك هو تفاعله مع هذه المسألة ، لذلك نرى أنَّ الله تعالى يُعيد هذه المسائل الاختياريّة إلى هذا الإنسان ، وليس لله تعالى كما هو حال مسائل القضاء الكوني الجبري .. فالفاعل في هذه المسائل [﴿ فَكَّرَ ﴾ ، ﴿ قَدَّرَ ﴾ ، ﴿ نَظَرَ ﴾] ، هو هذا الإنسان ..

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴾

ونرى أنَّ قوّة الاختيار في نفسه اتّجهت نحو بدائل الكفر ، في الوقت الذي كان بإمكانها أن تتّجه فيه نحو بدائل الإيمان ، وذلك عبر حريّة كاملة .. فقوى الجبر التي وضعت هذا الإنسان في هذا الموقف الاختياري ، هي ذاتها مقدّماتٌ لاختيار بدائل الإيمان والكفر ، ولكنَّ نفسه الكافرة اتّجهت نحو بدائل الكفر ، ساحبةً منحنى حياته إلى هذه الساحة ..

﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴾

ولذلك فهو يستحقّ العقاب على اختياره بدائل الكفر ، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يختار فيه بدائل الإيمان ..

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾

.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٢ – ٦٥]

إنَّ قوّة الجبر والتسيير هنا تتمثّل في وضعهم بهذا الظرف الاجتماعي والمادّي والجسدي ، وكلّ عناصر القضاء الكوني التي تحكمهم عن طريق ساحة الغيب ، فهم مخلوقون في المجتمع الذي بُعث فيه إبراهيم عليه السلام ، وفي تلك الفترة الزمنيّة ، ولا خيار لهم في ذلك ، ولكلٍّ منهم ظرف اجتماعي وجسدي ومادّي خاص به ، وكلٌّ منهم مولودٌ في أسرة محدَّدة لها صفاتها الخاصّة بها ، ومن خلال أبوين محدَّدين ، وكلٌّ منهما له طاقته العقليّة والجسديّة الخاصّة به ، ولا خيار له في ذلك ، وألّف القضاء الكوني الظروف التي أدّت إلى دفعهم نحو هذا المشهد الاختياري .. هذه هي قوّة الجبر والتسيير التي تدفع حركة حياة كلٍّ منهم بقوّة القضاء الكوني الجبري ، وعبر ساحة الغيب ، وذلك على المحور الفاصل بين ساحتي بدائل الإيمان والكفر ..

ونرى أنَّ جميع عناصر قوى الاختيار متوفّرة ، فهم يملكون عقولاً يفكّرون بها ، ويميّزون من خلالها بين البدائل المختلفة ، والمنهج الشرعي التكليفي الذي تتفاعل عقولهم معه في هذا الموقف موجود ، وهو معرفة ماهيّة هذه الأصنام التي يعبدونها والتطلّع إلى حقيقة عجزها عن النطق ، فضلاً عن عجزها عن نفعهم وضرّهم ، وساحة هذا التفاعل

هي عالم الشهادة الذي يتحرّكون خلاله ، فهؤلاء يملكون حريّة اختيار كاملة في الاتّجاه نحو البديل الذي يريدونه ..

ونرى أنَّ الفطرة السليمة البعيدة عن وسوسة الشياطين وأمر السوء ، قد اختارت بديلاً من بدائل الإيمان ، لتدفع هذه النفوس على منحنى حياها باتجاه نقطة من ساحة بدائل الإيمان .. ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ..

.. ولكنّ تلوّث هذه النفوس بتصوّرات عالم المادّة المتناقض ، والتي يتفاعل فيها أمر السوء ووسوسة الشيطان ، يعود بهذه النفوس — التي قفزت إلى نقطة من ساحة الإيمان — باتّجاه بديل ينتمي إلى ساحة بدائل الكفر ، وبالتالي انتكست هذه النفوس عبر عودة منحنى حياها إلى ساحة الكفر .. ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ ..

والنفس الإنسانيّة أثناء وجودها على أيِّ نقطة من منحنى حياها ، هي في صراع دائم مع البدائل المتاحة أمامها .. واختيارُها لبديل ما يتعلَّق بدرجة إيمانها ووعيها ..

فالنفس الكافرة تتّجه باتّجاه بدائل الكفر دون أن تُعطي أيَّ اهتمام لبدائل الإيمان ..

﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٦]

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٣ — ١٤]

والنفس المؤمنة تتّجه باتّجاه بدائل الإيمان ، مهما كانت هذه البدائل قاسية ..

﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ

أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه : ٧١ – ٧٣]

وهكذا نرى كيف تندفع النفس على منحني حياتها من الميلاد من الميلاد باتّجاه الموت في كلّ لحظة ، نتيجة لمحصّلة قوّتي الجبر والاختيار ، وأنَّ الإنسان مُسيَّر ومخيّر في كلّ نقطة من منحني حياته ..

فالذي قال إنَّ الإنسان مسيّر تماماً ومسلوب الإرادة ، يكونه كلامه صحيحاً إن استطاع أن يثبت أنَّه لا يملك عقلاً يميّز به بين البدائل المختلفة الموجودة في ساحة شهادته ، وأنَّ قضاء الله تعالى المنهجي الذي اختاره للبشر ، ينصاع له جميع البشر دون استثناء ..

والذي قال إنَّ الإنسان مخيّر تماماً في كلِّ شيء ، وإنَّ قوّة الجبر معدومة في حياته ، عليه أن يُثبت أنَّ القضاء الكوني الذي يحيط به ويدفعه باتّجاه مواقف الاختيار من ميلاده إلى موته ، هو من صنعه ويتفاعل معه عبر ساحة الشهادة بعيداً عن ساحة الغيب ..

وبما أنَّ قوّة الجبر هي من الله تعالى ، ومتعلّقة بالقضاء الكوني الذي يحكم الإنسان عبر ساحة الغيب ، فلا يمكن لهذه القوّة أن تدفع النفس إلى الفساد .. فالفساد دائماً وأبداً يأتي عن طريق دفع قوّة اختيار النفس باتّجاه بدائل الفساد ، والابتعاد عن بدائل النفع والصلاح الموجودة في منهج الله تعالى ..

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١]

إنَّ كسب أيدي الناس ، وعملهم وأخذهم بالأسباب باتّجاه أهوائهم البعيدة عن منهج الحق الذي يريده الله تعالى ، هو مرجع ظهور الفساد ..

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١]

ومن هنا كان اختيار منهج الله تعالى ، هو البديل الوحيد الذي يؤدّي إلى النفع والصلاح ويُبعد عن الفساد .. وهذه نتيجة طبيعيّة يقرُّ بها كلّ عقلٍ سليم ، فالذي خلق الحياة وسخّر أسبابها وأوجد فيها البدائل المختلفة ، هو ذاته عزّ وجلّ مترّل منهجه الشرعي وصراطه المستقيم ، الذي يطلب من عباده السير في نوره ، واختياره بديلاً من بين البدائل المختلفة ..

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الروم : ٤١]

ولو نظرنا إلى المخلوقات الأُخرى التي لا تملك عقلاً ، ولم يُنَزَّل عليها منهجٌ شرعي ، أي التي لا تملك حرية الاختيار .. هل نرى في حياتها أيّ فساد ؟ .. لو نظرنا إلى السماء بنجومها وكواكبها التي تسير وفق قضاء الله تعالى الكوني لها ، هل نرى في حركاتها ومداراتها أيّ فساد ؟ .. لو تصوّرنا أنَّ كلَّ نجم أو كوكب يسير وفق مسارٍ يختاره بذاته ، ونتيجة قوّة بعيدة عن علم الله تعالى وحكمته .. عند ذلك ماذا نتصوَّر النتيجة ؟ ..

لو نظرنا إلى عالم النبات والحيوان في البرّ والبحر ، لرأينا أنّ الفساد دائماً وأبداً يكون نتيجة لكسب يد الإنسان ، وتوجيهه للأسباب المسخّرة لخدمته ، باتّجاه هوى نفسه ، وتصوّراته البعيدة عن منهج الحق الذي أراده الله تعالى لعباده ..

إنَّ عدم إدراك الفارق بين ما يُصيب الإنسان دون سابق علم واختيار ، وبين ما يحصل معه نتيجة اختياره ، هو ما يُبعد بعض الناس عن تصوّر الحكمة الإلهيّة في المصائب التي تُصيب الإنسان دون سابق علم واختيار ..

لقد وردت كلمة (مصيبة) في القرآن الكريم (١٠) مرّات ، وفي جميع هذه المرّات نراها ترتبط بكلمة (أصاب) أو إحدى مشتقّاتها ، و لم تأت مستقلّة عن كلمة (أصاب) ومشتقّاتها ولا مرّة واحدة ، وهذا يدلُّ على أنَّ المصيبة المعنيّة تتعلّق بالقضاء الكوني الذي يحكم الإنسان خارج إطار علمه واختياره ..

صحيح أنَّ المصيبة لها ارتباط بما كسبت يد الإنسان ، وأنَّها من المستحقّات التي حكم الله تعالى بها على الإنسان في حياته الدنيا ، وله تعلُّق بما قدّمت يداه ..

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [النساء : ٦٢]

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [القصص : ٤٧]

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠]

ولكنّها لا تصيب الإنسان من زاوية الاختيار المباشر الذي يريده ، ولا تعني حركات الإنسان الإراديّة الاختياريّة .. لذلك فهي ترتبط بالقضاء الكوني ، الذي حكم به الله تعالى وفق علمه المطلق ، حيث يعلم الله تعالى ما سيختاره الإنسان بالمستقبل وما ستكسب يد هذا الإنسان ، وما يترتّب على هذا الكسب ، وترتبط أيضاً بحكمة امتحان الله تعالى لهذا الإنسان ، ولا تكون إلاّ بإذن الله تعالى ..

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [التغابن : ١١]

فكلّ ما يصيب الإنسان من هذه المصائب ، يعلمه الله تعالى في علمه الأزلي المطلق ..

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٢ – ٢٣]

والمؤمن يدرك حقيقة هذه المصائب المرتبطة بقضاء الله تعالى الكوني ، الذي يصيب الإنسان عبر ساحة الغيب ، ويدرك أنّها ترتبط بحكمة الله تعالى في امتحانه .. لذلك فهو يتفاعل معها بالصبر والتقوى ..

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ – ١٥٧]

فهذه المصائب المرتبطة بالقضاء الكوني ، وبالتالي بقوّة الجبر التي تدفع النفس على محور القضاء الكوني ، لا تُلغي قوّة الاختيار الحرّة التي تدفع بالنفس على محور القضاء المنهجي .. بل إنَّ هذه المصائب قد أصابت الإنسان لامتحانه في اختياره بين البدائل الجديدة التي أحدثتها هذه المصائب ..

ويتصوّر بعض البشر أنَّ انصياعهم لمنهج الله تعالى يُكبّل حريّتهم وحركتهم في الحياة .. ولو نظر هؤلاء إلى حقيقة الأمر ، نظرةً مرتبطةً بالعقل ، بعيدةً عن التصوّرات الملوّثة بهوى النفس الأمّارة بالسوء ، وعن وسوسة الشيطان ، لرأوا أنَّ حقيقة الأمر عكس ما تصوّروا تماماً ..

إنَّ المنهج الذي يقيّد حركة الإنسان في نقطة من منحنى حياته ، موجّهاً اختياره باتّجاه هدف محدَّد يخالف هوى النفس في تحرّكها باتّجاه الآخرين ، يُقيّد في الوقت نفسه حريّة جميع البشر من الاعتداء على حركة هذا الإنسان في هذه النقطة من منحنى حياته .. إنَّ المنهج الذي يقيّد حركة الإنسان من الاعتداء على أموال البشر وحقوقهم وأعراضهم ، يقيّد في الوقت نفسه جميع البشر من الاعتداء على مال هذا الإنسان وحقوقه وعرضه ..

فالقيد الذي يضعه المنهج الإلهي لاختيار بديلٍ محدَّد ، من مجموعة البدائل المتوفّرة لنقطة محدَّدة من منحنى سير حياة الإنسان ، هو ذاته قيدٌ يكبّل جميع البشر من الاعتداء على حركة الإنسان في هذه النقطة وعبر هذا البديل ..

ويتصوّر بعض البشر أنَّ التحرّك بين إنسان وآخر وبرغبة تامّة من كليهما ، لاختيار بديل مشترك بينهما ، بعيداً عن البديل المنهجي المقابل له ، هو مسألة خارج إطار الفساد ، كالزنا مثلاً حين وقوع رغبة بين الطرفين بوجود قناعتهما ورغبتهما ..

إنَّ من يتصوّر ذلك يكون مصيباً (هذا عندما نتجاهل حقيقة الآخرة بثوابها وعقابها وحكمة الامتحان في الدنيا) عندما يملك بيده أسباب الحياة بشكل غير محدّد بإطار المكان والزمان ، وأن يوجّه بيده دفّة الحياة وأسبابها وقوانينها ، وفق تصوّره الخاص ، باتّجاه النتيجة التي تصوّرها ..

فالذي تصوَّر – مثلاً – ابتعاد الإباحيّة عن الفساد ، لم يُدخل في تصوّره الكافر الفسادَ والأمراضَ التي تصيب النفس والجسد ، نتيجة ممارسة هذا التصوّر ، ولم يُدخل في تصوّره هذا الانهيارَ الأخلاقي والانحلالَ الاجتماعي والتفكّكَ الأسريّ الناتج عن ذلك ..

أمّا خالق الإنسان وخالق الأسباب التي تؤدّي (إن وُجّهت بغير الجهة التي أمر الله تعالى بها) إلى الأمراض والفساد ، والعالم علماً مطلقاً بكلّ شيء ، ومُمْتَحِن الإنسان ، ومن يجزي على العمل في الآخرة ، ينهى – في منهجه – الإنسانَ عن ذلك ، لأنَّه جلَّ وعلا يعلم تماماً النتائج التي تؤدّي إليها هذه التصوّرات ، سواء فساد الدنيا ، أم جزاء الآخرة ..

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢]

إنَّ الفارق بين مناهج البشر وتصوّراتهم لحركة الحياة ، وبين منهج الله تعالى وقوانينه لهذه الحركة ، يوازي الفارق في القدرة والعلم والحكمة وكلّ الصفات ، بين هؤلاء البشر وبين الله تعالى ..

فحريّة الإنسان وكرامته وسلامته ، لا تكون إلاَّ بانصياعه التامّ لمنهج الله تعالى ، الذي يدفع النفس (الملتزمة به) على منحني حياتها ، باتّجاه ساحة الإيمان التي تؤدّي به إلى السعادة في الدنيا والآخرة ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

العلم والوجود

.. لو نظرنا إلى مخطَّطِ القوى التي تدفع النفس على منحني حياتها ، في البحث السابق (الجبر والاختيار) ، وكيف لو أنَّ النفس قد اختارت بدائل أُخرى ، ستسلك منحنً آخر غير المنحنى الذي سلكته ، لتولّدت في نفوسنا التساؤلات التالية :

١ – هل حركة الحياة متعلِّقة باختيار الإنسان ((ضمن حدود الاختيار المتاحة)) ، وأنَّ قوى الاختيار مستقلّة تماماً عن الرسم المسبق ، وبالتالي مستقلّة عن الجبر ..

٢ – أم أنَّ حركة الحياة ، هي ترجمة في عالم المادة والمكان والزمان ، لما هو مرسوم مسبقاً ، حتى الاختيار يكون مرسوماً مسبقاً ..

٣ – أم أنَّ منحني الحياة المرسوم نتيجة محصلة قوتي الجبر والاختيار – وفق المخطط الذي رأيناه في القسم السابق – هو منحنٍ معلومٌ مسبقاً من قِبَل الله تعالى ، لأنَّ علمه الكاشف (غير المؤثِّر) الذي لا يحدّه مكان ولا زمان ، يحيط إحاطة مطلقة بهذا المنحني ، قبل خلق الإنسان في هذا العالم ، دون أن يتنافى ذلك مع حرية الاختيار للإنسان ..

٤ – أم أن هناك وجهاً آخر (أو أكثر) للمسألة ؟ ..

ومن جهة أُخرى ، هل هناك فارق بن علم الله تعالى في مراحل الزمن الثلاث ، الماضي والحاضر والمستقبل ؟ .. وأين مسألة ترتيب الحوادث من الماضي باتجاه المستقبل – التي تحكم المخلوقات – من معنى الوجود الإلهي ؟! ..

للإجابة على هذه التصورات ، لا بدَّ من إدراك المسألتين التاليتين ..

أ – معنى الوجود ، وما هو الفارق بين وجودنا ووجود الله تعالى ..

ب – معنى العلم ، وما هو الفارق بين علمنا وعلم الله تعالى ..

الوجود

إنَّ وجود المخلوقات ضمن إطار المكان والزمان ، واحتجازها حيزاً ضمن هذا الإطار ، مرهون في كلِّ لحظة بقدرة الله سبحانه وتعالى وبمشيئته ..

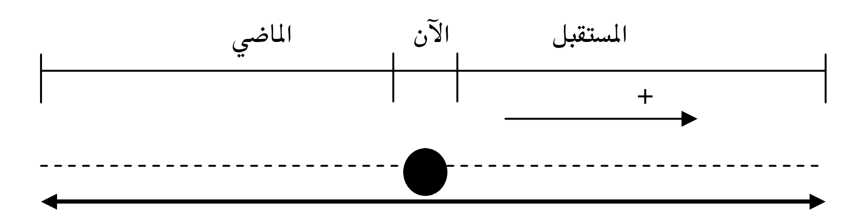
لقد رأينا في بحث المادة ، كيف أنَّ اللبنات الأولى للمادة محتاجةٌ في وجودها إلى الطاقة التي تحرِّك عناصرها وتعطيها قوامها وخواصّها ووجودها ، في عالم المادة والمكان والزمان .. فلولا وجود هذه الطاقة لتلاشت هذه اللبنات ، وبالتالي لانتهت المادة إلى الزوال ..

ورأينا أيضاً أنَّ الطاقة التي تُعطي المادة قوامها ، هي مخلوقٌ مودعٌ في هذه المادة من أجل إكسابها هذا القوام .. ولو يسحب الخالق سبحانه وتعالى — في أيِّ لحظة يشاء — هذه الطاقة لزالت المادة ، وبالتالي لزال المكان الذي تسبح فيه هذه المادة ، ولتلاشى الزمان الذي يحكمها .. لذلك فالسموات والأرض محتاجةٌ من أجل وجودها في كلِّ لحظة إلى مقوِّمات هذا الوجود من الخالق سبحانه وتعالى .. فالله تعالى يُمسك السماواتِ والأرضَ في كلِّ لحظة من الزوال عن طريق إعطائها مقوِّمات هذا الوجود ، فوجودها ليس مستمدّاً من ذاتها ، إنما هو بحاجة في كلِّ لحظة إلى الخالق سبحانه وتعالى ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

ورأينا أيضاً أنَّ إمساك الله تعالى للسماوات والأرض ، عن طريق إعطائها حيثيات هذا الوجود أتى بصيغة الاستمرارية ﴿ **يُمۡسِكُ** ﴾ ، وهذا يدل على الاستمرارية والقيّوميَّة ..

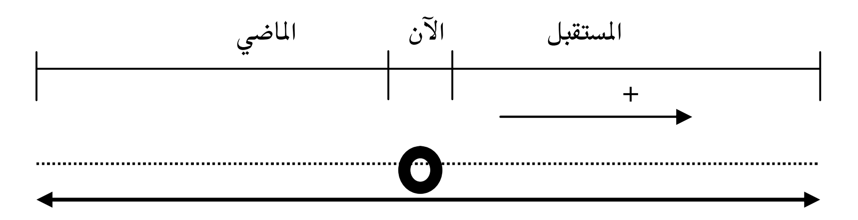
إنَّ وجود الشيء مكاناً وزماناً في لحظة ما ، لا يقتضي حتمية وجوده في اللحظة التالية ، إلّا بمشيئة الله تعالى .. فحيثيّات الوجود في كلِّ لحظة وماهيّته هي بيد الخالق سبحانه وتعالى ، وبإذنه ، ومرهونةٌ بمشيئته لوجود هذا الشيء في عالم الوجود ضمن إطار المادة والمكان والزمان ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ ﴾ [الروم : ٢٥] ..



⬤ : لحظة الوجود مكاناً وزماماً بالنسبة للمخلوقات ، وترافق الخروج إلى عالم الوجود المادّي في كلِّ لحظة بإذن الله تعالى ..

ووجود المخلوقات في كلِّ لحظة ، هو وجودٌ بين عدمين .. اللحظة التي ذهبت ولا يمكن للمخلوق اللحاق بها وعيشها مرة أُخرى ، لذلك أصبحت – بالنسبة للمخلوق – في حالة العدم ، واللحظة الآتية وهي أيضاً بالنسبة له في حالة العدم ، لأنه لا يستطيع القفز إليها وعيشها قبل اللحظة التي هو فيها ، فهي خارج إطار الحياة التي يعيشها ..

وهذه اللحظة الموجودة بين عدمين ، والتي تحملنا على محور الزمن من الماضي إلى المستقبل ، لا يمكن تحديدها ، فهي صغيرة لدرجة العدم .. فلو تصورنا لها بعداً محدداً ، فهذا يعني توقف الزمن فيها ، وبالتالي توقُّف حركة المادة .. فالزمن مخلوق لحظي يتحرك على محور العدم ، وتُحمَل المادةُ فيه في كلِّ لحظة من العدم إلى حيز الوجود ، إنه حلقة تتحرَّك من الماضي باتجاه المستقبل على محور العدم ..



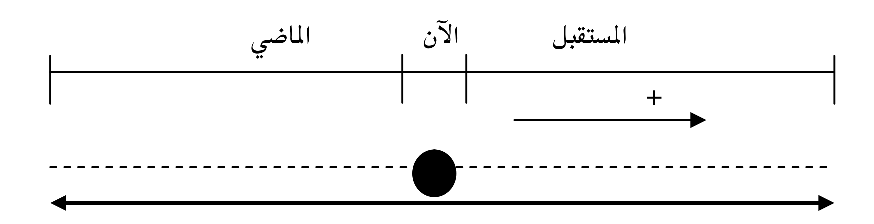
وهكذا نرى أنَّ المخلوق (عالم الوجود المخلوق المحسوس) موجودٌ فقط في اللحظة التي يعيشها — الآن — والمندفعة من الماضي باتجاه المستقبل .. فلا يمكن أن يكون موجوداً في ماضيه ، ولا يمكن أن يكون موجوداً في مستقبله ، ولا يمكن أن يعكس جهة اندفاعه على محور الزمان ، فيجعلها من المستقبل باتجاه الماضي ، لأنَّ ذلك يحتاج لأن يكون مالكاً للزمن ، وبالتالي خالقاً له ، أي أن يكون خالقاً لحيثيات وجوده هو ، وأن يكون وجودُهُ غيرَ محتاج لغيره ، وهذا مستحيل لأن المخلوقات — بما فيها الزمان — محتاجةٌ في كل لحظة إلى حيثيات وجودها من الخالق سبحانه وتعالى ، ولولا إعطاء الله تعالى هذه الحيثيات لها في كل لحظة لزالت هذه المخلوقات ..

أما وجود الله تعالى ، فلا تحكمه مادة ولا مكان ولا زمان ، لأنَّ وجودَه غيرُ مستمدٍّ من غيره ، ولأنَّ المكان والزمان الذين يحكمان المخلوقات ، ويضعانها في كلِّ لحظة بين عدمين ، لا يحكمان الخالق عزَّ وجلَّ .. فالله تعالى موجودٌ دائماً في الماضي والحاضر والمستقبل ، وحركة الزمن من الماضي باتجاه المستقبل التي تحكم المخلوقات ، لا تحكمه ولا تحكم علمه .. إن وجود الله تعالى في المستقبل ، هو ذاته في الحاضر ، وهو ذاته في الماضي .. ووجود الله تعالى في مكانٍ ما ، هوا ذاته وجوده في كلِّ مكان ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧]

إنَّ مسألة القدم مرتبطةٌ بمفهوم الزمن ، وهي مسألة موجودة فقط في تصوراتنا المحكومة لقوانين المكان والزمان ، ولا وزن لها بالنسبة لله تعالى ، لأنه غير محكوم لهذه القوانين ..

وخروج الحوادث إلى عالم الوجود الذي نحسُّ به ، هو مسألة لها قيمتها فقط بالنسبة للمخلوقات .. فعلمنا وإحساسنا بهذه الحوادث ، لا يكونان إلا بوجودنا وإيّاها ضمن إطار واحد من المكان و الزمان ، أمّا بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى ، فلا فارق عنده بالنسبة لعلمه ورؤيته لأيِّ حادثة ، بين الزمن الذي يسبق ظهورها والزمن الذي يليه وزمن وجودها المكاني والزماني ..



● : نزول الحادثة إلى عالم المكان والزمان ، ومشاهدة المخلوقات لها حين تكون معها في إطار واحد من الزمان والمكان ..

هذا بالنسبة للمخلوقات الموجودة داخل إطار المكان والزمان ، أي المخلوقات الماديّة التي تأخذ صورها المادية في هذا العالم ، أي التي تتبدَّل صورها من لحظة لأخرى ..

أمّا المسائل المتعلِّقة بأمر الله تعالى (عالم الأمر) كالقضاء المنهجي ..

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢]

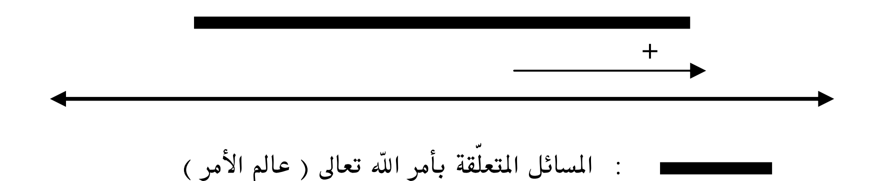
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]

فهي مسائلُ موجودةٌ دائماً بصورة واحدة ، داخل إطار المكان والزمان وخارجه ، وعلى الرغم من انعكاس صفات هذه الأمور في عالم المادة والمكان والزمان ، فالصور التي تعكس جوهر الأمور المتعلِّقة بالأمر الإلهي ، لا تتأثر بقوانين المكان والزمان ، وذلك على نفيض من المسائل المتعلِّقة بالخلق المادي ، والتي تتبدل صورتها تبعاً لانصياعها لقوانين المكان والزمان ..

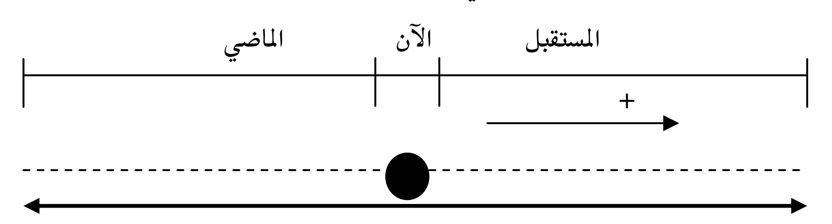
.. إذن هناك نوعان من المسائل ..

١ – مسائل متعلِّقة بأمر الله تعالى كالقضاء المنهجي ، وبالتالي هي خارج حكم إطار المكان و الزمان ، وعلى الرغم من وجودها ضمن إطار المكان والزمان ، لا تكون محكومة لقوانين هذا الإطار ، ولا تتأثّر ولا تتبدَّل عبره .. وهذا لا يعني أنها تحكم هذه القوانين .. إنَّ قوانين المكان والزمان هي بيد الله تعالى ، وعدم خضوع هذه المسائل لقوانين المكان والزمان ، لا يعني أنها تحكم هذه القوانين ..



: المسائل المتعلّقة بأمر الله تعالى (عالم الأمر)

٢ – مسائل متعلِّقة بخلق الله تعالى كالمادة ، وهي محكومة لقوانين المكان والزمان ، وتتأثَّر بهما ، وتتبدَّل تبعاً لهما وهي موجودة – في كلِّ لحظة تترل بها إلى عالم الوجود الحسِّي ضمن إطار المكان والزمان – بين عدمين ، ومدفوعة – بالنسبة لإدراكنا لمفهوم الزمن وإحساسنا به – من الماضي باتجاه المستقبل ..

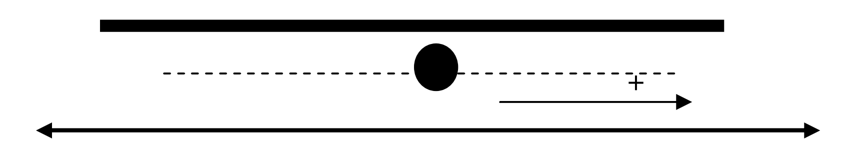


: المسائل المتعلّقة بخلق الله تعالى المادّي (عالم الوجود المخلوق المحسوس)

وسواء المسائل المتعلِّقة بالخلق أو بالأمر ، تعود جميعها إلى الله سبحانه وتعالى ..

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

ولو أخذنا تقاطع هذين النوعين من المسائل ، لوجدنا أنه في كلِّ لحظة نرى صورةً للمادة ضمن إطار المكان والزمان – المتغيِّر – في تلك اللحظة ، وصورةً – حسب تصوُّرنا ووعينا – لانعكاس المسائل المتعلِّقة بأمر الله تعالى – التي لا تتغيَّر – في تلك اللحظة ..



: المسائل المتعلّقة بأمر الله تعالى (عالم الأمر)

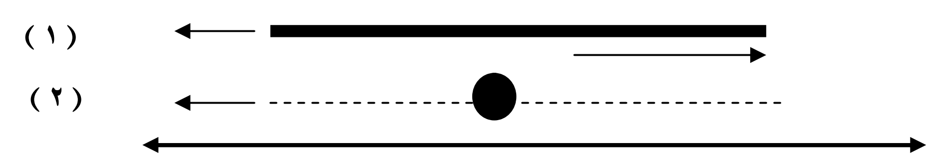
: المسائل المتعلّقة بخلق الله تعالى المادّي المحسوس

ويجب ألاّ نجعل من وعينا وقدراتنا وتصوُّراتنا المحكومة لقوانين المكان والزمان ، قيداً يحيط بتصوُّراتنا لمعنى الوجود الإلهي لله عزَّ وجلَّ .. فمسألة القدم والسَّرمدية سواء بالماضي أم المستقبل لا معنى لها إلاّ في تصوُّر المخلوقات المحكومة لإطار المكان والزمان ..

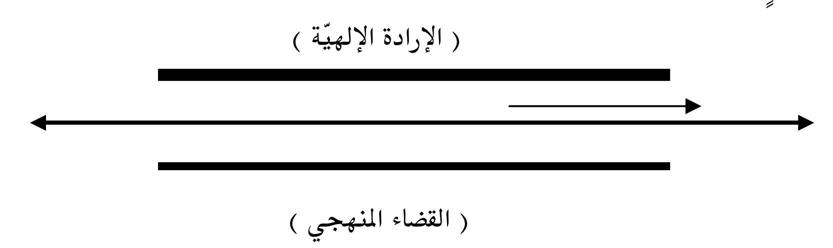
.. إذاً .. الأمور والأشياء الموجودة في علم الله تعالى ، يُنظَر إليها من زاوية الرؤية البشرية – المحكومة بإطار المادة والمكان والزمان – وفق صورتين :

١ – وجود دائم – في علم الله تعالى – خارج إطار المادة والمكان والزمان وداخله ..

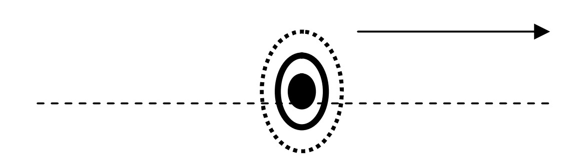
٢ – وجود مشاهدة لحظية في إطار المادة والمكان والزمان ، حيث نستطيع التعامل معها والتَّأثُّر والتَّأثير بها حسب استطاعتنا ..



لقد رأينا (في بحث الإرادة والمشيئة) أنَّ إرادة الله تعالى موجودة بشكل مجرَّدٍ عن عالم المادة والمكان والزمان ، ورأينا أيضاً (في بحث القضاء) أنَّ قضاء الله تعالى المنهجي موجود دائماً ، بغض النَّظر عن تطبيق ذلك في عالم المكان والزمان .. ومردُّ ذلك هو تعلقهما بالوجود المطلق لله تعالى .. لذلك فإرادة الله تعالى وقضاؤه المنهجي يمتدان بشكلٍ مستمرٍّ على محور الوجود الإلهي الدائم ..



ورأينا أيضاً أنَّ المشيئة الإلهية هي نزول الإرادة الإلهية إلى ساحة الوجود الحسِّي لإطار المكان والزمان ، عن طريق التفاعل مع الأسباب المتعلِّقة بمسائل الخلق ، المحكومة بالإطار اللحظي للمكان والزمان ، وأنَّ مشيئة الله تعالى تحيط أيضا بمشيئة الإنسان ، التي تُتَرجِم إرادتَه إلى عالم الحس والوجود .. فالمشيئة الإلهية هي الحلقة المحيطة بإطار المكان والزمان اللحظي ، المندفع على محور الوجود ، من الماضي باتجاه المستقبل ..

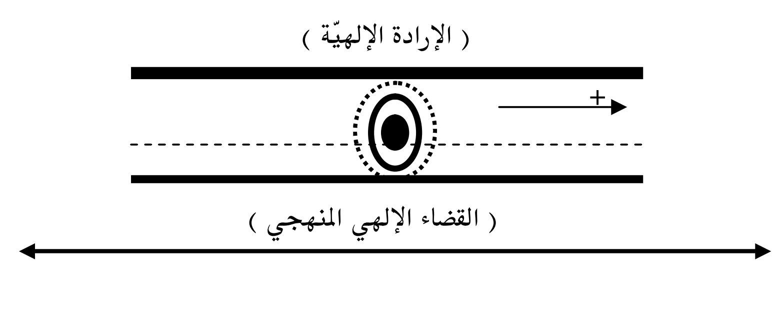


● : الوجود اللحظي للمخلوقات في إطار المكان والزمان

○ : المشيئة الإلهيّة

◌ : القدر الإلهي المحيط بهذه المشيئة

إذاً .. الإرادة الإلهية تمتدُّ على خطٍّ مستمرٍّ ، يوازي محور الوجود الدائم لله تعالى ، وكذلك القضاء الإلهي المنهجي .. أمّا المشيئة الإلهية ، فتحيط بالوجود اللحظي للحوادث في إطار المكان والزمان ، حيث تُوجَد الأسباب التي تُخرِج إرادة هذه المشيئة إلى عالم الوجود الحسِّي ، وبالتاي وقوع الأحداث ..



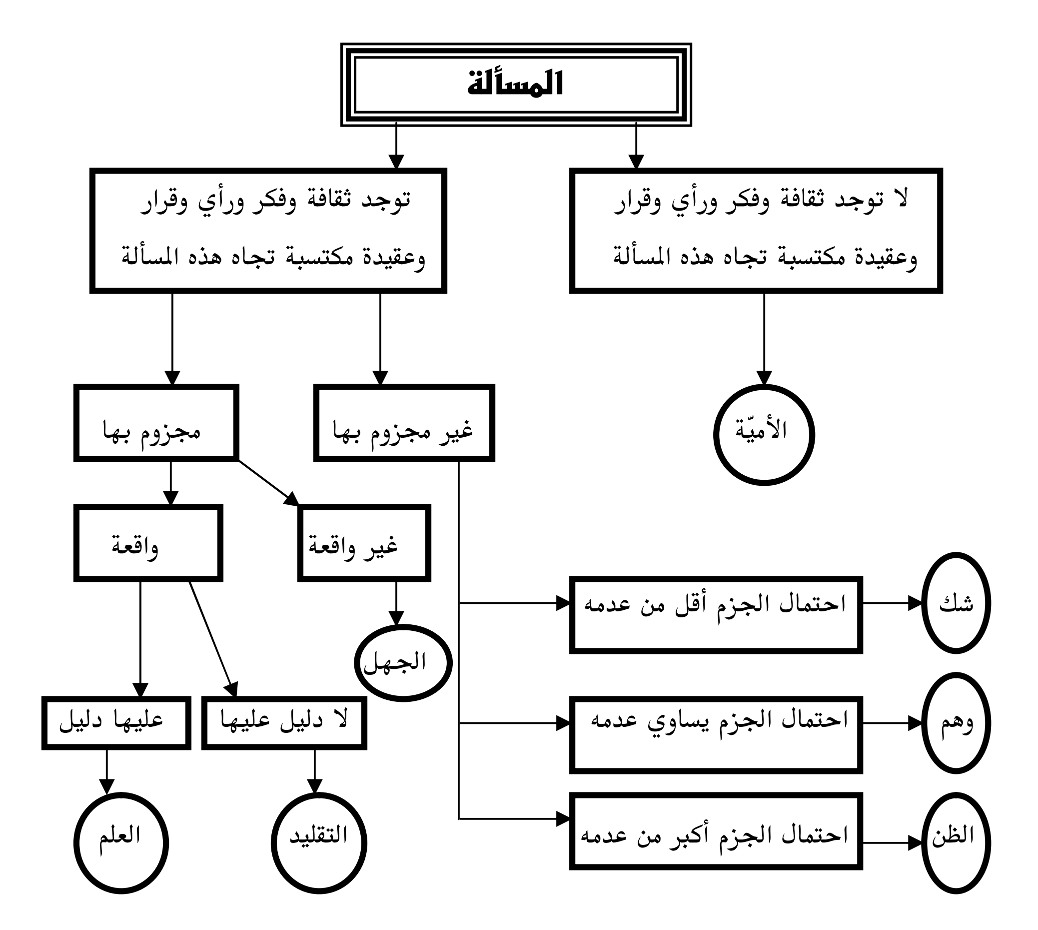
❃ ❃ ❃

العلم

العلمُ (بالنسبة للمخلوقات) هو الحقيقة الكونيّة الثابتة ، الناتجة عن اكتساب معرفة الشيء ، أو الحصول على خبره ، أو اقتفاء أثره ، أو إدراكه بالعقل ، أو مشاهدته ، أو الإحاطة النسبية بجانبٍ من جوانبه ، أو الكشف النسبي لحالِهِ خلف أغطية الغيب المقيَّد التي تمنعنا من إدراك هذه الحالة ، أو استنباط جزءٍ من قوانينه ونظمه الثابتة التي تحكمه ...

وحتى تكون النسبةُ المُدرَكَةُ التي تحكم فكرنا وعقيدتنا نسبةً علميّةً وواقعةً ضمن إطار العلم ، يجب أن تكون مطابقةً للحقيقة الكونية ، المحيطة بموضوع هذه النسبة ..

إنَّ معرفة البشر وإدراكهم وفكرهم تجاه أيِّ مسألة ، تتراوح بين العلم والتقليد والأُميّة والشَّك والوهم والظَّن والجهل ... ولمعرفة حقيقة أيّ فكر أو عقيدة من هذه الأُمور ، لا بُدَّ من اعتماد الميزان التالي ..



إنَّ أول اتَّجاهين يفترق عندهما فكر البشر ورأيهم وعقيدهم تجاه المسألة المطروحة هما :

أ – إما أنهم لم يكتسبوا تجاهها ثقافةً أو فكراً أو رأياً أو عقيدةً ، وعندها يكونون أُميِّين بالنسبة لهذه المسألة ..

ب – أو أنهم اكتسبوا ثقافةً وفكراً وقراراً وعقيدةً تجاه هذه المسألة ، وعندها سيفترقون إلى اتجاهين :

(❁) **– قسم غير جازم بهذه المسألة ، وهؤلاء على ثلاث أنواع :**

(١) – إما أن يكون احتمال الجزم بهذه المسألة أقل من احتمال عدم الجزم بها ، وعندها يكونون في حالة شك بالنسبة لهذه المسألة ..

(٢) – أو أن يكون احتمال الجزم بها يساوي احتمال عدم الجزم ، وعندها يكونون في حالة وهم بالنسبة لهذه المسألة ..

(٣) – أو أن يكون احتمال الجزم بهذه المسألة ، أكبر من احتمال عدم الجزم ، وعندها يكونون في حالة الظّن بالنسبة لهذه المسألة ..

(❁❁) **قسم جازم بهذه المسألة ، وينقسم هؤلاء إلى نوعين :**

(أ) – إمّا أن تكون هذه المسألة غير واقعة ، وبالتالي سيكونون في حالة جهل ، لأنهم جزموا بمسألة غير واقعة ..

(ب) – أو أن تكون واقعة ، وهنا سينقسم من جزم بهذه المسألة الواقعة إلى نوعين :

(١) – نوع لا يملك دليلاً على وقوع هذه المسألة ، وهؤلاء في حالة تقليد بالنسبة لهذه المسألة ..

(٢) – نوع يملك الدليل على وقوع هذه المسألة ، وهؤلاء هم في حالة علم بالنسبة لهذه المسألة ، وهم – فقط – الذين يعلمونها علماً حقيقيّاً ..

فالعلم بالنسبة لنا كما نرى ، هو الجزم بمسألة واقعة مع امتلاك الدليل على وقوعها ، والتقليد هو الجزم بمسألة واقعة دون امتلاك دليلٍ على ذلك ، أمّا الجهل فهو الجزم بمسألة غير واقعة ، وهو نقيض العلم .. فالفكر والعقيدة المكتسبة التي يحملها الجاهل ، غير الحقائق الثابتة التي يدركها العالم ويملك دليلاً عليها ..

+ (جهة اكتساب العلم) **الأميّة** (جهة اكتساب الجهل) –

م

.. وقد رأينا أنَّ العلم المكتسب – بالنسبة للبشر– يكون حقيقيًّاً وهادفاً ومجدياً إذا ملك صاحبه برهاناً من إحدى الساحتين :

١ – ساحة خلق الله تعالى ، وتشمل جميع الصفات والنظم والنواميس ، التي تحكم كلّ ما يحيط بنا من أشياء مادية ..

٢ – ساحة كلام الله تعالى وقوله (القرآن الكريم) ...

وهاتان الساحتان متطابقتان تماماً ، لأنَّ القائل سبحانه وتعالى هو ذاته الخالق ..

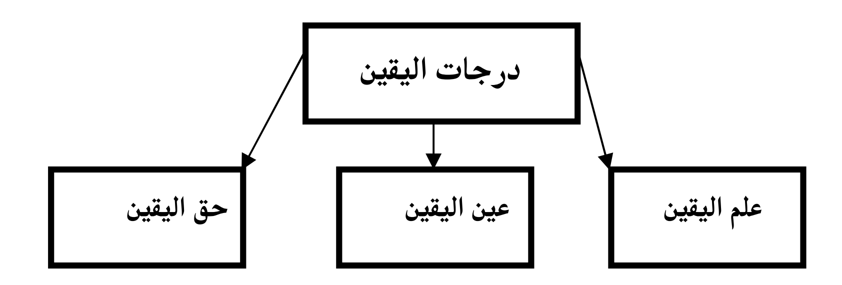
.. إنّ العلم الصحيح المرتكز على الحقائق الثابتة ، يؤدِّي إلى اليقين ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥]

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢]

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٣ – ٤]

ويقع اليقين في النفس على ثلاث درجات ..



١ – علم اليقين : ويكون بأن يحصل في النفس يقينٌ تجاه مسألة ما ، عن طريق الخبر والسماع ، كأن نقرأ كتاباً موثوقاً ، أو نسمع من أحد الثقاة عن مدينة ما ..

٢ – عين اليقين : ويكون بأن يحصل في النفس يقينٌ تجاه هذه المسألة ، عن طريق المشاهدة بالعين ، كأن نرى صورةً لهذه المدينة أو نراها عن بُعد دون أن ندخلها ..

٣ – حق اليقين (وهو أعلى درجات اليقين) : ويكون بأن يحصل في النفس يقينٌ تجاه هذه المسألة ، عن طريق التفاعل معها ، كأن نذهب إلى هذه المدينة ونعيش فيها ..

.. لننظر إلى السورة القرآنية التالية ..

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ١ – ٨]

نرى من خلال هذه السورة الكريمة ، أنَّ علم اليقين يكون بالتَّصديق والإيمان الكاملين بخبر هذه المسألة ، التي يقصّها علينا القرآن الكريم ، وأنَّ ذلك يجعلنا نتصّورها ونراها عبر ما أخبرنا به القرآن الكريم ، وبعد ذلك سيأتي يوم نشاهدها بأعيننا ، ولذلك جاء النَّص القرآني **﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾** ، لأنَّ المشاهدة ستكون بالعين ..

.. وحق اليقين الذي يعني دخول النفس وعيشها حقيقة المسألة ، يصوِّره النَّص القرآني التالي :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٨٨ – ٩٦]

إنَّ المرحلة هنا تجاوزت الخبر (علم اليقين) والمشاهدة (عين اليقين) إلى الدخول في الجزء المقابل .. ولذلك جاء النَّص القرآني الكريم **﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾** ..

فدرجات العلم واليقين التي ننتقل عبرها من حالةٍ لأُخرى ، تتبع إدراكنا وإيماننا .. وما يفصل بين مرتبة وأُخرى من مراتب العلم واليقين ، هو الغيب — الذي يحجبنا عن الإدراك والشهادة — من جهة ، وانصياعنا لقوانين الزمان والمكان من جهة أُخرى ، فعلمنا ويقيننا محكومان لذلك ..

ولكن المسألة بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى هي غير ذلك .. إنَّ علمه عزَّ وجلَّ في أي مسألة هو علم مطلق ، بعيدٌ عن قيود الغيب والمكان والزمان التي تحكم هذه المسألة ..

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠]

إنَّ حدود قوّة الفعل تتعلَّق بحدود قوّةِ الفاعل .. فعلم الله تعالى يتعلَّق بصفاته وقوّته ، وأغطية الغيب والمكان والزمان التي تُحِدُّ علمنا ويقيننا ، لا تحكم علم الله سبحانه وتعالى .. فعلم الله تعالى بما سيكون في المستقبل وبما كان في الماضي ، لا يختلف عن علمه بما يكون في الحاضر ..

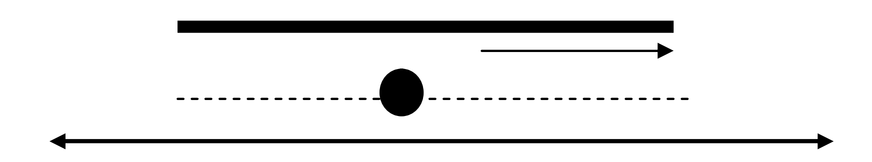
﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]

ولذلك يحدثنا الله في كتابه الكريم ، عن مسائل هي بالنسبة لنا ولانصياعنا لقوانين المكان والزمان ، تُعَدُّ غيباً لم يأتِ وقته بعد .. وينقلها القرآن الكريم المتعلِّق بصفات الله تعالى ، صوراً حية ماثلة أمام أعيننا على حقيقتها تماماً ، فهو يراها سبحانه وتعالى بعيداً عن أغطية الغيب وقوانين المكان والزمان ، التي تحكمنا ..

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٠ – ٥٧]

إنَّ علم الله تعالى المطلق يحيط بهذه المسألة– المستقبلية بالنسبة لنا – التي رُبَّما لم يُخلق أفرادُها بعد .. فهو جلّ وعلا يراها ويعلمها قبل خلق أولئك الذين تتحدَّث عنهم هذه الصورة .. ولا يحقُّ لنا أن نجعل من علمنا وتصوُّراتنا وقدراتنا ، المقيدة بإطار المكان والزمان والغيب قيداً على علم الله تعالى وقدرته ، وكأنَّ علم الله تعالى وقدرته لا حدود لها إلا ضمن الإطار الذي يستطيع عقلنا الإحاطة به وإدراكه ..

ولا بُدَّ من التَّمييز بين العلم الإلهي الكاشف ، من وجهة نظر الوجود الإلهي المطلق غير المحكوم لقوانين المكان والزمان ، وبين العلم الإلهي المُشاهِد ، أثناء وجود المخلوقات ضمن إطار المكان والزمان الذي تعيش فيه ..



▬ : العلم الإلهي الكاشف – بالنسبة لحادثة ما – من وجهة نظر الوجود الإلهي المطلق ، غير المحكوم لقوانين المكان والزمان ، بل الحاكم لهذه القوانين ، وهو – كما نرى – يمتدّ على محور الوجود الدائم لله تعالى ..

● : العلم الإلهي المُشَاهِد أثناء وجود الحادثة ضمن إطار المكان والزمان الذي يحيط بالحادثة ، أي العلم الإلهي المُشاهِد للحادثة أثناء وجودها مكاناً وزماناً في عالم الحسّ والوجود الذي تشهده المخلوقات (عالم الوجود المخلوق المحسوس) ..

فأي حادثة يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً ، قبل نزولها إلى إطار المكان والزمان ، وأثناء وجودها فيه ، وبعد خروجها منه .. هذا العلم الإلهي هو علم مطلق بغضِّ النظر عن وجود الحادثة ضمن إطارها المكاني والزماني ، أو خارج هذا الإطار ..

.. أمّا العلم الإلهي بالحادثة أثناء نزولها إلى عالم الوجود المادي ، ضمن إطار المكان والزمان ، وعيشها عمرها في هذا الإطار .. هذا العلم هو حالة خاصّة من العلم الإلهي المطلق السابق ، فهو علم مشاهدة مكانيّة زمانيّة للحادثة أثناء وجودها ضمن إطار المكان والزمان .. وفي كتاب الله تعالى يُصوَّر هذا العلم عبر الصيغ المختلفة لكلمة ﴿ يَعْلَم ﴾ ، نعني صيغ المضارع : [[﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ ، ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ ، ﴿ يَعْلَمِ ﴾ ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ ، ﴿ نَعْلَمَ ﴾]] ..

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٣]

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢]

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٦]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾ [المائدة : ٩٤]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [التوبة : ١٦]

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١٢]

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢١]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمّد : ٣١]

وعلم المشاهدة الخاص بالمسألة أثناء تجلِّيها في إطارها المكاني والزماني ، هو علم تسجيلي ، حتى تكون النفسُ شاهدةً على ذاتها يوم القيامة بعد أن تم تسجيل ما عملته في إطار المكان والزمان الاختباري .. وكما قلنا هذا العلم هو حالة خاصّة من العلم الإلهي المطلق المحيط بالحادثة ، سواء وجدت في إطارها المكاني والزماني، أم لم توجد ..

.. ولننظر في قوله تعالى ..

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن : ٢٦ – ٢٨]

.. الله تعالى هو عالم الغيب ، ولا يُظهر على غيبه المُطلَق ﴿ غَيْبِهِۦٓ ﴾ أحداً ، فغيب الله تعالى المُطلق لا تُوجَد له مقدّمات بين أيدينا في عالمنا المحسوس نستطيع الانطلاق منها نحوه ... وما نراه أنَّ كلمة ﴿ غَيْبِهِۦٓ ﴾ لا تحمل صيغة العموم ، فهي لفظ مفرد مضاف ، حيث يُضاف الغيب لله تعالى .. وهذا الغيب المُطلق ﴿ غَيْبِهِۦٓ ﴾ قد يُظهر اللهُ تعالى جانباً منه لمن ارتضى من رسول ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ..

.. وفي ورود صيغة ﴿ رَّسُولٍ ﴾ بيانٌ أنَّ الأمر يتعلَّقُ برسالة الله تعالى للبشر ، بمعنى أنَّ الغيب المُطلق هذا قد يكون جانبٌ منه متضمّناً في نصِّ الرسالة ، بمعنى أنَّه موجود في باطن نصوص الكتاب السماوي وظاهره .. فالكتب السماويّة تحملُ الكثير من الأمور الغيبيّة كأمور الآخرة وغيرها ..

.. وفي قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴾ نرى أنَّه وحَّد الرسول ﴿ رَّسُولٍ ﴾ ، ثم جمع في قوله تعالى ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ تتعلَّق بالرسالات السماويّة بما تحمله من أُمور غيبيّة ، وأنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ تتعلَّق بالرسل عليهم السلام المُكلَّفين بإبلاغ تلك الرسالات وتلك الأمور المتضمّنة فيها ..

.. وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴾ يحمل بياناً في حفظ الله تعالى لرسالاته ، بأنَّه يسلُك من بين يديها ومن خلفها رصداً .. وكلُّ ذلك ليشهد الله تعالى مشاهدة مكانيّة زمانيّة أنَّ رسالاته التي أرادها قد تمَّ إبلاغُها ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ .. فالرسالات التي حفظها الله تعالى وسلك من بين يديها ومن خلفها رصداً ، والتي تحمل بأعماقها جزءاً من غيب الله تعالى الذي لم يُظهر عليه أحداً ، يريد الله تعالى أن يشهد مشاهدة مكانيّة زمانيّة إبلاغ هذه الرسالات في هذا العالم ..

.. إذاً .. الغيب الذي لا يُظهره الله تعالى على أحد ، استثنى منه ما يُضمِّنه في رسالاته التي أرسلها عبر سله عليهم السلام ، وهذا لا يعني أبداً أنَّ أنبياء الله تعالى أو غيرهم يعلمون الغيب .. فقوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ

ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وقوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود : ٣١] ، وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : ٩] ، لأكبر دليلٍ على أنَّ علم الغيب وما سيكون لا يعلمه حتى الأنبياء عليهم السلام ..

.. إذاً .. قولـــه تعـــالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن : ٢٦ – ٢٨] ، لا يعني أنَّ النبيَّ ﷺ وغيره من الأنبياء كانوا يعلمون الغيب ..

.. ولما كان علم الله تعالى المطلق ، ووجوده المطلق في المستقبل والماضي – بالنسبة لنا – هو ذاته في الحاضر ، فإنَّ تسخير الله تعالى للأسباب التي يستطيع الإنسان الأخذ بها ، ومنحه الخيارات المتاحة أمامه في كلِّ نقطة من منحني حياته ، يتناسب مع علم الله تعالى المطلق بما سيختاره الإنسان في هذه النقطة من منحني حياته ..

فعلم الله تعالى المطلق الكاشف المجرّد عن تجلّي الحادثة في إطارها المكاني والزماني ، نراه جليّاً في الصور القرآنيّة التالية .. حيث يُصوَّر هذا العلم في كتاب الله تعالى عبر

الصيغ المختلفة لكلمة ﴿ **عَلِمَ** ﴾ ، أعني صيغ الماضي [[﴿ **عَلِمَ** ﴾ ،، ﴿ **وَعَلِمَ** ﴾ ،، ﴿ **فَعَلِمَ** ﴾]] ..

﴿ **عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٨٧]

﴿ **عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ** ﴾ [البقرة : ٢٣٥]

﴿ **وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٢٣]

﴿ **ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا** ﴾ [الأنفال : ٦٦]

﴿ **فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح : ١٨]

﴿ **فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح : ٢٧]

﴿ **عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ** ﴾ [المزمّل : ٢٠]

إذاً .. في كتاب الله تعالى نرى أنَّ دلالات الصور القرآنيّة المحيطة بكلمة ﴿ **عَلِمَ** ﴾ بصيغة الماضي ، تختلف عن دلالات الصور القرآنيّة المحيطة بكلمة ﴿ **يَعْلَم** ﴾ بصيغة المضارع .. فصيغة الماضي – كما رأينا – تصوِّر علمَ الله تعالى الكاشف المجرّد أزلاً .. وصيغة المضارع أقرب إلى دلالة علم الله تعالى المتعلّق بالمشاهدة للحادثة أثناء وقوعها في عالمها المكاني والزماني ، تلك الحادثة التي علمها الله تعالى أزلاً قبل حدوثها ووجودها في عالمها الحادث ..

.. لننظر إلى مسألة الساعة ، كحادثة موجودة في علم الله تعالى الكاشف المطلق ، وفي علمه المُشاهِد ضمن إطارها المكاني والزماني ..

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧]

نرى أنَّ هناك علماً إلهياً مطلقاً كاشفاً ، يحيط بهذه المسألة إحاطة مطلقة ، سواء قبل حدوثها في عالم الوجود المكاني والزماني ، أم أثناء حدوثها ، أم بعد ذلك .. فهو سبحانه وتعالى يراها ، بعيداً عن قوانين المكان والزمان والغيب ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤]

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٦٣]

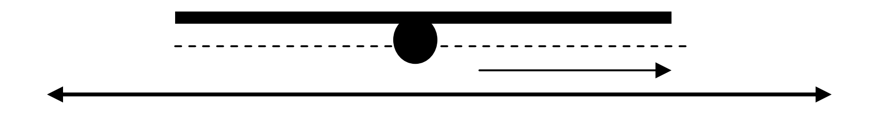
﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ ﴾ [فصّلت : ٤٧]

﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف : ٨٥]

فعلم الساعة يأتي دائماً مرتبطاً بعلم الله تعالى فقط .. هذا العلم الذي لا سبيل للمخلوقات إلى إدراك أيّ جانب منه ، لأنه عند الله تعالى خارج إطار المادة والمكان والزمان .. لذلك فهو من علم الله تعالى المطلق ..

وهناك علمٌ إلهيٌّ مُشاهِدٌ لهذه المسألة أثناء تجلِّيها في ساحة الوجود المكاني والزماني ..

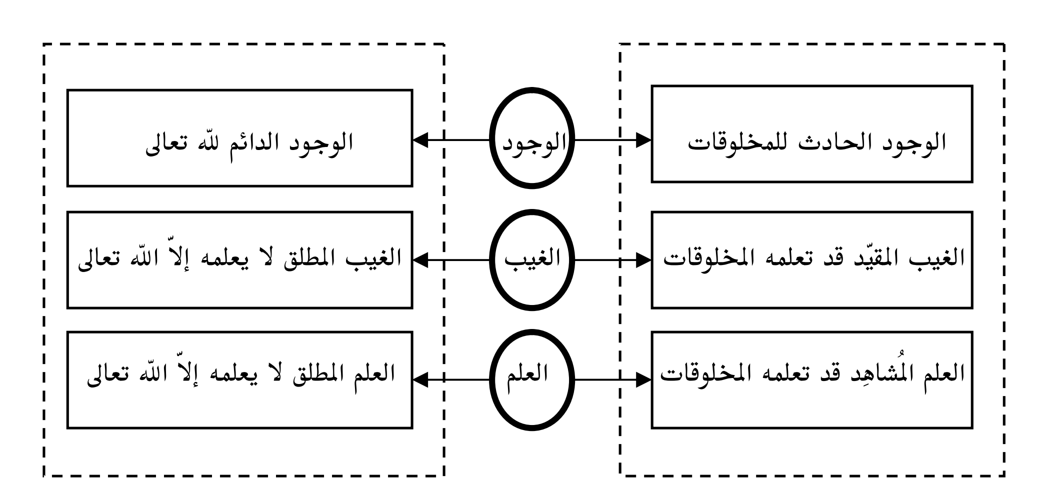
﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الأعراف : ١٨٧]



▬ : العلم الإلهي المطلق الكاشف للساعة ..

● : العلم الإلهي المُشَاهِد لتجلّي الساعة في إطار وجودها المكاني الزماني ..

ولو عدنا إلى بحث الغيب ، وبصورة خاصة إلى نوعي الغيب .. الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلى الله تعالى ، والغيب المقيَّد الذي يُمكن المخلوقات إدراكه إذا توفَّرت لها الشروط المادية المناسبة .. ولو نظرنا – في هذا البحث – إلى نوعي الوجود .. الوجود الدائم الذي يتَّصف به الله تعالى ، والوجود الحادث الذي تتصف به المخلوقات .. ولو نظرنا أيضاً – في هذا البحث – إلى العلم المطلق الذي يعلمه الله تعالى ، بغضِّ النظر عن وجود الحوادث في ساحة المكان والزمان وتفاعلها مع الأسباب في هذا الإطار ، وإلى العلم المُشاهِد للحوادث أثناء وجودها في إطارها المكاني والزماني .. لو نظرنا بعمق إلى كلِّ ذلك ، لرأينا أن شقي كلٍّ من المسائل الثلاث ، يرتبط بعضها ببعضاً ارتباطاً تاماً ..



(عالم المادّة والمكان والزمان) **(الوجود المطلق لله تعالى)**

وبناءً على إدراكنا لمسألتي الوجود والعلم ، نرى أنَّ اختيار بديل ما – في نقطة من نقاط المستقبل على منحني الحياة – والانتقال إلى نقطة أخرى تتعلَّق بهذا البديل ، هو مسألة بالنسبة لنا تُعدُّ غيباً ، لانّ وجودنا لا يكون إلاّ في لحظة الآن .. لكن بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى ، الموجود وجوداً مطلقاً في كلِّ مكان وزمان ، فلا تُعجزه رؤية البديل الذي ستختاره النفس في كلِّ نقطة من منحني حياتها ، ولا تُعجزه رؤية منحني

الحياة بأسره من الميلاد حتى الموت ، قبل وجود الإنسان في عالم المادة والمكان والزمان ، وقبل إيجاد الله تعالى للأسباب والبدائل المتاحة في كل نقطة من حياة الإنسان في هذا العالم .. وبعد ذلك ..

إن إحاطة كل نفس ببدائلها الخاصّة بها في كلِّ نقطة من منحنى حياتها ، يتعلق بالحكمة الإلهية في اختبار هذه النفس في هذه النقطة ، فالله تعالى يعلم (علماً مطلقاً) غايةَ النفس في كلِّ نقطة من نقاط حياتها ، لذلك وبهدف الاختبار الذي خلقت الدنيا من أجله ، تم اختيار قوى الجبر والبدائل المناسبة لكل نقطة من منحنى حياتها ..

وإنّ عدمَ تقدير المخلوقات لله تعالى حق قدره ، وعدم الإيمان الكامل بعظمته وقدرته ، وعدمَ تتريهه عن المخلوقات العاجزة أمام مسائل الغيب والمكان والزمان ، ووضعَ تصورات البشر وعلمهم وإدراكهم ووعيهم قيداً على علم الله تعالى وقدرته ... كلّ ذلك يقود بعض الناس إلى عدم إدراك استقلالية علم الله تعالى ووجوده ، عن قيود الغيب والمكان والزمان التي تحكمنا ..

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٤]

ولو عدنا إلى التصورات الأربعة في بداية هذا البحث ، ونظرنا إليها .. لوجدنا :

١ – إن من تصورَّ أنَّ منحنى الحياة يتعلَّق باختيار الإنسان – ضمن حدود الاختيار المتاحة – وأن قوى الاختيار مستقلَّةٌ عن الرسم والجبر المسبق ، فتصوره من الزاوية التي يعيشها الإنسان في حياته الدنيا ، ومن زاوية الثواب والعقاب ، يكون صحيحاً .. فالدنيا دار امتحان ، والامتحان يقتضي الحرّية الكاملة في الاختيار ، وبناءً على هذا الاختيار الحرّ يتم الحساب في الآخرة ..

فحاشا لله عزَّ وجل أن يُحاسب أحداً على مسألة أجبرها عليه ، ولم يخترها بنفسه .. ولو شاء الله تعالى فرض شيءٍ من ذلك على الناس وإجبارهم عليه لما أعجزه ذلك ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٤]

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٣ – ٤]

٢ – ومن تصوَّر (بعد إدراكه التام للتَّصوُّر السابق ، وللحريَةِ التّامّةِ لاختيار الإنسان) أن حركة الإنسان فوق منحني حياته ، هي ترجمة في عالم المادة والمكان والزمان ، لما هو موجود مسبقاً في علم الله تعالى ، وأنَّ ذلك مقدَّرٌ في أمِّ الكتاب ، فتصوُّره صحيح ..

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٤٤]

٣ – ومن تصور أنَّ منحني الحياة ، هو منحنٍ معلومٌ مسبقاً من قِبَلِ الله تعالى ، ومقدَّرٌ في أُمِّ الكتاب ، دون أن يُنافي ذلك حرِّية الاختيار للإنسان ، لأنَّ العلم المطلق والوجود المطلق لله تعالى يحيطان بكلِّ شيء ، فهذا التَّصوُّر أيضاً صحيح ، وناتج عن إدراك مسائل المكان والزمان والغيب ..

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

٤ – ومن تصوَّر (إضافة لتصوُّره التَّصوُّرات الثلاث السابقة) أنَّ هناك وجهاً (ووجوهاً) للمسألة لا يمكن إدراكه ، يتعلَّق بصفات الله تعالى التي لا يمكن للمخلوقات الإحاطة بها ، وإدراك ماهيتها ، وأنه لا يمكن لنا الوصول إلى عمق حكمة الله تعالى وعدله ، فتصوُّره أيضاً صحيح ، لأنه نابع من الإيمان بقدرة الله تعالى ، التي لا يمكن للمخلوقات الإحاطة بها ..

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤]

.. لننظر إلى الصورتين القرآنيتين التاليتين ..

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [إبراهيم : ١٠]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : ٢ – ٤]

إنَّ مسألة النجاة والهلاك في الدنيا ترتبط ارتباطاً تاماً (كما تصوِّره الآيات الكريمة) بعمل هؤلاء الأقوام ، ومدى التزامهم وعصيانهم لمنهج الله تعالى .. وإنَّ منحنى حياة كلِّ واحد منهم ، يرتبط بخياراته وطاعته وعصيانه لهذا المنهج .. ولذلك قالت لهم رسلهم إنهم إن التزموا بمنهج الله تعالى ، فإنَّ نتيجة ذلك أنَّ الله تعالى سيغفر لهم ذنوبهم ، ولا يهلكهم ، وبالتالي سيؤخرهم الله تعالى إلى أجل مسمّى .. فهذه النتائج تتعلق بمقدماتها التي هي عبادة الله تعالى وطاعة رسله ، وهذه المقدمات يُقبل عليها هؤلاء الأقوام بحريّة تامّة .. هذه هي المسألة من الزاوية التي ينظر منها الإنسان ، المنصاع لقوانين المكان والزمان ، ولارتباط النتائج بمقدماتها ..

ولكنَّ المسألة من الزاوية التي يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً كاشفاً ، هي مسألة معلومة مسبقاً ، وما سيختاره هؤلاء ، وبالتالي إلى أيِّ نتيجة سيصلون ، يعلمه الله تعالى مسبقاً ، دون أن يتعارض ذلك مع حرية الاختيار التامة للإنسان ، ومع علاقة النتائج بمقدِّماتها .. فهل يعجز الله تعالى قبل خلق نوح عليه السلام وقومه ، أن يعلم أنَّ قوم نوح سوف لا ينصاعون لمنهج الله تعالى ، وبالتالي سينالون عقاب الغرق ، وسيدخلون النار نتيجة عصيانهم هذا ؟ ..

فالأجل المسمى الذي سيؤخَّر إليه قوم نوح ، لو أنهم عبدوا الله تعالى واتبعوا منهجه .. ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ ، هذا الأجل ناتج عن إتباعهم لخيار آخر غير الخيار الذي اختاروه ..

وإنَّ أيَّ خيار آخر من الممكن أن يختاروه ، سيؤدّي إلى مرور نفس كلٍّ واحدٍ منهم فوق منحنٍ يختلف عن المنحني الذي سلكته أنفسهم نتيجة الخيار الذي اختاروه .. وبالتالي فالأجل الذي يرتبط بذلك ، سيختلف عن الأجل الذي حصل ..

والله تعالى بعلمه المطلق الكاشف يرى ويعلم قبل خلقهم ، المنحني الذي ستسلكه نفسُ كلٍّ واحدٍ منهم بإرادته ، والذي يرتبط بأجله ، وهو الأجل المسمّى عند الله تعالى خارج إطار المكان والزمان ..

ونرى أنَّ كلمة ﴿ مُّسَمًّى ﴾ وهي بمعنى موصوف ومُحدَّد ، ترد في جميع مواضعها في القرآن الكريم مرتبطةً بكلمة ﴿ أَجَلٍ ﴾ .. لقد وردت (٢١) مرّة ، وجاءت فيها جميعاً مرتبطة بكلمة ﴿ أَجَلٍ ﴾ ، و لم تأتِ ولا مرّة واحدة مستقلّة عن هذه الكلمة ..

إنَّ علينا أن نميِّز بين وجهين من الأجل المسمّى :

١ – الأجل المسمّى من زاوية العلم الإلهي المطلق ، وهو أجلٌ معلومٌ مسبقاً ، وموصوف ومكتوب في أُمِّ الكتاب ، لأنه يرتبط بعلم الله تعالى الكاشف .. وبالتالي فساحته في عالم ما فوق المادة والزمان المكان ..

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾ [طه : ١٢٩]

﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣]

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [الشورى : ١٤]

فلو كان الأجل المسمّى المعلوم مسبقاً – بالنسبة لله تعالى والمكتوب عند الله تعالى – يُحدَّد من الزاوية التي ينظر منها الناس ، ويرتبط بتصوُّراتهم لعلاقة النتائج بمقدماتها ، لما أُخِّر إلى وقته المحدِّد عند الله تعالى ولقضى إليهم أجلهم هذا قبل وقته ..

﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾ [يونس : ١١]

ولكنَّ المسألة محدَّدة تماماً عند الله تعالى في كتاب محدَّد معلوم يرتبط بعلم الله تعالى المطلق ..

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ ﴾ [آل عمران : ١٤٥]

﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١]

٢ – الأجل المسمّى من زاوية قضاء الله تعالى الذي حكم به وأعلمه للبشر ، عبر منهجه وقوانينه الكونيّة ، وهو علاقة المقدِّمات بنتائجها ، وساحته في عالم المادة والمكان والزمان ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢]

إنَّ الأجل الذي قضاه الله تعالى ، وبيَّنه وأعلمه وأوصى به ، هو حكم المصير والنتيجة التي يصل إليها الإنسان ، نتيجة الاختيار الذي يختاره وما يقتضيه ذلك من أجلٍ يفصل بين المقدِّمات المختارة ونتائجها ، وخير مثال على ذلك ، الأجل الذي كان سيؤخَّر إليه قومُ نوح ، فيما لو اختاروا عبادة الله تعالى وطاعة رسوله ، وهو ما أخبرهم الله تعالى به عبر رسوله .. ولذلك نرى أنَّ هذا الأجل المرتبط بالمقدِّمات التي يختارها

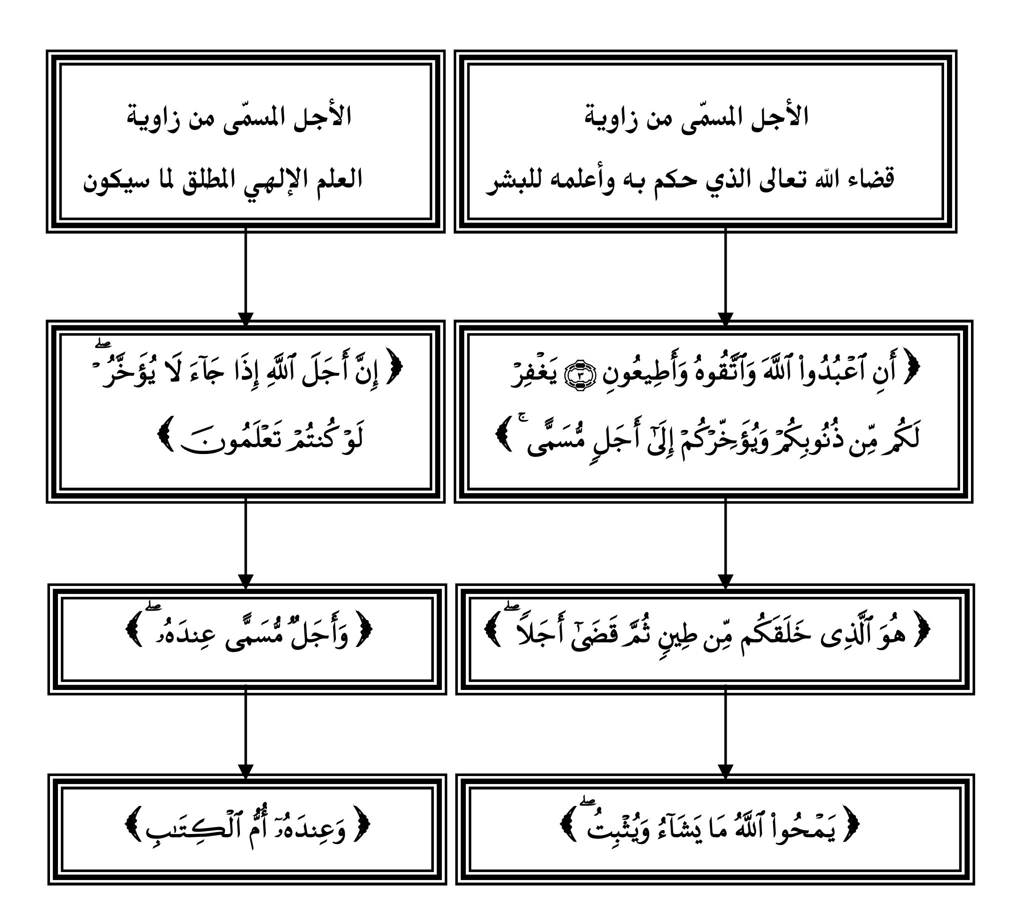
الإنسان ، جاء بعد خلق الإنسان من طين ، ونزوله إلى الحياة الدنيا ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً ﴾ ، لأن ساحته هي عالم الأسباب وعلاقة المقدّمات بنتائجها ..

ولكن ما سيختاره الإنسان ، وإلى أيِّ نتيجةٍ سيصل ، وكلّ ما سيحدث ، والأجل المرتبط بذلك ، والذي قد يختلف عمّا يريده الله تعالى ، وعما قضاه كحكم وأوصى به ، يعلمه الله تعالى علماً مطلقاً مسجَّلاً عنده في أمّ الكتاب ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ دون أن يُنافي ذلك حرية حركة الإنسان بين المقدمات ونتائجها ...

فالأجل المُسمى عند الله تعالى بالنسبة لقوم نوح – على سبيل المثال – هو الأجل الحاصل الذي يعلمه الله تعالى علماً مطلقاً قبل خلقهم ، وهو غرقهم ، لأنَّ الله تعالى يعلم بعلمه الكاشف أنهم سيختارون المعصية – بحرّيّة تامة – كمقدمة تصل بهم إلى الغرق ..

فخطاب نوح عليه السلام لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ﴾ ، هو قضاء الله تعالى الذي حكم به وبيّنه وأوصى به ، وقانونه الذي يربط بين المقدمات ونتائجها في هذه الدنيا ، وهو ما تصوره العبارة القرآنية ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً ﴾ ، وهو ما سنراه بالتفصيل حينما نتعرَّض لمعنى قوله تعالى ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ ﴾ [الرعد : ٣٩] ..

والعبارة القرآنية في مسألة نوح عليه السلام ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ، تقابلها العبارة القرآنية ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ﴾ .. وهو ما رأيناه حينما تعرّضنا لقوله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩] ..



.. إنَّ كلّ تصوُّرات البشر وإدراكهم ووعيهم ، تعجز عن تصوُّر تلاشي الزمن – بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى – بين المقدِّمات والنتائج ، وبين المراحل المتعاقبة لأحداث الشيء .. فالانطلاق من المرحلة السابقة إلى المرحلة اللاحقة – الذي لا بُدَّ له في تصوُّرنا

من زمن يرافقه — واستحالة تصوُّرنا لحدوث الحادثة من المرحلة اللاحقة إلى المرحلة السابقة ، لأننا مدفوعون على محور الزمن من الماضي باتجاه المستقبل .. كلّ هذه القيود التي قيَّدت نفوسنا ، تحول دون إدراك انعدام الزمن بالنسبة لله تعالى بين عملنا في الدنيا وجزائه في الآخرة ..

لا يمكننا تصوُّر ذلك ، لأننا أثناء وجودنا في هذا العالم المادي نكون محكومين لقوانين المكان والزمان ، ومدفوعين على محور الزمن باتجاه واحد .. فمن المستحيل علينا تصوُّر انعدام الزمن وعودته إلى الوراء ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

القـدر

إنَّ الصُّور القرآنية التي تحملها كلمة قَدر ومشتقاتها في القرآن الكريم ، تدور داخل إطارَي القدرة والتقدير ، متنقِّلةً بين معاني القياس ، والتحديد زماناً ومكاناً ، والتدبير ، والاستطاعة ، والتضييق ، والوصف والمعرفة ، والإحاطة بالشيء علماً وقوّة ..

فتقدير الشيء يعني قياسه ..

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨]

﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥]

وتقدير الشيء يعني تحديده ..

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس : ٣٩]

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة : ٦٠]

وتقدير الشيء يعني علم زمان حدوثه ومكانه ، وتحديد الله تعالى لذلك ..

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧]

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠]

وتقدير الشيء يعني ملك القوّة والاستطاعة ، لإخضاع هذا الشيء ..

﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٦٤]

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ٤]

وتقدير الشيء يعني الإحاطة به والتضييق عليه ..

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٣٩]

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر : ١٦]

وتقدير الشيء وصفُه ومعرفتُه حقّ الوصف والمعرفة ..

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٤]

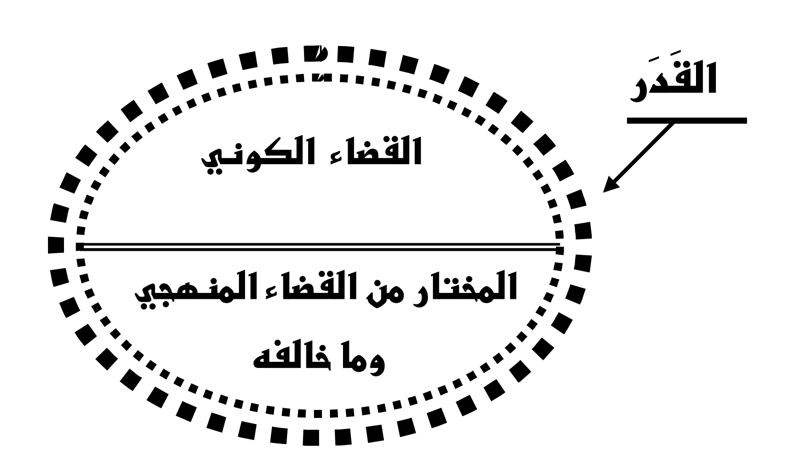
﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر: ٦٧]

وتقدير الشيء الإحاطة به علماً وقوّة ..

﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٩]

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾ [فاطر : ٤٤]

.. لقد رأينا في بحث القضاء ، أنَّ القضاء الكوني حادثٌ لا محالة ، وأنَّ القضاء المنهجي هو قضاء اختياريٌ ، قد يختاره الإنسان وقد لا يختاره .. لذلك فإنَّ ما يحدث في هذا العالم الذي نعيشه ، والذي علمه الله تعالى بعلمه المطلق وقدَّره في أمِّ الكتاب هو القدر ، وهو ما يختاره الإنسان من القضاء المنهجي الاختياري ، وما يخالف به هذا القضاء ، وكلُّ ما يحدث من قضاء كوني ..



.. فالقدر هو علم الله تعالى الكاشف لما يكون ، علماً مسجَّلاً في أمِّ الكتاب .. وبالتالي فكلُّ ما كان ، وما سيكون ، هو الصورة الحسيّة في هذا العالم للقدر .. فكلُّ شيء يُخلق بعلمٍ سابقٍ محدَّدٍ (مقدَّرٍ) من الله تعالى .. **﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾** [القمر : ٤٩] ..

وهكذا نرى أنَّ لكلٍّ من مسألتي القضاء والقدر حدودها الخاصة بها .. فليس كلّ ما قضاه الله تعالى منهجاً لعباده ، سيختاره هؤلاء العباد ، وبالتالي سيصبح قدراً .. وليس كلّ ما يكون من قدرٍ يحدث في هذا العالم (بالنسبة للمسائل المنهجية) يوافق قضاء الله تعالى المنهجي ... فبينما نرى أنَّ القضاء الكوني (الجبري) هو دائماً داخل ساحة القدر ، لأنَّ تفاعل الإنسان مع القضاء الكوني بعيدٌ عن إرادته واختياره ، فما قضاه الله تعالى كونيّاً سيحدث ، فإنّنا نرى أنَّ القضاء المنهجي يعمل به المؤمنون فقط ، وأنَّ الكافرين لا يعملون بقضاء الله تعالى المنهجي ..

.. فالقضاء – كما رأينا – هو ما اختاره الله تعالى لعباده وحكم به وأراده لهم .. والقدر هو ما علمه الله تعالى بعلمه المطلق لما سيكون وما سيقع وما سيختار الإنسان ، علماً قدَّره الله تعالى وحدَّده وكتبه في أمِّ الكتاب ، قبل وجود الإنسان في هذه الدنيا .. وهذا التقدير المكتوب الذي يحمل معنى حتمية الوقوع ، لا يعني – كما نرى – أنَّ ما أختاره الإنسان بكامل إرادته وحريته ، قد فرضه الله تعالى عليه ، إنَّما يعني أنَّ الله تعالى يعلم بعلمه الكاشف أنَّ هذا الإنسان سيختار – بمحض إرادته وحريِّته – ما اختار ، علماً سجّله في أم الكتاب (القدر) ..

وهكذا يزول الإشكال الذي تقع فيه بعض العقول ، وهو كيف أنَّ ما هو مكتوب أزلاً في أُمِّ الكتاب ، سيحدث باختيار الإنسان ... إنَّ القدر لا يعني حصولَ الأشياءِ بعيداً عن أسبابها ، ومن تصوَّر ذلك ، فكأنما يقول إنَّ الأسباب ليست مخلوقة لمن علم وكتب القدر ، وإنها تفعل بعيداً عن علمه المطلق وقدرته المطلقة ..

فالله سبحانه وتعالى الموجود وجوداً مطلقاً ، والعالم علماً مطلقاً مجرَّداً عن قوانين المادة والمكان والزمان ، لا يوجد عنده من الزمان والمكان ما يفصل بين ما هو مُقدَّر في علمه (القدر) وبين حدوثه في عالم المادة والمكان والزمان ..

لقد رأينا سابقاً أنَّ المشيئة هي تفاعل أسباب الحوادث في إطار المكان والزمان مع الإرادة ، لإخراج الإرادة إلى حيز الوجود المكاني والزماني .. فالمشيئة تتحرَّك على محور الزمن بشكل موازٍ لانسياب الزمن الذي يحكم المخلوقات ..

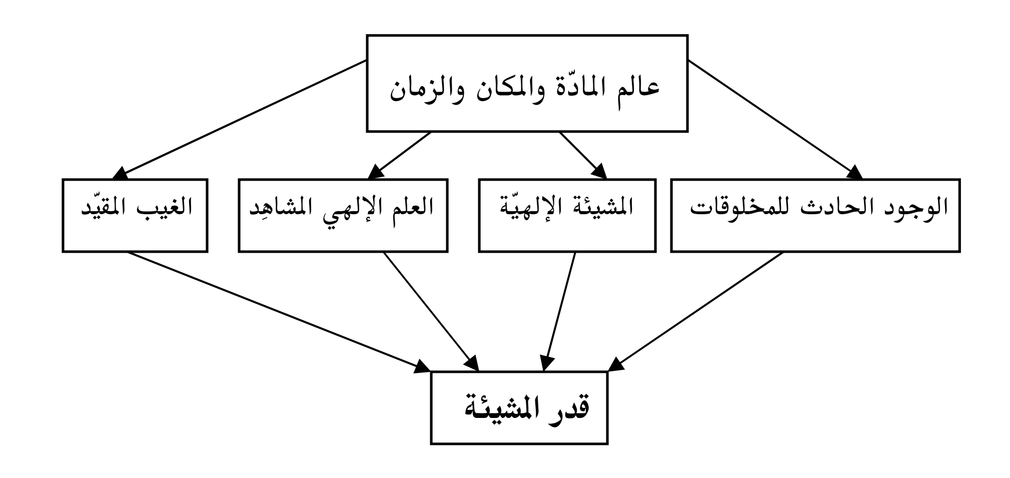
ورأينا أنَّ مشيئة الله تعالى ، تحيط بالمشيئة الإنسانية ، فلولا أن وهب الله تعالى للإنسان الإرادة لما أصبحت عنده إرادة ((دون أن يعني ذلك عدم خروج مراد الإنسان عن مراد الله تعالى)) ، ولولا أن سخَّر له الأسباب التي يوجِّهها باتجاه تحقيق غايته المرادة ، لما أصبحت عنده مشيئة .. أي لولا أن أتاح الله تعالى للإنسان امتلاك المشيئة ، لما ملك هذه المشيئة .. فالمشيئة الإنسانية لا تخرج عن إطار المشيئة الإلهية ..

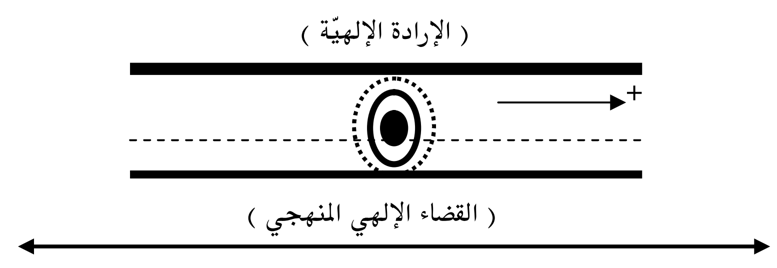
﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩]

ولو عدنا إلى العلم الإلهي المشاهِد للحادثة ، أثناء وجودها الحادث في إطار المكان والزمان ، والذي يُحيط إحاطة مطلقة بالغيب المُقيّد ، والذي من الممكن للمخلوقات أن تطَّلع على جانب منه إذا أُتيحت لها الشروط المناسبة .. ولو عدنا إلى المشيئة الإلهية المحيطة بكلِّ شيء ، بما في ذلك المشيئة الإنسانية .. لرأينا أنَّ قدراً إلهياً مرافقاً للحادثة في إطارها المكاني والزماني ، يُحيط بهذه الحادثة في كلِّ لحظة من منحني حياها ، مُتنقلاً مع الحادثة من ميلادها إلى موها .. وأنه يُقدَّر من مادتي العلم الإلهي المُشاهِد والمشيئة الإلهية ، وأنه يرتبط بالوجود الحادث للمخلوقات ، عبر ساحة الغيب المقيّد ، لذلك سنطلق عليه اسم (قدر المشيئة) لأنه يمثل الوجه المادي للقدر ..

فقدر الله تعالى ليس مجرَّدَ علمٍ كاشفٍ لما يكون ، وليس بعيداً عن قيّوميّة الله تعالى .. إنَّ كلَّ حركة ممّا في هذا الكون (سواء الحركات غير الإراديّة للمخلوقات أم الحركات

الإراديّة) لا تخرج عن كونها حركة حادثة ، تحيط بها مشيئةُ الله تعالى وعلمُه الإلهي المُشاهِد ، وإحاطتُهُ جلّ وعلا هي بكل أغطية الغيب المقيّد التي تحكمنا نحن البشر ..





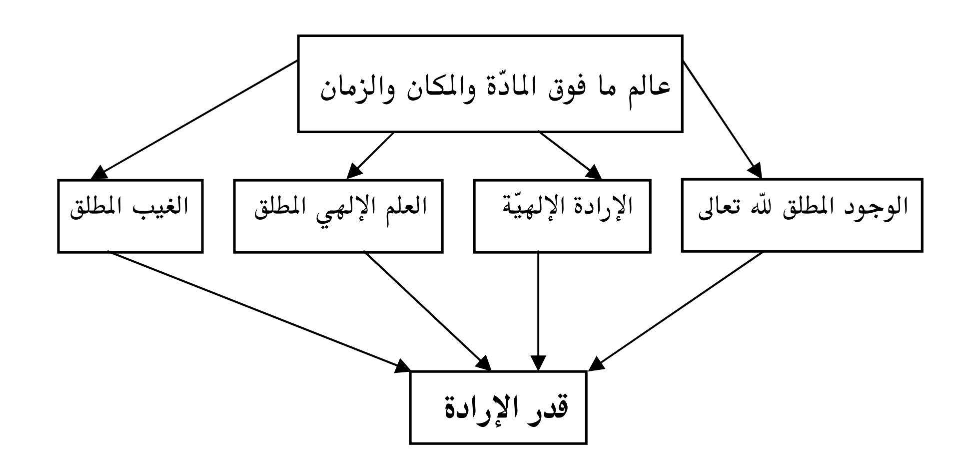
● : وجود الحادثة اللحظي في إطار المكان والزمان

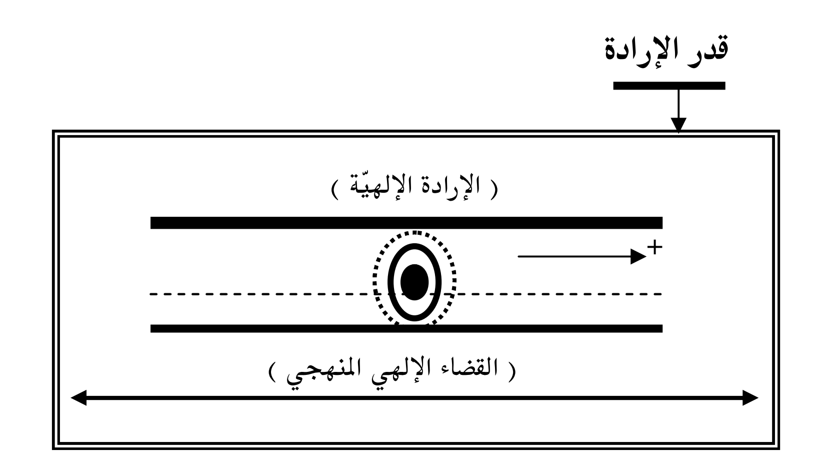
O : المشيئة الإلهيّة لظهور هذه الحادثة في إطارها المكاني الزماني

: القدر الإلهي المحيط بهذه المشيئة (قدر المشيئة)

.. ورأينا أيضاً أنَّ وجود الله تعالى ، هو وجودٌ مطلق ، لا يحده زمان ولا مكان ، وأنَّ إرادة الله تعالى تمتدُّ على محور الوجود الدائم ، بعيداً عن قوانين المادة والمكان والزمان ، ورأينا أيضاً أنَّ علم الله تعالى المطلق يمتدُّ أيضاً على محور الوجود الدائم ، بعيداً عن إطار المكان والزمان ..

لذلك فقدر الله تعالى المكتوب في أُمِّ الكتاب (في عالم ما فوق المادة والزمان والمكان) يرتبط بالوجود الإلهي المطلق ، والإرادة الإلهية ، والعلم الإلهي المطلق ، الذي يحيط إحاطة مطلقة بالغيب المطلق .. وهذا القدر سنطلق عليه اسم (قدر الإرادة) ، لأنه يمثل جانب القدر المجَّرد عن عالم المادّة والمكان والزمان ..





: وجود الحادثة ،،، : المشيئة ،،، : قدر المشيئة

وهكذا نرى أنَّ القدر يتكوَّن من وجهين ..

١ – قدر الإرادة المرتبطة بالوجود الإلهي المطلق ، وبالإرادة الإلهية ، وبالعلم الإلهي المطلق ، الذي يحيط إحاطة مطلقة بالغيب المطلق .. وكلّ ذلك خارج إطار المادة والمكان والزمان .. لذلك فهو يُمثِّل القدر المسَّجل في أمُ الكتاب ..

٢ – قدر المشيئة المرتبط بالوجود الحادث للمخلوقات ، وبالمشيئة الإلهية ، وبالعلم الإلهي المُشاهِد ، وبإحاطة الله تعالى للجانب المادّي للغيب (الغيب المقيَّد) .. وكل ذلك داخل إطار المادة والمكان والزمان .. لذلك فهو يُمثِّل الجانب الماديّ للقدر ..

وما كتب في أُمِّ الكتاب ، كُتب بإرادة الله تعالى ، وبعلمه المطلق ، ووجوده المطلق ، وكلٌّ ذلك في عالم ما فوق المادة والمكان والزمان ... وما يحدث في ساحة المادة والمكان والزمان ، هو الترجمة المكانية الزمانية في هذا العالم ، لما علمه الله تعالى في علمه المطلق ، أي لما هو موجود في أُمِّ الكتاب .. فقدر المشيئة هو ترجمة قدر الإرادة في عالمنا المادي ..

.. ولننظر إلى النصوص القرآنية التالية ، التي تصوِّر لنا قدر الإرادة ، والموجود في أُمِّ الكتاب ، بعيداً عن إطار المادة والمكان والزمان ..

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٦٨]

﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [الحج : ٧٠]

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٧٥]

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢]

ووجه القدر هذا (قدر الإرادة) لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، ولا يُشاهده إلاّ هو ..

ولننظر إلى النصوص القرآنية التالية ، التي تصوِّر لنا قدر المشيئة ، الذي يمثل الوجه المادّي للقدر ، في إطار المادة والمكان والزمان .. أي نزول القدر من أُمِّ الكتاب ، إلى ساحة المادة والمكان والزمان المحدَّدة لكلِّ حادثة ..

﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ ﴾ [النساء :٨١]

﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس/٢١]

﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ [مريم : ٧٩]

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف :٨٠]

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩]

وهذا الوجه من القدر من الممكن أن تُشاهده المخلوقات ، بعد انقضاء أحداثه في إطار المكان والزمان .. وكتابته ضمن هذا الإطار ، هي من أجل إقامة الحجة البالغة يوم القيامة على عمل الإنسان وسعيه في حياته الدنيا ..

ولننظر بعمق إلى الصورة القرآنية التالية ، لنرى أنها تحمل صورةً لوجهي القدر .. قدر الإرادة في أُمِّ الكتاب ، خارج إطار المادة والمكان والزمان ، وقدر المشيئة الذي يترجمه في هذا العالم ..

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٨ – ٣٩]

.. إنَّ العبارة القرآنية ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ تعني أنَّ الأجل ثابت ومحدَّد ، وهذا يتعلق بعلم الله تعالى المطلق ، وبالحكمة المطلقة لله تعالى .. والعبارة القرآنيّة ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ تصور تفاعل الأسباب التي تُخرج الأحداث (المقدَّرة في أُمِّ الكتاب) إلى إطار المكان والزمان .. فالتبديل والتغيير ، وزوال الأحداث ووجودها في إطارها المكاني والزماني ، ودخولها إلى هذا الإطار وخروجها منه ، وما يختار الإنسان من قضاء الله المنهجي وما يترك دون اختيار ، وعلاقة النتائج بالمقدمات المختارة من قبل الإنسان بكامل إرادته .. كلّ ذلك .. يتمُّ ضمن إطار مشيئة الله تعالى في عالم المادة والمكان والزمان ..

فجميع الأسباب الفاعلة والمؤدية إلى المحو والإثبات في هذا العالم ، تستمدُّ وجودها من قدرة الله تعالى .. وهذا ما ينطبق عليه قدر المشيئة المرافق للحادثة في إطارها المكاني والزماني ..

ولذلك نرى أنَّ العبارة القرآنية جاءت ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ولم تأتِ (يَمحو الله ما يريد .....) ، لأن المسألة ساحتها ضمن إطار المكان والزمان ، وتتعلق بالأسباب الموجودة في هذا الإطار ، وهذا – كما رأينا – يتعلق بالمشيئة الإلهية التي تُخرج الأحداث إلى عالم الوجود الحسّي ..

وقدرُ المشيئة الذي يتضمَّن كلّ ما يحدث في إطار المكان والزمان ، مطابق تماماً لقدر الإرادة المكتوب في أُمِّ الكتاب ، خارج هذا الإطار .. ولذلك جاءت نهاية هذه الصورة القرآنية ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، أي أنَّ كلّ ما يحدث من المحو والإثبات في هـــذا

العالم ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ، هو مطابقٌ تماماً لما هو عند الله تعالى — خارج إطار المادة والمكان والزمان — في أُمِّ الكتاب ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ..

ولو كان المحو والإثبات يتعلَّق بأُمِّ الكتاب ، بعيداً عن إطار المكان والزمان ، لجاء النص القرآني (محا الله ما أراد وأثبت الله ما أراد في أُمِّ الكتاب) ولما أتى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ..

فكما رأينا (في بحث الإرادة والمشيئة) أنه في ساحة الإرادة ، وفي عالم ما فوق المادة والمكان والزمان الذي توجد فيه أُمِّ الكتاب ، لا يُمكن لإرادة واحدة أن تتعلَّق بمسألتين متناقضتين كالمحو والإثبات ، وكنّا قد بيّنا ذلك في بحث الإرادة والمشيئة بشكلٍ مفصّل ..

.. ولننظر إلى هذه الصورة القرآنية ..

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ١]

إنَّ أمر الله تعالى مكتوبٌ عن عنده في أُمِّ الكتاب ، وهو يتعلق — كما قلنا — بإرادة الله تعالى وبوجوده وعلمه المطلقين .. وهذا القدر - قدر الإرادة — سيُترجم في وقته المحدَّد ، ومكانه المحدَّد ، إلى أحداث في إطار المكان والزمان .. لذلك نرى أنَّ استعجال البشر هو في زمن ترجمته ، إلى قدر المشيئة ، في عالم المادة والمكان والزمان .. ولذلك يقول الله تعالى لهم ، إنَّ أمره آتٍ فلا تستعجلوا مجيئه ، فله زمان ومكان محدَّدين مكتوبين في أُمِّ الكتاب ..

وحسب ما تقدَّم من إدراكٍ لوجهي القدر .. قدر الإرادة المرتبط بوجود الله تعالى المطلق ، وبإرادته ، وبعلمه المطلق ، وبإحاطته للغيب المطلق الذي لا يعلمه إلاّ هو سبحانه وتعالى .. وقدر المشيئة المرتبط بمشيئة الله تعالى ، وبعلم الله تعالى المُشاهِد للحادثة المخلوقة في إطارها المكاني والزماني ، وبإحاطته المطلقة للغيب المُقيَّد في هذا

الإطار .. وبعد إدراك أنَّ القدر يُحيط إحاطة مطلقة بجميع حركات هذا الكون من بدايته إلى نهايته .. نصل إلى النتيجة التالية ، التي هي نص النظرية ..

نصُّ النظرية : (قضى الله تعالى ما أراده وقدَّر ما شاء وما يكون)

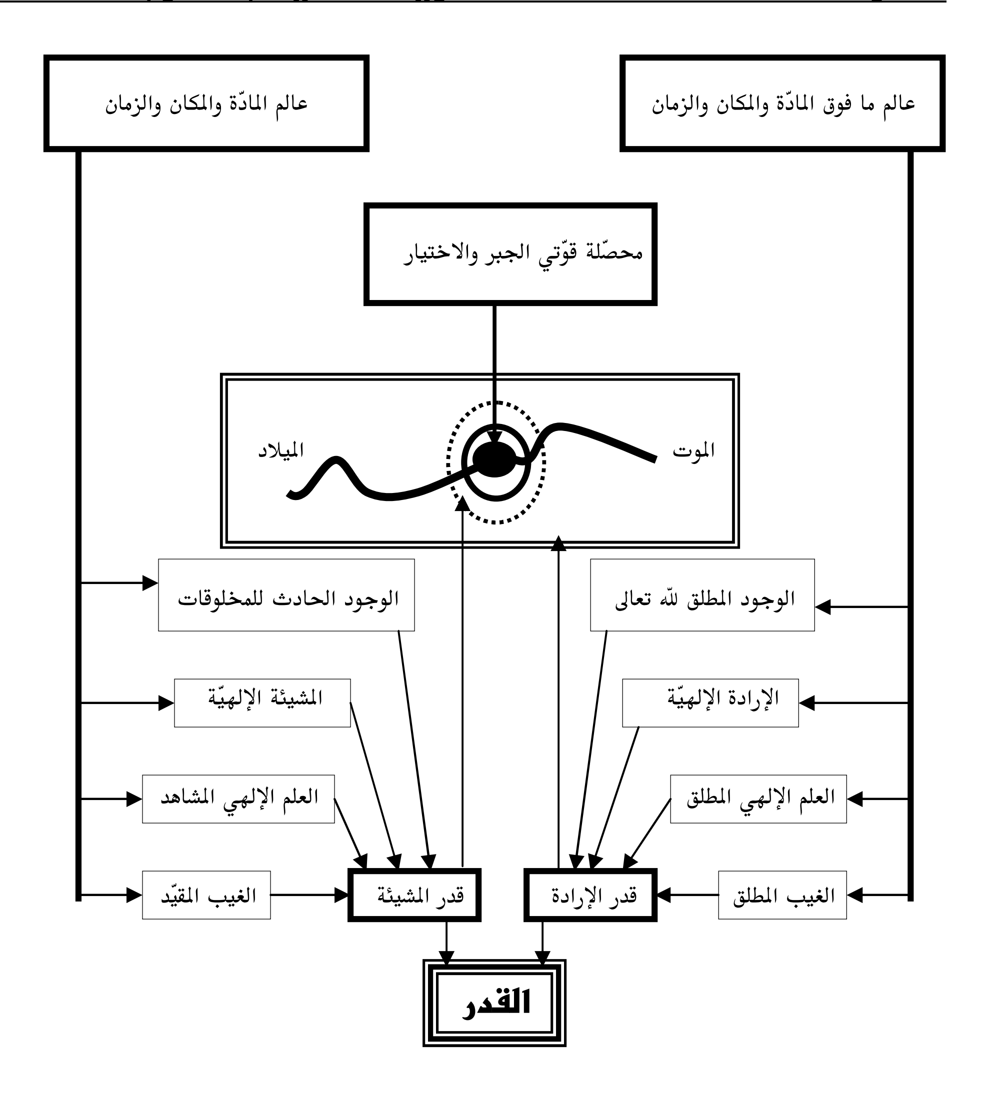
فقضاء الله تعالى يتعلَّق (كما رأينا) بإرادته جل علاه ، ولا يخالفها ، ولذلك فالقضاء الإلهي والإرادة الإلهية لا يحملان الشر أبداً ، فالله تعالى لا يُمكن أن يقضي (يحكم ويُتممّ ويوصي) مالا يريد .. وهذا ما نعنيه بالعبارة (**قضى الله تعالى ما أراد**) من نص النظرية .. أمّا قدر الله تعالى فيشمل كلّ ما يكون في هذا الكون .. وبالتالي يشمل :

١ – جميع الحركات الحسيّة في ساحة المادة والمكان والزمان .. وبالتالي يشمل كل ما شاءه الله تعالى ، عبر تسخير أسباب حدوثه .. وهذا ما نعنيه بالعبارة (**وقدّر ما شاء**) من نصِّ النظرية ..

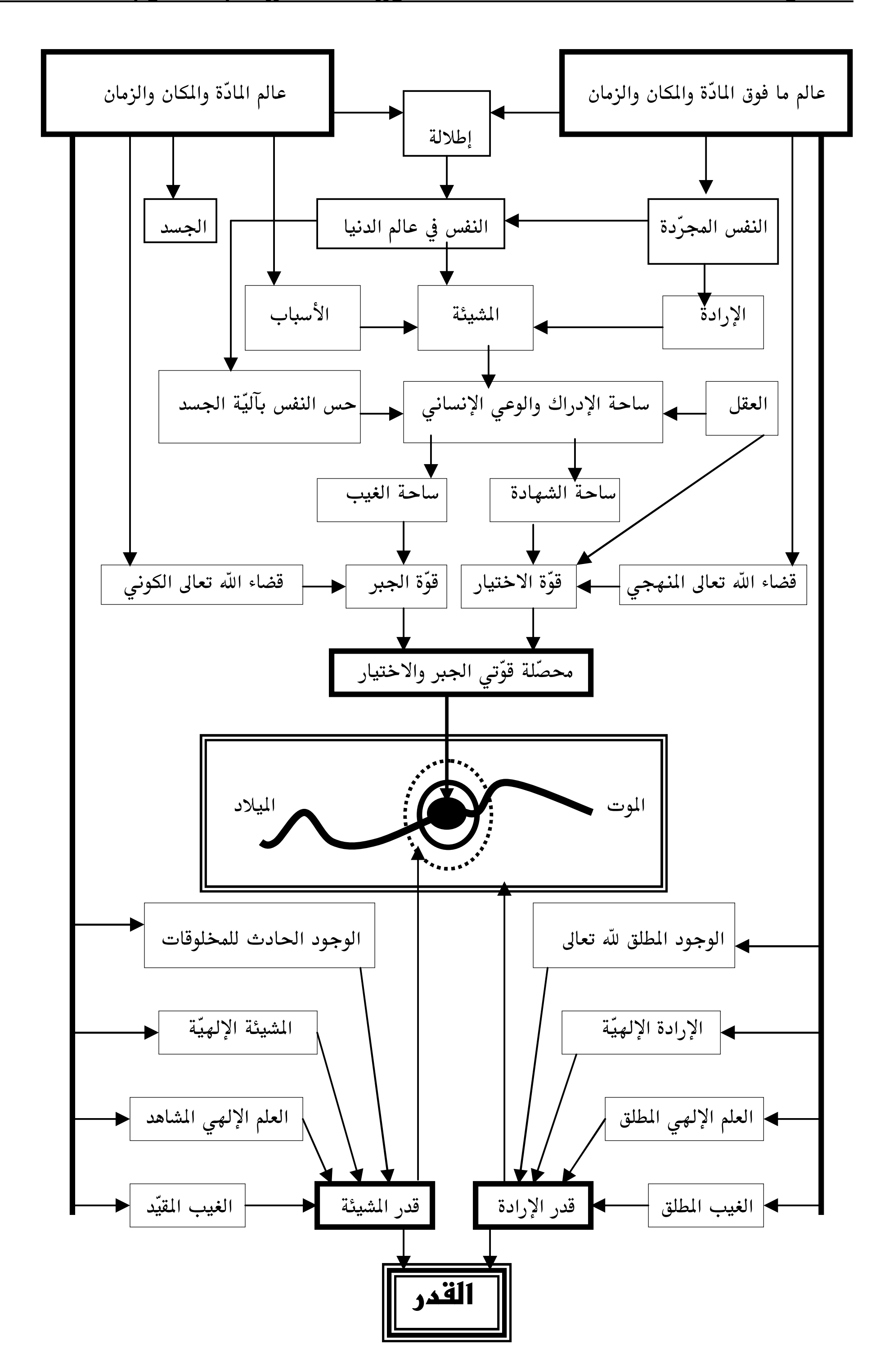
٢ – ويشمل – أيضاً – كلّ ما توسوس به النفوس ، ويدور في خواطر الذوات ، من قضايا لا تتمكن المخلوقات من ترجمتها إلى واقعٍ محسوس في ساحة المادة والمكان والزمان .. وهذا ما نعنيه بالعبارة (**وما يكون**) من نصِّ النظرية ..

ولّما كان القدر هو علم الله تعالى لما يكون ، والبشرُ يفعل بعضهم الشر ، فإن القدر يصوِّر الشرّ والخير على حدٍّ سواء .. ولّما كانت المشيئة الإلهية المحيطة بالمشيئة الإنسانيّة هي تسخير الأسباب بين يدي البشر لتحقيق مرادهم ، ولّما كان مُرادهم قد يحمل الشر ، فإنَّ المشيئة قد تتعلَّق بالشرّ ..

وهكذا فالقضاء الإلهي والإرادة الإلهيّة ، يتعلقان ببعضهما ، ولا يحملان الشرَّ أبداً .. والقدر والمشيئة ووسوسة النفوس ، تتعلَّق ببعضها ، وقد تحمل الشرَّ الذي يعود – في النهاية – إلى الإنسان وإرادته الضالّة ..



ولو قمنا بدمج المخطّط مع المخطّط الذي حصلنا عليه في بحث الجبر والاختيار ، لحصلنا على المخطّط الكامل لهذه النظرية ..


عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان
عالم المادّة والمكان والزمان
إطلالة
النفس المجرّدة
النفس في عالم الدنيا
الجسد
الإرادة
المشيئة
الأسباب
العقل
ساحة الإدراك والوعي الإنساني
حس النفس بآليّة الجسد
ساحة الشهادة
ساحة الغيب
قضاء الله تعالى المنهجي
قوّة الاختيار
قوّة الجبر
قضاء الله تعالى الكوني
محصّلة قوّتي الجبر والاختيار
الموت
الميلاد
الوجود المطلق لله تعالى
الوجود الحادث للمخلوقات
الإرادة الإلهيّة
المشيئة الإلهيّة
العلم الإلهي المطلق
العلم الإلهي المشاهد
الغيب المطلق
قدر الإرادة
قدر المشيئة
الغيب المقيّد
القَدر

يصوِّر القرآن الكريم (قضاء الله تعالى المنهجي) لنا أحكاماً مطلَّقة لا يحكمها المكان والزمان ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ويطلب الله تعالى منّا الالتزام بهذه الأحكام ، مبيِّناً أنَّ حالنا ستتغيَّر حسب التزامنا بها ..

إنَّ علينا أن نُميِّز بين تصوِّر هذه المسألة ، من منظار المكان والزمان الذي يحكمنا ، حيث نتفاعل في هذا الإطار مع الأسباب والمقدمات والنتائج المترتبة على اختيارنا ، وإحاطة قدر المشيئة بذلك ، من جهة ، وبين وجود المسألة في علم الله تعالى ، وإحاطة قدر الإرادة بها ، بعيداً عن إطار المكان والزمان ، من جهةٍ أُخرى ..

يجب ألاّ ننسى أنَّ الله تعالى موجودٌ وجوداً مطلقاً في الماضي والحاضر والمستقبل ، ولا يحكمه انسياب الزمن الذي يحكمنا ، فوجوده أثناء الأخذ بالأسباب ، هو وجوده ذاته أثناء حصول النتائج المترتبة على الأخذ بهذه الأسباب .. إنَّ الوجود الإلهي أثناء الدعاء ، هو الوجود ذاته أثناء إجابة هذا الدعاء .. وما نحس به من زمن يفصل بين المقدمات ونتائجها ، ناتج عن انصياعنا لحكم هذا الزمن ، وانسيابه — بالنسبة لنا — من الماضي باتجاه المستقبل ..

وعلينا أن نُميِّز أيضاً — في كُلِّ حركةٍ من حركات حياتنا — بين تعلُّقها بقضاء الله تعالى الكوني الجبري ، وبين تعلُّقها بقضاء الله تعالى المنهجي الاختياري .. وأن نُميِّز بين إرادتنا فيها ، وبين موافقة هذه الإرادة لُمراد الله تعالى في حصولها ، أو في عدمه .. وأن نُميِّز بين حقيقة الشرِّ المتعلِّق بإرادة الشرِّ الضالّة للإنسان ، وبين المشيئة الإلهيّة المحيطة بالمشيئة الإنسانيّة ، عبر تسخير الأسباب بين يدي البشر لتحقيق مُرادهم بهدف امتحانهم ، وأن نعلمَ أنَّ الشرَّ ناتج عن إرادة البشر الضالّة في دفع هذه الأسباب باتجاه الشرّ .. حينما نقف على حقيقة هذه المسائل وقوفاً سليماً ، حين ذلك نُدرك — أكثر من قبل — مسائل القضاء والقدر بشكل سليم ..

إنَّ تسخير الله تعالى للخيارات الخاصّة المتاحة أمام النفس ، في كلِّ نقطة من منحني حياتها ، وتسخيره للأسباب والقضاء الكوني المحيط بالنفس في كل نقطة من هذا المنحني ، هو نتيجة علم الله تعالى بإرادة النفس وبمشيئتها أثناء وجودها في كلِّ نقطة من منحني حياتها ، ونتيجة حكمة الله تعالى المطلقة في امتحان النفس بين هذه الخيارات المتاحة .. وكلّ ذلك يعلمه الله تعالى أزلاً ، قبل وجود النفس في عالمها المكاني والزماني ..

فعلم الله تعالى المُشاهِد للحادثة أثناء انسيابها في إطار المكان والزمان ، وإحاطة مشيئة الله تعالى بذلك في كلِّ نقطة من منحني حياة هذه الحادثة ، وهو ما نحس به ونتفاعل معه في حياتنا الدنيا ، عبارة عن ترجمة مكانية زمانية ، لما علمه الله تعالى بعلمه المطلق ، وما هو مكتوب عنده خارج إطار المادة والمكان والزمان ..

في علم الله تعالى المطلق في أُمِّ الكتاب ، أنَّ آدم وزوجَه سيأكلان من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها ، ونتيجةً لذلك سيهبطان من الجنة ، وستكون لهما ذرّية ، منها الصالح ومنها غير ذلك .. ومنحني الحياة لجميع أفراد هذه الذرية ، يراه الله تعالى أمامه قبل خلق آدم عليه السلام ، وكلّ ذلك يتعلَّق بقدر الإرادة المطلق ، المرتبط بعلم الله تعالى المطلق ، وبوجوده المطلق الذي لا يحدّه إطار المكان والزمان ، وبإرادته المجرَّدة عن هذا الإطار .. ولذلك قبل خلق آدم عليه السَّلام قال الله تعالى ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

.. وسيُترجَم هذا القدر إلى أحداث في عالم المادة والمكان والزمان (قدر المشيئة) ، فآدم سيأكل — وبكامل إرادته الحرّة — من الشجرة ، ونتيجة لذلك سيهبط من الجنة ، وستكون له ذرية ، وسيحصل سفكٌ للدماء ..

ولكن .. هل هذا القدر المتعلّق بعلم الله تعالى المطلق – قدر الإرادة – هو الذي أجبر آدم وزوجه على معصية الله تعالى والأكل من الشجرة المحرَّم عليهما الأكل منها ، وبالتالي وصولهما إلى النتيجة التي ترتبت على ذلك ، وهي الهبوط من الجنة ؟ .. أبداً .. وهل إرادة آدم عليه السَّلام وزوجه التي دفعتهم إلى الأكل من هذه الشجرة تُوافق مُراد الله تعالى الذي أراده وقضاه ؟ .. أبداً .. لقد نهاهما الله تعالى عن الاقتراب من هذه الشجرة .. ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥]

.. وهل القدر المتعلّق بعلم الله تعالى المطلق – قدر الإرادة – هو الذي يُجبر على سفك الدماء الذي نراه بين البشر الآن ؟ .. أبداً .. لقد نهى الله تعالى عن ذلك ..

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا ﴾ [النساء : ٩٣]

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الإسراء : ٣٣]

علينا أن نميز بين وجودنا في إطار المكان والزمان ، وانصياعنا لقوانينه ، وانصياعنا لقوانين الأسباب والمقدمات والنتائج ، ومَنحِنَا حرية اختيار قضاء الله تعالى المنهجي ، وعصيانه ، وما يترتب على ذلك ، وبين علم الله تعالى المطلق الذي يعلم كلّ ما كان ، وكلّ ما يكون ، وكلّ ما سيكون ، بعيداً عن قوانين المكان والزمان ..

.. لننظر إلى دعاء أيوب عليه السَّلام ، واستجابة الله تعالى لهذا الدعاء ، التي غيرت من حاله ..

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ – ٨٤]

إنَّ المقدمة هي دعاء أيوب عليه السلام ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ والنتيجة الحاصلة هي استجابة الله تعالى لهذا الدعاء وتغيير حاله ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ ..

لو نظرنا في التغيير والتبديل الذي حصل لحال أيوب عليه السَّلام ، لرأينا أنَّ من مقدِّماتِه عنصر الاختيار الإنساني ، والأخذَ بالأسباب ، أي يدخل فيه عنصر المشيئة الإنسانية .. وهذا التبديل الحاصل في حياة أيوب عليه السَّلام ، يحيط به قدر المشيئة الإلهية في إطار المكان والزمان .. ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ..

ولكن .. هل هذا التغيير في حال أيوب عليه السلام ، مستقلٌّ عن قدر الإرادة المطلق في أمِّ الكتاب ؟ .. وبصورة أخرى ، هل الله تعالى في علمه المطلق ، لا يعلم أنَّ أيوب عليه السلام سيُبتلى وسيدعو الله تعالى من قلبٍ صادقٍ في المكان والزمان اللذين دعا فيهما وستُستجاب دعوته وستتغيَّر حاله كما حدث تماماً ؟ ..

كيف يكون لمخلوق كالزمن وانسيابه المسَّخر من الله تعالى ، أن يحكم الخالق عزَّ وجلَّ .. إنَّ ما حصل تماماً مع أيوب عليه السلام – وهو قدر المشيئة المرتبط بتفاعل الأسباب والمقدمات مع نتائجها – مطابقٌ مطابقة مطلقة لقدر الإرادة المرتبط بعلم الله تعالى المطلق ، والمكتوب في أُمِّ الكتاب ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ..

وكما قلنا .. علينا أن نميِّز في كلِّ حركةٍ من حركات حياتنا ، بين قضاء الله تعالى وإرادته من جهة ، وبين اختيارنا المرتبط بإرادتنا ، وما نتفاعل معه في عالم المشيئة من جهة أخرى ، حتى لا تختلط علينا الأمور في الكثير ممّا نواجهه في حياتنا الدنيا ..

فعلى سبيل المثال .. لو قام إنسان – عن سبق إرادة – بقتل إنسانٍ آخر ، دون أن يعلم الآخر بذلك .. فما هو موقع كلٍّ منها – بالنسبة لحادثة القتل هذه – في مسائل القضاء والقدر ؟ ..

١ – بالنسبة للقاتل فقد خالف إرادة الله تعالى الشرعيَّة وقضاءه المنهجي الذي أراده منهجاً للبشر وأعلمهم وأوصاهم به ، وتفاعل مع مسألة القتل من زاوية الشهادة لا من زاوية الغيب ، وبالتالي سيلقى جزاء هذا العمل في الآخرة .. ولكنه لم يخرج – بهذا العمل – عن مشيئة الله تعالى ، فلولا تسخير الله تعالى للأسباب التي استطاع من خلالها قتل الآخر لما استطاع قتله ..

ولم يخرج بهذه الحادثة عن قدر الله تعالى ، فالله تعالى يعلم بعلمه الكاشف أنَّ القاتل سيقوم بعمله هذا في ذات الزمان والمكان اللذين تمت فيهما هذه الحادثة ، وهذا العلم الكاشف مكتوبٌ في أُمِّ الكتاب عند الله تعالى ..

وقيّوميّة الله تعالى وحكمته تحيطان بالمسألة – بالنسبة للقاتل – من أساسها ، فالله تعالى يعلم بعلمه الكاشف الإرادة الضالّة للقاتل ، وبأنَّ إرادته لا تتجه – بالنسبة لهذه الحادثة – نحو الخير أبداً .. وبالتالي بغية امتحانه لإخراج هذه الإرادة الضالّة إلى عالم الوجود المخلوق المحسوس ، ترك المقتول ليكون ضحية للقاتل ..

٢ – بالنسبة للمقتول فلا علاقة له بإرادة الله تعالى الشرعيّة وبقضائه المنهجي بالنسبة لهذه الحادثة ، لأنه لا يعلم بما حصل ، وحَكَمَهُ هذا الحدث عبر ساحة الغيب ، وبالتالي لا يحاسبه الله تعالى يوم القيامة بالنسبة لحادث القتل هذا ..

والمقتول لم يخرج – في هذا الحادث – عن مشيئة الله تعالى ، فأسباب قتله من تفاعل جسده مع حيثّيات القتل مسخّرة ولا يملك تغييرها .. والمقتول – في هذا الحادث – لم يخرج عن قدر الله تعالى ، فالله تعالى يعلم بعلمه الكاشف أنه سيُقتل في المكان والزمان اللذين قُتِل فيهما ، علماً مُسجّلاً في أمّ الكتاب ..

وقيّوميّة الله تعالى وحكمته تحيطان – بالنسبة للمقتول – بالمسألة من أساسها .. فالله تعالى يعلم بعلمه المطلق وحكمته المطلقة ، بأنَّ المقتول قد استوفى زمن امتحانه (عمره)

، وأنَّ تمديد عمره لا يؤدي به إلى نتيجةٍ غير التي وصل إليها .. وبالتالي ترك الأسباب تفعل لدفعه نحو كونه ضحيّةً للقاتل ..

ومِمّا سبق نرى أنَّ إرادة الله تعالى وقضاءَه يتعلَّقان بالله تعالى فقط ، لذلك فهما لا يحملان الشَّر للإنسان ، أمّا المشيئة الإلهية المحيطة بمشيئة الإنسان ، فترتبط بدفع الإنسان للأسباب ، وكذلك القدر يرتبط جزء منه باختيار الإنسان ، كونه علماً كاشفاً لما سيكون .. لذلك فالمشيئة الإلهية والقدر ، قد يحملان الشَّر ، وذلك بسب اختيار الإنسان ودفعه للأسباب باتجاه الشَّر ..

❁ ❁ ❁

قيّوميّة الله تعالى

رأينا أنَّ الإنسان وجميع المخلوقات ، محتاجة في كلِّ لحظة من وجودها إلى قـــدرة الله تعالى التي تعطيها حيثيات هذا الوجود ، ولولا ذلك لزالت هذه المخلوقات ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر :٤١]

ورأينا أيضاً أنَّ الأسباب مخلوقةٌ لله تعالى ، وأنَّ ما يفعله الإنسان هو توجيه هذه الأسباب المخلوقة والأخذ بها حسب إرادته ، فخاصِّيتها وقوّة فعلها تعود إلى الله تعالى ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ [البقرة : ٢٩]

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦]

فالكون الذي خلقه الله تعالى وفق نظام حدَّده له ، لم يتركه يسير بعيداً عن قيّوميّته جلَّ وعلا – كما يتصوَّر بعض الضَّالين – بل هو قيّومٌ على ملكه ، وما خرق قوانين الكون من معجزات أعطاها لرسله عليهم السلام ، إلاّ دليل على أنَّ الأسباب لا تفعل إلاّ بقدرة الله تعالى ..

إنَّ عدم إدراك عمق هذه المسألة ، جعل بعض الناس يتيهون بين الأسباب وبين خالقها سبحانه وتعالى ، ويتيهون أيضاً بين ارتباط النتائج بمقدماتها ، الذي تعوَّدوا عليه من جهة ، وبين ارتباط هذه النتائج بجزاء الله تعالى وقيّوميّته من جهة أخرى .. لقد انصرفوا إلى الأسباب متجاهلين خالقها الذي يعطيها ويعطيهم في كلِّ لحظة حيثيات الوجود في هذا العالم ، معتقدين أنهم أصليون في هذا الكون ، وأنهم بإرادتهم ومشيئتهم وبتفاعلهم مع الأسباب سيصلون إلى نتائج تغيب عن علم الله تعالى ، وعن قيّوميّته ، وعن جزائه .. معتقدين أن وجود الله تعالى المطلق مثل وجودهم ، وأنَّ علمه وقيّوميّته مثل علمهم وقدرتهم ..

إنَّ من تصوَّر أنه بأخذه للأسباب وفق إرادته المستقلَّة ، إنما يعاند القدر .. فتخيُّله هذا مبني على فرض ، مفاده أنَّ النَّتيجة المكتوبة في أُمِّ الكتاب – قدر الإرادة – غير تلك التي يحصل عليها بأخذه للأسباب وفق إرادته الحرَّة ، وأنَّ علم الله تعالى المطلق عاجزٌ عن الإحاطة بإرادته ، وبما سيعمل بشكلٍ مجرَّدٍ عن الزمن ، أي أنَّ قدر المشيئة لا يطابق قدر الإرادة ..

فالذي تصوَّر أنَّه بقتله لإنسان أو لنفسه ، قد غيَّر العمر المقدَّر عند الله تعالى ، إنما فرض سلفاً أنه عَلِمَ هذا العلم المقدَّر ، وأنه يختلف عن العمر الذي انتهى لحظة القتل .. أي فرض سلفاً أنَّ الله تعالى عاجزٌ عن علم مسألة القتل هذه قبل وقوعها ، وكأنَّ الله تعالى يعلم بعلمه المطلق ، أنَّ الإنسان المقتول سيعيش فترة محددة وأنَّ أسباب عيشه

مستقلَّة عن قيّوميّة الله تعالى ، ويأتي هو (القاتل) ليتحدَّى هذا العلم ويخرقه مغيراً العمر المقدَّر الذي علمه ..

إنَّ مثل هذه التصورات مبنيَّةٌ على جهلٍ يُصوِّر من الإنسان خالقاً لحيثيّات وجوده ، ولحيثيات وجود الأسباب التي يستخدمها ، ويُصوِّر علم الإنسان المُحدَّد بإطار المكان والزمان قيداً على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ، وكأنَّ عِلْمَ الله تعالى وقدرته وحكمته وقيّوميّته لا تخرج عن الإطار المحيط بتصوِّر هذا الإنسان ، من أمثلة وقياسات في خياله ، اكتسبها من المحيط المادي المخلوق الذي عاش فيه ..

﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤]

وكذلك مسألة الرزق .. فبعض الناس يأخذون بأسباب الرزق ، متجاهلين خالقها ومسخِّرها ومذلِّلها لهم ، وجاعلها رهينة لإرادتهم ، معتقدين أنَّ الرزق الذي يحصلون عليه يرتبط ارتباطاً مطلقاً بمقدماته من العمل والسعي بعيداً عن حكمة الله تعالى وقيّوميّته ، وعن هدف امتحانهم في هذه الدنيا .. وبعض الناس يتصوَّرون أنَّ الرزق لا علاقة له بالعمل والأخذ بالأسباب ، وأنَّ النتيجة واحدة ، سواء أخذوا بالأسباب أم لم يأخذوا بها ..

إنَّ كلا التصوّرين خاطىء .. فالمسألة من زاوية حركة الإنسان في حياته الدنيا والسعي والعمل والأخذ بالأسباب ، وقيّوميّة الله تعالى، وخلقه لأسباب الرزق ، ولقدرة الإنسان على الأخذ بهذه الأسباب ، هي مسألة مرتبطة بقدر المشيئة ، المحيط بالحوادث وتفاعلها وحركتها بين المقدمات ونتائجها ضمن إطار مشيئة الله تعالى .. فالوصول إلى الرزق لا بُدَّ له من العمل والسَّعي ، والله سبحانه وتعالى أمر بذلك ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥]

وهذا تشير إليه العبارة القرآنية ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ ﴾ [الرعد : ٣٩] ..

أمّا المسألة من زاوية علم الله تعالى المطلق بإرادة الإنسان ، وجزائه العادل ، وحكمته في امتحان هذا الإنسان ، وبالنتيجة الحاصلة ، وبما سيكون ، وتقدير ذلك في أُمِّ الكتاب .. هذه المسألة – من هذه الزاوية – تتعلّق بالقدر المطلق – قدر الإرادة – الموجود في أُمِّ الكتاب ، خارج إطار المادة والمكان والزمان ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] .. وهذا ما تشير إليه العبارة القرآنية ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد : ٣٩] ..

إنَّ أخذنا للدواء وقيامنا بالتداوي ، لا يردُّ من قدر الله تعالى شيئاً ، فذلك لا يخرج عن قدر الله تعالى ، بمعنى لا يخرج عن علمه الكاشف لما سيكون ..

فالحركة بين المقدمات وهي تناول الدواء ، والنتائج وهي درجة حصول الشفاء ، هي حركة تتعلّق باختيار الإنسان .. فبإمكان الإنسان أن يختار بين الأدوية المتاحة ، وبإمكانه تناول الدواء وعدم تناوله .. وإنَّ توفيق الله تعالى وتسخيره لأسباب الشفاء بين المقدمات ونتائجها في هذه المسألة ، يرتبطان بقيّوميّة الله تعالى على حركات حياة الإنسان .. هذه هي المسألة من زاوية قدر المشيئة المحيط بحركة الإنسان في هذا العالم ..

ولكن .. من زاوية قدر الإرادة ، المرتبط بعلم الله تعالى المطلق لما سيكون ، هل يعجز هذا العلم المطلق عن رؤية المسألة من بدايتها إلى نهايتها ؟ .. إنَّ الله تعالى يرى ذلك ويعلمه علماً مطلقاً قبل خلق الإنسان ، وهو ما قُدِّر في أُمِّ الكتاب .. وبالتالي هو من قدر الله تعالى ..

وقيّوميّة الله تعالى ، تحيط حكمتها بكلِّ حركة من حركات النفس عبر حياتها .. فأسباب الاتجاه نحو الهدى وظلمات الضلال ، المسخَّرة للنفس في كلِّ نقطة من منحني

حياتها ، يحيط بها علم الله تعالى وجزاؤه العادل .. وقد بيَّن الله تعالى في منهجه هذين الطريقين ..

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣]

ولكن قيّومية الله تعالى ، لا تقف عند حدود تبيين طريقي الهدى والضلال فقط .. إنها تحيط بإرادة الإنسان وغايته ، وتسخِّر له أسباب الهدى والضلال التي تتجه إليها إرادته .. إنَّ الله تعالى يعلم علماً مطلقاً غاية الإرادة ، وحقيقة انتمائها ، إمّا لساحة الخير وإمّا لساحة الشَّر .. فالإرادة — كما رأينا في بحث الإرادة والمشيئة — لا يمكنها أن ترتبط في الوقت نفسه بمسألتين متناقضتين كالخير والشَّر ..

فالإنسان الذي يملك إرادةً تتَّجه غايتها باتجاه نور الهدى ، لا يمكنه أن يملك في الوقت نفسه إرادةً تتَّجه غايتها نحو ظلمات الضلال .. وهذا الإنسان الذي يملك هذه الإرادة ، يهديه الله تعالى إلى نور هدايته ..

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١]

والإنسان الذي يملك إرادةً كاذبةً كافرةً ، تتجه غايتها باتجاه ظلمات الضلال ، هاربة من نور الهدى ، لا يمكنه أن يملك في الوقت نفسه إرادةً تتجه باتجاه نور الهدى .. وهذا الإنسان الذي يملك هذه الإرادة ، لا يهديه الله تعالى — عبر امتحانه في الحياة الدنيا — إلى نور الهدى في منهجه ، فذلك من العبث ، لأنَّ إرادته لا تتجه باتجاه ذلك ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨]

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥]

ومن لم يهده الله تعالى – لعلمه تعالى بحقيقة إرادته الضالة الهاربة من نور الهداية – فكأنما أضلَّه ، لأنَّ من لم يسر على نور الهدى ، فقد سار في ظلمات الضلال ..

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر : ٣٤]

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [غافر : ٧٣ – ٧٤]

فطريقا الهدى والضلال اللذان يسخِّرهما الله تعالى لعباده ، يرتبطان بعلم الله تعالى المطلق المحيط بإرادة هؤلاء العباد ، وبحكمته المطلقة في امتحانهم وكشف حقيقة إرادتهم ، وبعدله المطلق في جزائهم .. وكلّ ذلك في إطار قيّوميّة الله تعالى على خلقه ..

لذلك نرى أنَّ أسباب الضلال لبعض البشر ، هي ذاتها أسبابٌ لهدي بعضهم الآخر .. فالمسألة هي امتحانٌ وجزاءٌ لإرادة الإنسان ، امتحاناً وجزاءً عادلين حكيمين يرتبطان بعدل الله تعالى وحكمته ..

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤]

فالله تعالى ليس بعيداً بعلمه وحكمته وبقدرته وقيّوميّته وبجزائه العادل ، عن تسخِّير طرق الهداية والضلال التي تتجه إلى غايات البشر ، وعن كلِّ حركة من حركات الحياة في هذا الكون .. ولذلك نرى أنَّ الله تعالى يُجازي أحياناً على العمل في الحياة الدنيا ،

سواء الثواب أم العقاب ، ولا يترك مطلق الجزاء للآخرة ، ليرى الإنسان جانباً من قيّوميّة الله تعالى وعدله ، وليدرك أن الله تعالى لا يغيب بكلِّ صفاته العظيمة عن كلِّ حركة من حركات هذا الكون ..

وهكذا نرى أنَّ هديَ الله تعالى لبعض البشر ، وإضلالَه لبعضهم الآخر ، هو في حقيقته عدلٌ من الله تعالى وعلمٌ مطلق بحقيقة إرادتهم ، ضمن إطار قيّوميّة الله تعالى على ملكه ..

إنَّ هذا التَّصوُّر لقيّوميّة الله تعالى على ملكه ، التي تقتضي ألاّ يغيب الله تعالى بعلمه وقدرته وحكمته وجزائه ووجوده عن كلِّ ما يجري في هذا الكون ، هذا التَّصوُّر يتعلَّق باسم الصفة لله تعالى ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ .. وهذه الصفة التي تقتضي الوجود المطلق غير المخلوق تقتضي صفة الحياة الدائمة غير المخلوقة ، والتي تتعلَّق باسم الصفة لله تعالى ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ ..

عندما نحاول تصوُّر صفة ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، فإنَّ ذلك يقتضي تصوُّر صفة ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ لله تعالى .. وهذه المسألة ليست مسألة فلسفة تأويل وضعي يتعلَّق بخيال الإنسان .. إنها حقيقة يقرُّها القرآن الكريم .. فاسم الصفة للذات الإلهية ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، يرد في القرآن الكريم ثلاث مرات ، وفي هذه المواضع الثلاث يأتي مرتبطاً باسم الصفة ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ ..

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢]

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١]

وإنَّ ارتباط المسائل التي تصفها وتسمّيها الكلمات القرآنيّة المرتبطة ببعضها بعضاً في القرآن الكريم ، هي مسألة يؤكّدها القرآن الكريم .. لذلك نرى أنَّ الدين الإلهي الحقّ

الذي ضمن الله تعالى حفظه ، والنورَ الإلهيَّ الذي يخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، والذي لا تحكمه قوانين المكان والزمان .. نرى أنَّ هذا الدين ترتبط به كلمة ﴿ ٱلۡقَيِّمُۚ ﴾ ارتباطاً تامّاً .. فكلمة ﴿ ٱلۡقَيِّمُۚ ﴾ ترد في القرآن الكريم (٤) مرّات ، تأتي فيها جميعها مرتبطة بكلمة ﴿ ٱلدِّينُ ﴾ ، وهذا الاقتران هو تصوير مطلق لحقيقة دين الله تعالى الذي يأمرنا باتّباعه ، فلا قيّم في عمل الإنسان إلاّ التزامه بهذا الدين ..

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ [التوبة : ٣٦]

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠]

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [الروم : ٤٣]

حكمة الله تعالى

رأينا في بحث القضاء أنَّ هناك قضاءً كونياً جبرياً لا خيار للإنسان فيه ، مثل ولادته وعمره وأسرته و ..... وأنَّ هناك قضاءً منهجياً اختيارياً ، بإمكان الإنسان اختياره ، وبإمكانه عصيانه ، وأنَّ الإنسان سيحاسب على طاعته وعصيانه لهذا القضاء ..

ولكن .. ما علاقة القضاء الكوني الجبري الذي يحكم الإنسان قسراً ، بما يحيط بالإنسان من قضاء منهجي وخيارات متاحة تتعلّق بهذا القضاء ؟ .. فهل لخصوصية القضاء الكوني الذي يحيط بكلِّ إنسان ، حكمة تغيب عن إدراكنا ؟ ..

وبمعنى آخر .. ما هو سرُّ الحكمة والعدل في امتحان الله تعالى للبشر ، بوضع كلّ إنسان في ظروفٍ جبريّةٍ خاصّةٍ به ، هذا فقير وهذا غني ، هذا ينجب وهذا عقيم ، هذا يموت شاباً وهذا يُردُّ إلى أرذل العمر ؟ ..

إنَّ أيَّ امتحان حقيقي يقتضي مُمتحِناً ومُمتحَناً ومادةً للامتحان .. وحتى يكون هذا الامتحان عادلاً يقتضي أن يعلم المُمتَحِنُ حالَ المُمتَحَن ، وأن تكون مادة الامتحان متناسبةً مع حال المُمتَحَن التي يعلمها المُمتَحِن علماً كاملاً ، وأن يكون المُمتَحَن قد اختار دخولَ الامتحان وأُعلم به وبمادّته وبكيفيَّة حساب النتيجة ، وحسابه على هذه النتيجة .. عند ذلك نقول إنَّ هذا الامتحان هو امتحانٌ حقيقيٌ عادلٌ ..

إن تعهّد الإنسان بحمل الأمانة التي أبت المخلوقات حملها ، وذلك في عالم ما فوفق المادة والمكان والزمان (وهو في حال النفس المجرّدة) قبل مجيئه إلى هذه الدنيا ، هو قبول الإنسان دخول الامتحان عبر هذه الدنيا ، ليُمتَحَن في عالم المادّة المحسوس ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

وإنَّ وضْع الله تعالى للإنسان — في حياته الدنيا — ضمن ظروفه الجبريّة الخاصّة ، وإحاطته بالخيارات الخاصّة المختلفة ، يتعلّق بعلم المُمتَحِن وبإرادته في امتحان المُمتَحَن عبر هذه الحالة الخاصة به ..

وإنَّ عدم اطِّلاع الإنسان على أسرار الغيب ، وإرسالَ الرسل عليهم السلام بالمناهج الإلهية التي تبيِّن طريق الحق من طريق الباطل ، والتي تُبيِّن ثواب من يطيع وعقاب من يعصي هذه المناهج ... كلٌّ ذلك من مقتضيات امتحان الله تعالى للإنسان ، واختباره في حمل الأمانة التي تعهَّد بحملها ، امتحاناً مُشاهَداً في ساحة المادة والمكان والزمان ، حتى يكون الإنسان شاهداً يوم القيامة على حقيقة عمله في هذا الامتحان ..

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

لذلك فإنَّ منح الإنسان نِعَم الإدراك من سمعٍ وبصرٍ يعي بها ما وراء ظواهر الحقائق ، هو امتحان من الله تعالى في هذه الدنيا ..

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢]

وتباين القضاء الكوني الجبري بالنسبة للبشر ، يرتبط بمشيئة الله تعالى في امتحان هؤلاء البشر ، ولا يرتبط برضا الله تعالى أو بعدم رضاه عنهم ..

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٢ – ٣٥]

وهكذا فإن رفْع الله تعالى للناس بعضهم فوق بعض درجات في الحياة الدنيا ، هو لحكمة إلهية بهدف اختبارهم حسب الدرجة التي آتاهم الله تعالى إيّاها ..

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

فَبَسْطُ الله تعالى الرزق لبعض عباده ، هو من مقتضيات امتحانهم ، بما يتناسب مع علم الله تعالى الخبير البصير بحالهم ..

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء : ٣٠]

ربما ينظر بعض الناس من زاوية الدنيا إلى هذه المسألة ، نظرةً سطحيَّة تتعلَّق بمتع الدنيا الزائلة .. ولكنَّ المسألة من زاوية الحكمة الإلهية ، هي امتحان اختاره الله تعالى بعلمه وحكمته .. فالله تعالى الخبير البصير بحال عباده ، يعلم علماً مطلقاً نتيجةَ بسط الرزق لعباده كما يريدون ..

﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الشورى : ٢٧]

فهذه النِّعم المحيطة بالإنسان من سمعٍ وبصرٍ و..... إنما هي لغاية مُرادة من الله تعالى ، وسيُسأل الإنسان يوم القيامة عن تفاعله في حياتنا الدنيا مع هذه النِّعم ، حسب ما بيَّنه منهج الله تعالى .. لذلك فإن سَحْبَ الله تعالى بعض هذه النِّعم من بعض البشر ، يعني أنَّ الله تعالى لم يشأ اختبارهم عبر هذه النِّعم التي سحبها منهم ، وأنه سيختبرهم وهذه النِّعم مسحوبة منهم ..

وسَحْب هذه النِّعم منهم ، هو في الحقيقة خيرٌ لهم ، لأنَّ الله تعالى يعلم بعلمه المطلق أنهم سيتفاعلون مع هذه النِّعم – فيما لو لم تحسب منهم – باتجاه الإعراض عن منهج الله تعالى ..

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣]

وإنَّ علينا أن نعلمَ بأنَّ نعمة السمع في هذه الصورة القرآنيّة ، وغيرها من النعم كالبصر و ..... والواردة في القرآن الكريم ، لا يُراد بها مجرَّد الآليات المادية من آلية أذنيّة للسمع المادّي ، وآلية عينيّة للبصر المادي و ..... إنما يُراد بها – أيضاً – السمع الروحي لمنهج الله تعالى ، والبصر الروحي ، و .....

.. لذلك فإنّ ولادة الإنسان في مجتمعٍ له خصوصيّته الدينيّة والمذهبيّة والحضاريّة ، تحيط بها حكمة الله تعالى لامتحان هذا الإنسان (عبر هذه الخصوصيّات) ، في درجة بحثه عن الحق ، وسماعه للحق ، ورؤيته للحق ..

وفترة الامتحان (العمر) مختارة بحكمة من الله تعالى .. لذلك عندما يطلب الكفّار تمديد هذه الفترة ، عبر اختبارهم من جديد .. يخبرنا الله تعالى بعلمه المطلق ، أنهم لو عادوا للاختبار من جديد لعادوا إلى كفرهم ..

﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

فلو علم الله تعالى فيهم خيراً ، وأنَّ زيادة فترة امتحانهم (عمرهم في الحياة الدنيا) ستكون لصالحهم ، لمدَّد هذه الفترة ولكان عمرهم أكبر من العمر الذي عاشوه ..

ورب قائل يقول كيف يخلد الإنسان في جهنم أو في الجنّة ، نتيجة عملٍ عمله في فترة محدَّدة في حياته الدنيا ؟! .. إنَّ الإرادة - كما رأينا – ترتبط بساحة ما فوق المادة والمكان والزمان ، وما الحياة الدنيا إلاّ وسيلة لإخراج إرادة الإنسان إلى مشيئة في عالم الحسّ والوجود ، عن طريق الأخذ بالأسباب .. وبما أنَّ حقيقة الإرادة مستقلة عن

قوانين المكان والزمان ، ولذلك مهما مُدِّد عمر الإنسان (الذي حدَّده الله تعالى بحكمة مطلقة تحيط بإرادة هذا الإنسان) لا يمكن أن تكون محصلة العمل مختلفةً عن المحصلة التي حصل عليها .. فالإرادة ظهرت كاملةً من خلال أخذ الإنسان بالأسباب حسب الغاية التي تريدها ذاته ..

حين نأخذ قطرة من الماء ونضعها في المخبر ، ونستخرج منها نتيجة نعمِّمها على الماء الموجود في الكون .. إنما فعلنا ذلك لعلمنا المسبق أنَّ هذه القطرة تحمل من الخواص ما تحمله كلّ قطرات الماء الموجودة في الكون ، وإلاّ لما عمَّمنا النتيجة التي حصلنا عليها ..

إنَّ الله تعالى باختباره لعباده يكون عادلاً حكيماً ، ومستوفياً كلَّ شروط الامتحان العادل .. فيبيِّن عن طريق رسله ، منهجَهُ الصحيح الذي يأمر بالحقِّ والطاعةِ والابتعاد عن الباطل والمعصية ، ويوفر للناس كلّ الخيارات التي يستطيعون اختيارها بحرية تامَّة ، فيوفِّر لهم حرية اختيار منهجه وحرية الابتعاد عنه ، وبعد ذلك إن فسقوا وعصوا وابتعدوا عن منهجه يحقّ عليهم العذاب الذي بينه لهم في منهجه ..

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾ [القصص : ٩٥]

وهكذا نرى أنَّ تحديد العمر من الله تعالى ، وخلْقه للأسباب الخاصّة المحيطة بكلِّ نفس ، يتعلَّق بمدّة الامتحان التي يريدها الله تعالى للإنسان .. فالموت هو طريق حتمي تمرُّ منه كلُّ نفس عند انتهاء فترة امتحانها ..

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥]

لذلك لن يؤخِّر الله تعالى نفساً بعد فترة امتحانها ، لأنه حدَّد هذه الفترة بناءً على علمه المطلق بحقيقة إرادة هذه النفس .. فالله تعالى الخبير بعمل هذه النفس ، يعلم أنَّ تمديد أجلها لن يؤدّي إلى وصولها لنتيجة أفضل من التي وصلت إليها ..

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١١]

لقد رأينا – في بحث القضاء – أنَّ القضاء الكوني الجبري هو من عطاء الربوبيّة ، فهو حكم الرَّب .. وهذا الحكم الجبري المختار من الله تعالى لكلِّ مخلوق ، هو مرادٌ لامتحان النفس حسب ما يريده الله تعالى ، وحسب علمه المطلق بحال هذه النفس ، وبشكل الامتحان الذي اختاره الله تعالى لها ..

لذلك فهذا الحكم الجبري ، الذي لا خيار للإنسان فيه ولا حول ولا قوّة ، بحاجة إلى صبر حتى تجتاز النفس امتحانها الذي يمتحنها الله تعالى بأن حكم عليها هذا الحكم ..

وعظمة البيان الإلهي تتجلَّى في القرآن الكريم ، حين تصوير حكم الرَّب المحيط بالنفس .. لذلك نرى أنَّ الصور القرآنية التي تصور لنا حكم الرَّب ، تأتي مرتبطةً بالصبر .. ولقد وردت العبارة القرآنية (حكم ربّك) في القرآن الكريم ثلاث مرات ، جاءت فيها مقترنة بالصبر ..

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨]

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ [القلم : ٤٨]

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴾ [الإنسان : ٢٤]

فوضع النفس ضمن إطار القضاء الكوني الجبري ، من أجل امتحانٍ يريده الله تعالى ، يتعلَّق بعلم الله تعالى المطلق وحكمته وخبرته ..

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨]

وما الحياة الدنيا إلاّ امتحان للإنسان في أدائه للأمانة التي تعهَّد بحملها وهو في حالة النفس المجرَّدة قبل مجيئه إلى الدنيا ..

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : ٧]

وهذا يقتضي أنَّ الحياة الدنيا مرحلةٌ مؤقَّتةٌ ، كلّ ما فيها متاعٌ زائلٌ يراد منه الاختبار ..

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : ٦٠]

فالحركة والسعي إذا نُظر إليهما من منظار الدنيا ، وبهدف الدنيا ، هما لعب ، وهذا العب لا يؤدي إلاّ إلى اللهو .. ومن جهة أخرى فإنَّ لهو الدنيا وزينتها ، لا يكون إلاّ ضمن إطار اللعب ، لأنَّ الدنيا فانيةٌ وكلَّ ما فيها زائلٌ ، سواء الحركة أم المتعة .. فاللعب هو الحركة والسعي بغير هدفٍ نبيل ، وهذا يؤدي إلى اللهو .. واللهو هو نتيجة السَّعي والمتعة ، بعيداً عن الأهداف النبيلة ..

وهذا هو البيان الإلهي يصوِّر لنا عمق هذه الحقيقة ، التي تربط اللعب باللهو في الحياة الدنيا ، ومن منظار هذه الحياة الفانية .. فكلمتا ﴿ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ ﴾ عندما تقترنان باللعب تقترنان باللهو ، والعكس بالعكس ، عندما تقترنان باللهو تقترنان باللعب .. فلا يمكن لهاتين الكلمتين أن تقترنا باللعب دون اللهو ، أو تقترنا باللهو دون اللعب ..

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الأنعام : ٣٢]

﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ ﴾ [محمد : ٣٦]

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد : ٢٠]

ولكن النظر إلى حقيقة الدنيا من منظار الحكمة الإلهية ، والهدفِ الذي خُلقت الدنيا من أجله ، يجعلنا نرى المسألة عكس ذلك .. فوجودُ الإنسان في الحياة الدنيا ليس عبثاً ، وخَلْقُ السماوات والأرض ليس لعباً يُراد منه اللهو والتسلية ..

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦ – ١٧]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥]

والفارق بين المؤمن والكافر هو في إدراك هذه الحقيقة ، وفي العملِ والسعي وفق هذا الإدراك .. إمّا من منظار الحكمة الإلهية وإدراك أنَّ الدنيا هي امتحانٌ مؤقتٌ للنفس في التزامها بمنهج الله تعالى .. أو من منظار الدنيا الفانية ، واتّخاذها لهواً ولعباً ، وبالتالي الابتعاد عن منهج الله تعالى ..

فتفاعل الإنسان مع ابتلاء الدنيا من خير وشر ، يُعبِّر عن حقيقة الإيمان ، وعن مدى إدراك الإنسان لحقيقة وجوده في هذا الدنيا .. لذلك نرى غير المؤمن الذي يعتبر الدنيا كلَّ شيءٍ ، يطمئن للخير إن أصابه ، وينقلب على وجهه أن أصابه غير ذلك ..

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١]

ويرى المؤمن كلَّ شيء يصيبه اختباراً من الله تعالى ورحمةً به ، وأنَّ الدنيا دارٌ فانية زائلة ، لذلك إذا ابتلي بالخير شكر ، واعتبر ذلك امتحاناً من الله تعالى لمدى شكره وتصرُّفه بهذا الخير .. وإذا ابتلي بغير ذلك اعتبره امتحاناً من الله تعالى لمدى صبره وتصرُّفه ..

﴿ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠]

❁ ❁ ❁

الخاتمة

.. لقد رأينا عبر أبعاد هذه النظرية أنَّ القرآن الكريم منهجٌ شامل ، يحمل الإجابة على أيِّ مسألةٍ تتعلّق بعقيدة الإنسان ، وأنَّ الانطلاق من مقدماتٍ قرآنيةٍ ، وفهمها بالشكل الصحيح الذي يحمله القرآن الكريم ، يوصِل إلى نتائجَ صحيحةٍ ثابتةٍ يحملها القرآن الكريم ، ويقرها العقل والمنطق ..

وبالنظر إلى مخطّط هذه النظرية ، نرى أنَّ مسائل الجبر والاختيار والقضاء والقدر ، ترتبط ارتباطاً تامّاً بمسائل الروح والنفس والإرادة والمشيئة والعلم والوجود ، فهي ترتبط بالهدف الذي خُلق الإنسان من أجله ، ويحيط بها إطار الحكمة الإلهيّة من وجود الإنسان في هذه الحياة ..

صحيح أنَّ الإنسان لا يُحاسَب في الآخرة على إدراكه أو عدم إدراكه لهذه المسائل ، بمقدار ما يُحاسب على عمله ، ولكن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، لا يكتمل إيمان الإنسان إلاّ بالإيمان به ، وبانعكاس ذلك في سلوكه وعمله ..

ويدَّعي بعض المُضِّلين ، أنَّ أسباب التخَّلف الاقتصادي والعلمي في بعض المجتمعات الإسلامية ، مرجعه الإيمان بمسائل القضاء والقدر مُدَّعين أنَّ الإيمان بهذه المسائل يؤدِّي إلى التَّواكل والكسل وعدم الأخذ بالأسباب ..

ويصوِّر بعضهم الآخر — ممّن يحسبون أنفسهم ناطقين باسم الله تعالى وأوصياءَ على منهجه — مسائل القضاء والقدر وما يتعلَّق بهما ، تصويراً يؤدي في النهاية إلى الجبريّة التامّة التي تؤدّي إلى التّواكل بين المسلمين ، وتعطي غيرَ المسلمين حيثيّات اتّهام الفكر الإسلامي بحمل هذه الجبريّة السلبيّة ..

إن الإسلام — وهم يعرفون ذلك — دين العمل والعلم والأخذ بالأسباب ..

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥]

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩]

﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥]

ولم يأت الإسلام بمنهج يُقِّيد حركة الإنسان النبيلة وعلمه وعمله .. إنّ ما قيَّده الإسلام وحذَّر منه ، هو توجيه الأسباب والعمل بها باتجاه الشّر والإثم والعدوان ..

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢]

فالفهم الخاطىء لمسائل القضاء والقدر والجبر والاختيار التي جاء بها الإسلام — سواء لبعض المسلمين أو غيرهم — لا يعود إلى الإسلام ، إنما يعود إلى عدم إدراك ما جاء به الإسلام .. فمنهج الإسلام لا يحمل ما توهّمه الذين قالوا بالجبر الكامل ، وأنَّ الإنسانَ مسلوب الإرادة والاختيار ، ولا يحمل ما توهّمه الذين قالوا بالاختيار الكامل ، وبأنَّ الإنسان قد أختار كلّ شيء في حياته ، ولا يحمل ما توهّمه الذين حاولوا نفي قيّوميّة الله تعالى عن ملكه ، وكأنَّ الله تعالى عمّا يصفون ، ليس له إلا دور المتفرِّج على ما يحدث ..

لا أحد من هؤلاء استند على القرآن الكريم ، ولا أحد من هؤلاء عاد بالمسألة إلى جذورها .. ولربّما يرجع حمل هذه المفاهيم إلى عدم التمييز بين مسألة القضاء من جهة ، وبين مسألة القدر من جهة أُخرى ، وإلى عدم التمييز بين القضاء المنهجي من جهة ، وبين القضاء الكوني من جهة أُخرى .. وسبب كلّ ذلك هو عدم معايرة الفكر والموروث الفكري على كتاب الله تعالى ..

إنّ سبب وجود التخلف في بعض المجتمعات الإسلامية ، هو عدم فهم حقيقة ما جاء به القرآن الكريم ، وعدم العمل بما أمر به ، والابتعاد عن تطبيق منهجه وعن تنفيذ

أحكامه .. ولو التزمت هذه المجتمعات بمنهج الإسلام بالشكل الذي يريده منزّل هذا المنهج لما رأينا التَّخلُّف في تلك المجتمعات ..

ومسائل القضاء والقدر — وأيّ مسألة من المسائل التي يحملها المنهج الإلهي — يجب أن تكون عاملَ لقاءٍ ووحدةٍ بين جميع المسلمين ، لأنَّ المنهج واحد يُؤمن به جميعُ المسلمين ، والاختلافُ بين المسلمين في رؤية هذه المسائل ، ناتج عن الزوايا المختلفة التي ينظرون من خلالها إلى هذه المسائل ، ولا بُدَّ من إطارٍ واحدٍ يحوي جميع هذه الآراء ، ضمن ما يحمله منهج الله سبحانه وتعالى (القرآن الكريم) ..

إن الإسلام دين عمل وأخذ بالأسباب ، وليس دينَ تواكلٍ وكسل ، وفي الإسلام لا يُوجَد وقتٌ للهو والعب ، فالحياة عبادة وعمل .. لذلك نرى أنَّ الله تعالى يأمرنا بعد الفراغ من الصلاة ، بالعمل والأخذ بالأسباب والابتغاء من فضل الله تعالى ..

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠]

والإسلام ليس دين العمل والأخذ بالأسباب باتجاه الخير من أجل ذات الإنسان العامل بهذه الأسباب فحسب ، بل هو دين التضحية بالذات في سبيل الله تعالى ، ودين العمل باتجاه الخير للآخرين ، وذوبان الأنا في الجماعة ..

ولإدراك عمق هذه الحقيقة ، التي تُميِّز منهج الإسلام عن غيره من المناهج حتى السماويَّة ، سنقف عند موقفين متشابهين تماماً تعرَّض لهما الرسول محمد ﷺ وموسى عليه السَّلام .. ولا نريد بهذه المقارنة التفريق بين الرُّسل عليهم صلوات الله تعالى أجمعين .. إنَّ ما نريده هو إلقاء الضوء على عمق مبدأ التضحية في سبيل الله تعالى ، وذوبان الأنا في الجماعة ، الذي اتَّصف به الإسلام وتميَّز به عن غيره ..

فالمقارنة ليست بين محمّد ﷺ وموسى عليه السلام ، فنحن يأمرنا الله تعالى ألاّ نفرّق بين أحدٍ من رسله .. المقارنة هي بين منهج الرسالة الخاتمة وغيرها من الرسالات ..

لقد تعرَّض موسى عليه السَّلام وقومه لموقفٍ صعب ، عندما أدركهم فرعون وجيشه ، فما قول موسى عليه السَّلام تجاه هذا الموقف ؟ .. هذا القول الذي جاء منسجماً مع روح المنهج الذي يسير عليه قومه ، ومع سلوكية تعاملهم مع هذا المنهج ..

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٠ – ٦٣]

وتعرَّض الرَّسول ﷺ وأبو بكر الصِّدِّيق للموقف نفسه عندما لحق بهم الكفار ، فما قول الرسول ﷺ تجاه هذا الموقف .. هذا القول الذي جاء منسجماً مع روح منهج الإسلام وسلوكيَّة متَّبعيه ..

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠]

لنقارن بين العبارة التي نطق بها الرسول ﷺ في ذلك الموقف **﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾** وبين العبارة التي نطق بها موسى عليه السَّلام في موقف يماثله **﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾** ..

في الموقف الإسلامي جاءت كلمة الله **﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾** وهي من عطاء الإلوهية الذي يخصُّ المؤمنين دون غيرهم من البشر ، أي أنَّ الذي معنا هو الله إلهنا الذي نعبده ونتَّجه إليه في كلِّ أفعالنا .. وفي الموقف الآخر جاءت كلمة ربي **﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾** وهي عطاء الرُّبوبية لجميع البشر طائعهم وعاصيهم ..

في الموقف الإسلامي جاءت كلمة الله قبل كلمة معنا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فالاتجاه إلى الله تعالى والتَّضحية في سبيله ، أهم من الذات ﴿ مَعَنَا ﴾ ، وفي الموقف الآخر جاءت كلمة معي قبل الذات الإلهية ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ ..

في الموقف الإسلامي جاءت كلمة ﴿ مَعَنَا ﴾ وهي بصيغة الجماعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، وفي الموقف الآخر جاءت كلمة ﴿ مَعِيَ ﴾ ، وهي بصيغة الإفراد ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ ..

وكما قلنا المقارنة ليست بين الرسول ﷺ وبين موسى عليه السَّلام .. إنها مقارنة تُبيِّن لنا مدى ارتباط روح الإسلام بالتضحية والعمل في سبيل الله تعالى ، وذوبان الذات في الجماعة ..... ولذلك قال الله تعالى في حقِّ الأمَّة المسلمة الملتزمة بمنهجه المنصاعة لأحكامه ..

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠]

وما يبدِّدُ ظلام الأنانيَّة في النفس ، ويعطي الإنسان حافزاً باتجاه الخير ، مهما ملك هذا الإنسان مقارنةً مع غيره من البشر ، هو الإيمان بمسائل القضاء والقدر .. فلا ينظر الإنسان إلى ما أُعطي غيره ، لأنه يعلم أنَّ المسألة هي مسألة امتحان ، وأنَّ من أُعطي أكثر ليس شرطاً هو الأفضل .. بل إنَّ من عمل وأطاع الله تعالى أكثر ودخل في رحمته هو الأفضل ..

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢]

إنَّ إدراك حقيقة الحياة الدنيا وقيمتها — إذا ما قورنت بالحياة الآخرة الخالدة — يضع الإنسان وسلوكه في موقعه الإيجابي تجاه نفسه وتجاه غيره ..

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠]

ومن لم يدرك أنَّ وراء الأسباب المسخَّرة للإنسان مُسبِّباً يُسخِّرها له ، ومن لم يُدرك الحكمة التي خُلق الإنسان من أجلها ، فإنَّ قلبه أعمى وإن كانت له حواس ..

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف ١٧٩]

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦]

وهناك شعاعٌ من النُّور يربط نعيم الآخرة والفوز بجنَّتها ، مع الصِّراط المستقيم الذي بيَّنه الله تعالى ، والذي نرى من خلاله حقيقة العالم الآخر ، عبر نور هذا الصراط الذي يحمل لنا الهداية والنعيم في الدنيا والآخرة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء : ١٧٤]

﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة : ١٥]

هذا النُّور الإلهي يراه الإنسان عندما يسير على الصراط المستقيم في منهج الله تعالى ..

﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١]

وعلاقة النُّور بين الدنيا والآخرة ، هي علاقة عميقة جداً .. فنور الحق في منهج الله تعالى ، هو النُّور الذي يرى به الإنسان بالآخرة .. ومن لم يَقتبس من هذا النور في حياته الدنيا ويسير به على الصراط المستقيم الذي بيَّنه الله تعالى في منهجه ، لا يُجد له في الآخرة نوراً يرى به .. فالنور الذي يراه الإنسان ويقتبسه من منهج الله تعالى ، ويسير به على الصراط المستقيم في الحياة الدنيا ، هو ذاته النور الذي يرى به في الآخرة ..

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٧٢]

﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾

فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٢ – ١٥]

فالمؤمن هو الذي يرى النورَ في منهج الله تعالى ، ويقتبس من هذا النور ما يُضيء له الطريق على صراط الله تعالى المستقيم ، الذي طلب من عباده السير عليه في الحياة الدنيا .. والمسيء هو الذي يُعرض عن هذا المنهج ولا يلتزم به ، وبالتالي لا يقتبس من هذا النور شيئاً ..

﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٦]

﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨]

لذلك يُعدُّ المنهج الإلهي بصائر للإنسان ، يرى الحقيقة من خلال نوره ، ولا سبيل لرؤية الحقيقة إلاّ عبر نور هذا المنهج ..

﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

وهكذا فإنَّ كلَّ من يُعرض ويبتعد – أو يُبعد غيره – عن هذا النور الإلهي في منهج الله تعالى ، إنما يُغرِق نفسَه في دياجير الظلام ..

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ ﴾ [البقرة : ١١٤]

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٧]

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢]

والنور الإلهي الذي يحويه منهج الله تعالى ، هو نورٌ واحدٌ كاملٌ لا يتجزأ ، أما ظلمات الجهل والفساد التي تحملها مناهج البشر الوضعية ، البعيدة عن منهج الله تعالى ، فهي كثيرة .. ولذلك نرى أنَّ عظمة البيان الإلهي في القرآن الكريم تتحدَّث دائماً عن النور بصيغة المفرد ، فلم تأتِ هذه الكلمة ولا مرَّة بصيغة الجمع ، وتتحدَّث عن كلمة الظلمات دائماً بصيغة الجمع .. فطرق الجهل والفساد كثيرة ، أمَّا نور الحق فهو واحد لا يتجزَّأ ..

إنَّ أيَّ إنسان ينتمي في الآخرة إلى إحدى مجموعتين ، مجموعة أصحاب الجنَّة ، أو مجموعة أصحاب النّار ... وانتماؤه إلى إحدى هاتين المجموعتين ، يتوقَّف على التزامه بمنهج الله تعالى .. فوعد الله تعالى حقٌ وحاصلٌ لا شكَّ في ذلك ..

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٤]

لقد جاء النَّص القرآني الكريم بالنسبة لأصحاب الجنَّة ﴿ **مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا** ﴾ ، فأصحاب الجنَّة نظروا إلى هذا الوعد في حياهم الدنيا ، والتزموا به ، أمَّا أصحاب النّار فقد جاء النَّص القرآني الكريم بالنسبة لهم ﴿ **مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ** ﴾ ولم يأت (ما وعدكم ربكم) ، لأنهم لم ينظروا إلى هذا المنهج في حياهم الدنيا ، ولم يلتزموا به ، ولم يؤمنوا أنَّ هذا الوعد حاصل ..

ولو رجع كلُّ إنسانٍ إلى عقلِهِ وفطرتِهِ السليمة ، بعيداً عن وسوسات شياطين الإنس والجن ، لأدرك – على قدر ما يستطيع – حقيقة وجوده في هذه الدنيا ، وحكمة ما

يحيط به من مسائل القضاء والقدر ، وبأنها جميعها تدور داخل إطار امتحانه في حمل الأمانة التي تعهَّد بحملها ، وذلك عبر اتِّباع منهج الله تعالى ..

ولو عاد الإنسان إلى منهج الله تعالى ، لرأى هذه الحقيقة نوراً يضيء له طريق الحياة ، وصراطاً مستقيماً يؤدِّي به إلى نعيم الدنيا والآخرة ..

تمَّ بعونه تعالى

عام ١٤١٦ هجري الموافق ١٩٩٦ ميلادي

❋ ❋ ❋

الفهرس

الفصل الرابع

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net